مباحث اجنبية في تاريخ لبنان

# بيروت ولبنان

## منذ قرن ونصف القرن


بقلم

هنري غيز

قنصل فرنسا في ذلك الزمان


تعريب

مارون عبود

الجزء الاول


منشورات دار المكشوف

مباحث اجنبية في تاريخ لبنان

# بيروت ولبنان

## منذ قرن ونصف القرن

بقلم

هنري غيز
قنصل فرنسا في ذلك الزمان

تعريب

مارون عبود

الجزء الاول

منشورات دار المكشوف

عنوان الكتاب بالفرنسية

# RELATION

d'un séjour de plusieurs années

à BEYROUTH et dans le LIBAN

par

**HENRI GUYS**

PARIS. 1847

الطبعة الثانية ، بيروت – لبنان ، ايلول ١٩٤٩

# كلمة لا بد منها

هذا كتاب ضخم يصوّر لنا بيروت ولبنان يوم كان مؤلفه قنصلاً فرنسياً في الربوع اللبنانية . فالمسيو هنري غيز قنصل ابن قنصل ، وُلد في ديارنا ، ونشأ على هـــذا الساحل اللازوردي ، وتعلم الفرنسية كما نتعلمها نحن ، لأنه ربيب اسرة عتيقـــة المقام بهذه الارض .

في كتاب هذا القنصل اراء ، منها المختمر ومنها الفطير ، وفيه اوهام وحقائق ، وفيه جدّ وثرثرة . ترجمته ترجمةً لا تخرج عن الاصل ، ولم أسقط منه إلا ما لا يُحتمل ذكره ولا يطاق ، وهذا قليل . لم ارد على المؤلف عنـد كل رأي لا نُقرّه نحن ، لئلا يضيع القارىء في اودية الحواشي . فمن يقرأه يعلم مـــا اعرف ويرى ما ارى . فأنا لم اعربه ليقرأه الاجانب .

كلنا نعلم ان السائحين ، كالشعراء ، في كل وادٍ يهيمون ، فكيف بهم وقد جاؤوا لبنان الذي هامت فيه وبه امم المسكونة ؟ فكلهم امتدحوا وذموا ، وهذا شأن كتّاب الرحلات ، واكثرهم يعمل من الحبة قبة .

اما نحن ، الشرقيين ، فقـد كفانا كاتبنا العظيم ، شيخنا احمد فارس الشدياق ، شرّ هؤلاءِ جميعـــاً ، كما استقل باعباء عرفان

الفضل في كتابه « كشف المخبا عن فنون اوروبا » ، فأعطى الحق صاحبه .

واحدة بواحدة ، والبادىء اظلم .

وبعد ، فاشهد الله وملائكته ، انني ذقت الامرّين قبل ان جعلت بعض كلام المؤلف آخذاً برقاب بعض ، فصاحبنا يقطع من كل وادٍ عصا ، ويفرّ من موضوع الى موضوع فرّاً عجيباً غريباً . فهزي غـيز هو مكرّ مفرّ ، لا جواد امرىء القيس السعيد الذكر ...

اجاد المسيو بوجولا في المقدمة – وهي اول ما تقرأ – حين عرض لانشاء المسيو غيز واسلوبه ، فقال : « سوف لا تفتش في كتابكم عن اناقة الانشاء ، وفخامة الوصف ، فمن يكونون في بيروت وحلب لا يهتمون بجمال الاسلوب ، لانهم بعيدون جداً عن شؤون المجمع العلمي وشجونه ... »

ففي سبيلك وذمتك ، ايها القارىء الكريم ، مـا قاسيتُ ، وحسبي رضاك ، وانت نعم الوكيل لمن يعيش بين الحبر والورق والاقلام .

عين كفاع ( لبنان )، صيف ١٩٤٩ .

مارون عبود

# كتاب من السيد بوجولا

## الى السيد هنري غيز

قنصل فرنسا في حلب

قرأت ، يا سيدي ، مخطوطة « مشاهداتكم » التي شئتم ان تطلعوني عليها طالبين رأيي فيها . ان مؤلفكم ، وهذا ما كان يمكنكم ان تتوقعوه ، قد اعجبني جداً . قرأته قراءة عابرة ، ثم قراءة من يحاول ان يستنير ويستفيد . لقد رددتم اليّ شبابي اذ وضعتم امام عيني تلك البقعة : بيروت ولبنان ، التي زرتها منذ خمسة عشر عاماً ، فاعدتم الى ذهني صورة مدينة بيروت الغريبة غير المنسقة ، والحقول المغروسة اشجاراً من التوت الجميل ، وغابة الصنوبر القائمة مكان الغابة القديمة التي زارتها فؤوس فرساننا الصليبيين ، وقمة القديس ديمتري الحلوة حيث طافت احلامي عشرين عاماً ، واخيراً بدا لعيني لبنان بأوديته المدهشة ، وارزه الاثري ، وديورته وامرائه ، وشعبه ، وتاريخه المفجع .

. . . . . . . . . . . . . .

ان « مشاهداتكم » ، سيدي ، لتفيض بوصف العادات والتفاصيل الطريفة ، والاراء اللاذعة ، والوثائق على اختلاف انواعها . وصفتم الشعوب التي عشتم طويلاً بين ظهرانيها ، فاوضحتم لنا عاداتها واخلاقها وتفكيرها ونفسيتها . انكم تقصّون وتحكمون حكم رجل البلاد المجرّب ، ولكن بتفوق الاوروبي الذي ينظر من اعالي

المدنية المسيحية . فالسائح الذي يريد ان يطوف سوريا ، بساطة واستفادة ، يجد ، ولا شك ، في كتابكم ، دليلًا له . والتاجر الذي يريد ان يعقد صفقاته يستوحي نصائحكم ويهتدي بمعلوماتكم . وقناصلنا في سوريا يتعلمون منه حقوقهم وواجباتهم . واخيراً ان مؤلفي كتب الرحلات في سوريا ، الذين يهمهم اصلاح خطأهم ، واكمال دروسهم ، سيرجعون الى كتابكم فيجدون اجل الفوائد .

ليس كتابكم بنظرة عابر سبيل ، ولكنه نتيجة ملاحظات اربعين سنة صُرفت في درس العادات والسياسة وعلم الآثار القديمة . انكم لم توجهوا كلامكم الى الشعراء ، بل الى رجال العمل . فخيالكم هو الحقيقة بعينها .

سوف لا نفتش في كتابكم عن إناقة الانشاء ، وفخامة الوصف ، فمن يكونون في بيروت وحلب لا يهتمون بجمال الاسلوب لانهم بعيدون جداً عن شؤون المجمع العلمي وشجونه ...

سوف نجد في هذه « المشاهدات » طابعاً خاصاً له لذته ، كما نجد فيها الكثير من الصراحة ، وعدم التصنع . ان كتابكم هذا لشرف لكم ، وسيكون اثراً خالداً لاقامتكم في سوريا ، ولاسمكم الذي تجلله خدمات مشرفة للدولة ، وستكسبون بذلك شهرة عظيمة .

ثقوا ، سيدي ، بالغبطة التي اشعر بها ، وانا اكتب اليكم هذه الاسطر ، وبالذكرى الجميلة التي احفظها لضيافتكم لي في سفوح لبنان .

اكوان ، قرب باريس ، ٢٥ آب ١٨٤٦ .

بوجولا

# مقدمة

لقد عزمتُ ان ادوّن ملاحظات يعود اولها الى بدء اقامتي في بيروت . واني لاشعر بتأخري قليلًا ، لان بيروت ولبنان لم يعودا يسترعيان الانتباه العام الذي كانا يَسترعيانه في اثناء الحوادث الهامة التي جرت فيهما . بيد انه لما كانت مشاهداتي هذه تصويرية ، وتاريخية ، واحصائية ، واخلاقية اكثر منها سياسية ، فقد ظننتُ انها تلائم القارئين في كل زمان . وهي ، فيما عدا ذلك ، متنوعة بالمواضيع المطروقة التي اخال اني خصصتها بجميع فئـات القراء حتى الفئة التي تلتمس في كتاب جديد سبيلًا للتلهي بدلاً مـن موضوع يهذب ويفيد . وعلى كل حال ، فقد كان غرضي الاساسي تنوير اذهان مـن يدفعهم حب الرحلة الى سوريا . فالى رحّالة المستقبل اسدي هنا بعض النصائح .

ان المسافر الذي يرغب ان يزور سوريا بلهفة وشوق ، واذا تحرينا الصدق قلنا : باقل ما يستطيع من كراهية ، يجب عليـه ان يتزود بكل ما هو ضروري ، وان لا يعتمد في شيء على ما يمكن ان تقدمه له هذه البلاد من اسباب الراحة .

ليس في تلك الربوع سوى مطايا تحمل عليها الاشخاص من مكان الى مكان ، وغالباً ما تكون هذه المطايا هزيلة غير نشيطة .

ولما كانت البراذع التركية غير صالحة البتة ، فعلى المسافر ان يأخذ سرجاً افرنجياً ، ويتزود بثفر وحزام وقرابيس شكت فيها الغدارات القوية .

ان الاسلحة لا تستعمل إلا نادراً ، غير انها هي التي تضمن لك السلام والامان .

ان حقائب الثياب والقبعات والمظلات والاخراج وجميع حوائج المسافر يجب ان تكون مغلفة بمشمّع ، او مطلاة بمادة دسمة تمنع الخدوش التي يحدثها العوسج والصخور ذات الشناخيب حين تعلق بها الحمولة لدى اجتياز المعابر الضيقة ، كما انها تحول دون البلل في الوقت نفسه .

ولا بد للرحالة من سرير نقّال كيلا يُضطر الى النوم على التراب ، وليتلافى الغبار والرطوبة والقمل والحشرات الاخرى التي يوجد بينها ما يؤذي ، لا بل ما هو خطر ومخيف .. والاخيرة من هذه الحشرات موجودة في الخرائب والقلاع القديمة . ان ناموسيّة محكمة على السرير ليست بالشيء الكافي بالنظر لكثرة البرغش الذي يُرى في بعض الامكنة .

ان الرداء ذا القلنسوة ، والطاقات المصنوعة من نسيج لا تخرقه المياه والوحول ، هي ضرورية .

وكذلك بعض معدات المطبخ ، وادوات سفرة كاملة ، وابريق صالح لطبخ القهوة على الكحول ( السبيرتو ) وشمعدان ، وعدد لا يحصى من الحاجيات التي تُصطحب حسب ذوق الاشخاص .

اما انا ، فلم اجد وسيلة للسفر خيراً من ان يصطحب السائح كل ما هو ضروري من الخيمة فنازلاً . وعند ذاك لا يضطر الى

التعريج على القرى ، بل يحل باحسن مكان ، وذلك يكون عادة في حديقة قرب نبع او جدول . فهناك لا تتعرض لامراض المساكن القذرة ، ونستريح بعض الشيء من تطلعات الفضوليين المتعبة ، كما اننا لا ندفع لاحد شيئاً من المال ، ولا نتقيد باي موجبات . وهكذا يمكننا ان نعيش على هوانا ، لان الخادم لا يقوم إلا بما يؤمر به .

ليس في لبنان مطاعم ، ولا منازل معدة للسياح ، ولا فنادق . اما الحوانيت التي يسميها اصحابها مقاهي ، وهي تحتوي كل شيء ، كما يزعم من يديرها ، فلا يمكن ان يجد فيها المسافر إلا الزيتون ، والخبز ، والجبن الابيض احياناً . اما المشروبات فيقدم منها العرق ، وقلما نجد النبيذ .

وليس لطريقة السياحة في هذه البلدان سعة الطريقة الاوروبية واساليبها السهلة ، مع انها ضرورية . غير ان الرحلات هنا يقام بها باكثر لذة ، وعلى الاخص خلال ثمانية اشهر في السنة او تسعة . انها تذكرنا بالازمنة البدائية يوم كانت تكثر سعادة البشر وتزداد بقدر ما هم قريبون من الطبيعة . فالسعادة امست تطلب اليوم من رفيق انيس ، فالرفيق هو اولى العُدَد التي يحتاج اليها السائح في الشرق ولا يمكنه الاستغناء عنها .

انني اذكر هذه الابيات من الشعر لدي ليل [1] :

« ... ان الاشجار تتحدث قليلاً ، هذا ما قاله لافونتين ،

فأود لو اجد واحداً الى جانبي لانقل له ما يوحيه الي الغاب .»

١ رجل الحقول ، النشيد الثالث .

ان الفصل الحادي والثلاثين ( من هذا الكتاب ) ينير طريقنا اذ يصف لنـــا البيوت العربية والرفاهية التي يمكننا ان نعتمد عليها فيها .

واني انصح دائماً المسافر الذي لا يملك خيمة ( شادر ) ، او ليس في عبته كتاب توصية ، ان يتوجه الى كاهن المحلة لان منزله اكثر نظافة من غيره ، بل اقل قذارة اذا اردنا الصدق . اما المنفعة من هذا الانتقاء ، فهي توخي دفع المصارفات دائماً ، لان الكاهن لا يمكنه ان يرفض ما يقدم له ( كحسنة قداس ) . اما اذا كان غير هذا فالمضايقة واقعة ، لا محالة .

نصبتُ خيمتي على سطح منزل الكاهن ، وهو قائم في الضواحي التي لا يتمتع فيها بامان كبير .

يجب ان يحذر المسافر اراء ابناء هذا البلد ، وبعض الفرنجة ، فهم يحشون ، اذا ما استشيروا ، مخيلة السائحين بالمبالغات التي يروونها عن الآثار التي ادهشتهم . وذلك يعود الى غباوتهم لانهم لا يشبهون القلاع التي يخلب ألبابهم منظرها الرائع الا بمـــا نراه اليوم من بنيّات ، وهي اكثر سماجة من التي نسميها نحن بربرية . ان العرب تدهشهم ، بوجه عـام ، رؤية الانقاض ، وكل قلعة ، مبنية بحجارة ضخمة ، تعد بمجرد هذه الضخامة اعجوبة نظرهم . انهم يؤكدون ان الناس يعجزون عن اشادة مثلها ، ويعزونَ ذلك العمل الى الجن .

ويجب علي ان احيط القارىء علماً باني امتنع عن التدليل على الاخطاء العديدة المنتشرة هنا وهناك في مؤلفات السيّـاح . ان مهمة الناقد لا تغريني البتة ، فضلاً عن اني ان فعلت فقد اعرّض نفسي الى ان اكون متعباً ومملا ، دون ان يكون لي اقل نصيب في

ان الذّ قارئي . فالكثيرون من الذين سبقوني قد نظروا الى الاشياء التي وصفوها نظرة عجلى ، او انهم وثقوا ثقة عميـاء بالاشخاص الذين استقوا منهم معلوماتهم . وهذان السببان يخلقان لهم عذراً . ولما كنت اعتبر ، ولا شك ، انهم تحدثوا صادقين عن نقاط اخرى ، فقد كنت جد مسرور بذكر مـا اذاعوا . وقد اهتممت بنقل اقوالهم كما وردت في كتبهم ، بدلاً من ايرادهـا بتعابير اخرى ، وفي ذلك فخر لي أني تركتها لهم ، وضحيت بانانيتي لأؤيد بالشواهد آرائي التي تضمنها كتابي هذا . ان هذه الاراء ، وان بدت ضعيفة ، فهي لا تقل قيمة عن ارائي انا الذي عرف البلاد ولابس اهلها . اني اعدها نوعاً من التأكيد الذي يضاف الى المزاعم المنقولة ، ودعامة للفكرة التي سبقني اليها غيري .

واری لزاماً علي ان انبه القارىء الى ان مـا يلمسه من فرق بين قيم النقد ينتج عن تقلبات الاسعار في مختلف الاوقات . وهذه التقلبات يحدثها التقلب المتواصـل في العملة التركية فتؤدي الى ارتفاع اسواق النقد الاوروبي ، ومن ثم الى قيمة الاوراق النقدية التي تدفع بهذه العملة .

كان بوسعي ان اقدم للقراء رسوماً ومخطوطات اهتممت بجمعها لانه توفر لديّ مستندات جديدة وكاملة ، وهي كافية للقيام بتنظيم خريطة لبنان ، فعسىٰ ان يتاح لي فيما بعد ان ابرز الى الوجود هذه التتمات المختلفة ، المكملة لمشاهداتي .

# الفصل الاول

خطة الكتاب . ملخص تاريخ بيروت .

يطلب ، عادةً ، من الرحالة ان يصف ، ببعض التفصيل ، البلد الذي يتناول الحديث عنه ، لكي يعرّف النقاط المهمة في تاريخه . وهذه الطريقة يتوجب عليه اتباعها ، ولا سيما حين يضطر ، لانه لا يريد ، او لا يستطيع ان يطوف كثيراً ، ان يقيم في مكان معلوم ، ليراقب ، من محل مشرف ، جميع الاشياء التي يدور عليها موضوعه ، فيعطي كلًّا منها على حدة لونه الخاص .

واعتقد انه يجب الاكثار من الالمام ببعض المعلومات المختلفة ، لانها تحتوي كل ما هو ضروري لمعرفة مكان او ناحية في مختلف الوجوه التي تعوّد ان ينظر اليها من خلالها .

واذا اقتُفي اثري ، فان معرفة البلدان النائية تصبح سهلة . والذين يرودون البلدان ، وعندهم هذه الصورة التي تتكون من مجموعة هذه الالمامات الجزئية ، يستطيعون ان يقوموا برحلة مجدية ، فينتقلوا الى المكان الذي يريدون ان يروا فيه شيئاً معيناً ، كلٌّ حسب ذوقه وهدفه الذي يحدوه الى السفر .

أفلا يُصنع هكذا عندما يراد تنظيم خريطة بلاد ما ؟ لا بد من رسم الخطوط الاولية اولاً ، لتصلح فيما بعد ان تكون صورة

كاملة ، وبهذه الطريقة تكون ، عـــلى قدر الامكان ، صحيحة كاملة .

شاهدت علماء وهواة يطوفون جميع انحاء سوريا ، لانهم يريدون رؤيتها في خمسة عشر يومـــاً ، ثم ينشرون « مشاهداتهم » حسب ارائهم المستقاة من المكاتب ، او مأخوذة مـــن محادثات أهل البلاد الذين صادفوهم في طريقهم . تلك هي الخطة التي سلكها من تقدمهم ، بعد ان مرّوا عن يمين وشمال بالآثار ، والامكنة ، والمدن التي كان لهم بعض اللذة في مشاهدتها .

وهذا هو السبب الذي حملني ، في اثناء اقامتي عدة سنوات في سوريا ، على ان اسدد ، في مناحي شتى ، خطوات السائح العادي . لقد نبهتهم الى اشياء طريفة كان وجودها عندهم مجهولاً . إلا انهم لم يحاولوا معرفة الذي دللتهم عليه ، بل ان كثيرين منهم تحدثوا عن اشياء لم يعرفوها إلا بالسماع .

كان بمكنني ان اسجل لهم عدة اخطـــاء ، لاني رأيت سوريا بعيني ، وقرأت الكتب التي نشرت عن هذا البلد . إلا اني لمـــا كنت لا اكتب إلا لأرضي رغبة اصدقائي الملحّة ، طامعاً بامتاع الجمهور وتفكهته ، فسوف لا ادل على اخطاء غيري ، لان ذلك يقتضيني الكثير من اللباقة .

وسوف يلاحظ القارىء انني على طرفي نقيض وبعض الرحالة الذين حكموا ، على ذمة غيرهم ، على اشياء كثيرة حكماً سطحياً .

اما انا فسوف لا اذكر شيئاً لم اره بام عيني ، او انـــه لم يكن من قبل قيد ملاحظة دقيقة ناضجة .

اندثر تاريخ بيروت ، كما اندثرت عدة حوادث تاريخيـــة في

ظلمات الازمنة [1] . ولولا بضع مقتطفات كتبت وانتهت الينا ، لتوجب علينا ارجاع العصور الى النقطة الاولى التي ابتدأت بها .

وما دمنا نفتقر الى معلومات مفصلة ، فلنكتفِ اذن بالقول ، مع المصنفين المسيحيين ، ان بيروت اسسها جرسي Gersé المعروف باسم جريس Géris [2] ابن كنعان الخامس . اما اذا اتبعنا اقوال المصنفين الوثنيين فتكون بروه Beroé زوجة اوجيكس Ogygès هي التي سمتها بيروتوس Béroutos . وهذه المدينة ، التي زاحمت في الاهمية صور وصيدون ، قد اتى على ذكرها استرابون Strabon وبلين Pline وبطليموس Ptolomée .

يقول الاب بيسون Besson [3] ان اهل هذه المدينة كانوا من الطبقة البرجوازية ، وان هيرود هو الذي قام بتجميلها ، ثم شيّد فيها الملك اغريبا الاروقة ، والمسارح ، والمدرّجات ، وعدة بنايات فخمة ، وانها لذيذة بثمارها ، وجميلة بسهولها المستلقية على شط البحر .

اصبحت بيروت ، التي سميت ، على عهد الامبراطرة الرومان ، فيليكس جوليا Félix Julia ، اكبر مدرسة للشرع في الشرق ، حتى ان يوستنيانوس أطلق عليها اسم ام الشرائع ومرضعتها [4] .

انجبت بيروت ، حين تصنيف مجموعة القوانين والاجتهادات الشهيرة ، اشهر مشترعي العصر : دوروتي Dorothée ، واناتول

١ راجع الفصل ٢٢ فيما توصلنا الى معرفته عن تاريخ بيروت .
٢ تاريخ الارض المقدسة ، جزء ٢ ، ص ٩٠٩ .
٣ سوريا المقدسة ، ص ٣٣ .
٤ موراري ، قاموس تاريخي ، الجزء الاول ، ص ٣٢٩ .

Anatole اللذين اشتغلا في تنسيقها ، وهي نواة القوانين الحديثة .

يقول مؤلف رسائل فلسطين [٥] ان لديه بيّنات كافية تعيد تاريخ انشاء هذه المدرسة الى ما قبل حكم ديوكلتيانوس ، اي الى حوالى القرن الثاني .

وبعد انقضاء ثلاثمائة سنة على ذلك ، اكتسبت اهمية كبرى ، حتى ان اسقف بيروت الذي حضر المجمع الخلكيدوني نُصّب مطراناً عليها ، واصبحت هذه المدينة كرسياً له [٦] .

وعام ٤٤٨ دعي الى عقد مجمع ثان فيها .

وفي ١١١٠ احتلها المحاربون الصليبيون .

بيد انها عادت فسقطت في ايدي المسلمين ، وهدمت بكاملها . ولقد حدّث مؤرخ الحروب الصليبية عنهم انهم قوضوا وقلبوا كل شيء حتى الارض التي وطئها المسيحيون . هدموا بيوتهم ، ومعابدهم ، ومآثر صناعتهم ، وتقواهم وقيمهم ، ابادوا كل شيء بالحديد والنار . مع ان مسجد بيروت الهام هو من صنع المجاهدين الصليبيين . والسيد بوجولا ، رفيق السيد ميشو في سفره وزميله ، قد اكد ان هذا المسجد هو الكنيسة عينها التي كرّسها الصليبيون على اسم القديس يوحنا [٧] .

ان الابراج التي كانت لا تزال قائمة بحالة حسنة ، قبل هجوم الانكليز والنمساويين ، هي ايضاً ، ولا شك ، مأثرة من مآثر الصليبيين .

٥ اوبير دي فيتري .

٦ موراري ، قاموس تاريخي .

٧ رسائل شرقية ، الجزء الخامس ، ص ١٩٥ .

كانت البلدان الاسلامية تعتبر ، وهذا ما يزعمه السيد ميشو [8] ، بيروت عاصمة لها ، ثم ان الملوك والامراء الذين تنازعوا ، فيما بينهم ، السيطرة على مدن الجوار ، كانوا يدخلون هذه المدينة ليبسطوا فيها عظمة تتويجهم [9] .

ان تاريخ بيروت الحديث معلوم ومعروف ، ولهذا ارى ان ذكر الحوادث التي قام بها الامير فخر الدين ، وضاهر العمر ، والجزّار هي عديمة المنفعة .

فلنكتف اذن بالقول ان هذا الباشا الاخير ، ذا التاريخ الدامي ( الجزّار ) ، هو الذي انتزعها ، الى الابد ، من الامراء الدروز . وحين لم تبق مقراً لامراء لبنان واقطاعة لهم ، امست ذات اهمية ضئيلة جداً .

ثم حدث ان احتمى احمد الجزّار عند الامير يوسف شهاب لما هرب من مصر . وعلى الرغم من ان الامير يوسف قد استقبله استقبالاً حفياً ، وجعله ، فيما بعد ، « متسلماً » في بيروت ، فقد نوى على ان يحتل المدينة ، وشرع يحصنها .

وعندما اصبح الجزّار باشا عكا – وهذا ما نراه فيما بعد – دعا المحسن اليه ، الامير يوسف ، حتى اذا ما اصبح في قبضة يده امر بذبحه .

نظر الباب العالي ، بعين الحسد ، الى المركز الهام الذي حازته بيروت بفضل موانئها ، ومنتجاتها ، ورفاهية شعوبها ، فأبى ان يعفيها من رسوم الجمارك . وهكذا اضطرت السفن الى ان ترسو

٨ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ١٢٥ .
٩ تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الثالث ، ص ٣٥ .

اكثر الاحيان ، في مرافىء صيدا وطرابلس التي كانت قاعدة اهم المؤسسات التجارية على الشاطىء، ولكن لما كانت اعمال التجارة حرة كانت بيروت تتمتع بافضلية على الاساكل الاخرى . ويجب ان نعتبر ان هذه المدينة هي اكثر اهمية من غيرها بالنسبة للمراكز الدبلوماسية ، ومكاتب سوريا التجارية .

اما اخضاعها ثانية لسلطة السلطان مباشرة فكان عام ١٧٨٧ .

# الفصل الثاني

اهمية بيروت التجارية . اسبابها .

لم يبدُ لبيروت شأن ، كمدينة تجارية ، إلا منذ ثلاثين سنة تقريباً . واستطيع ان اؤكد ، لاني زرتها عامي ١٨٠٨–١٨١٠ ، انه لم يكن يعقد فيها إلا صفقات تجارية قليلة . وبما اني لم ابارحها إلا عام ١٨٢٨ بعد ان عدت اليها عام ١٨٢٤ ، فقد استطعتُ ان اتتبع ازدهارها خلال فترة اربعة عشر عاماً ، في ابان نهضة صناعتها الحقيقية وتضخم ثروة سكانها .

وهذه المدينة ، بالنسبة لعدد سكانها ، تعد رابعة مدن سوريا . فهي دون طرابلس التي تأتي في الرتبة بعد الشام وحلب . ومن المؤكد ان عدد سكانها لا يتجاوز الخمسة عشر الفاً وخمسماية شخص ، منهم سبعة آلاف مسلم ، واربعة الاف من الروم الارثوذكس ، والف وخمسماية ماروني ، والف ومئتان من الروم الكاثوليك ، وثمانمائة درزي ، واربعمائة ارمني وسرياني كاثوليكي ، ومئتا يهودي ، واربعماية اوروبي .

تضافرت عدة عوامل على جعل بيروت المركز الاكثر اهمية على الشاطىء : منها موقعها المتوسط ، وقربها من الشام ، وجودة حرائرها ، وهدوء خليجها . واقول مع هذا ان العامل الاشد تأثيراً هو مجاورتها للجبل الذي حافظ امراؤه ، حاكموه القدماء ، على

سلطانهم فيه .

انه لم يكن ، لعشرين سنة خلت ، بامكان تجار البلاد ، سواء أكانوا مسلمين او مسيحيين ، ان يمارسوا اعمالهم التجارية إلا خفية ، اذ لم يكن في استطاعتهم ان يستقروا في مكان ما بصورة نهائية . كانوا يعيشون عيشة موقتة ، وفي خمول وانتظار الحوادث التي قد تدهمهم .

ففي ظل الحكم الدستوري تستطيع الطبقة المتوسطة ان تعيش مترفة ، وتنفق عن سعة . اما في ظل الحكم المطلق الظالم فالسعة لا تقضي على اصحابها بالحرمان فحسب ، بل تعرضهم ايضاً للخطر الذي تجرّه عليهم .

يجد الرجل في بيروت فوائد جمة لا يستطيع ان يجدها في اية اسكلة اخرى على عهد اضطهاد الجزّار وظلمه وبلصه ، هذه الاعمال التي جددها عبد الله باشا بضرائبه الفادحة فقط ، فاستمطر عليه غضب السلطنة العلية . كان عبد الله باشا ينقاد كثيراً لمطامعه وارشادات مستشاريه السيئة . بيد انه لم يكن سفاكاً ولا سفاحاً . وقد لوحظ انه كان يرجع ، في بعض الاحيان ، عن الاجراءات الظالمة التي عمد اليها . واستطيع ان اقول ، بعد دراستي اخلاق عبد الله ، انه لو كان في بطانته صديق واحد لجعل الناس يبكون ايام حكمه .

كلفه حكمه ستة عشر الف كيس ، اي ما يقارب الخمسة ملايين فرنك . وهذه القيمة الفادحة يجب ان تضاف اليها الهدايا النفيسة المهداة الى محمد علي بناء على توسطه .

ان اضطرار عبد الله باشا الى تأييد مركزه بالمال كان وسيلة

لاختراع اساليب جمعه . وهكذا وفر السلب والاغتصاب والظلم ، بعد ان نهبت المدن ، مبالغ باهظة لتدفع الى صندوق خزينة عكا .
أثرى سكان سوريا على عهد سليمان باشا الابوي ، خلف الجزّار ، الذي دام حكمه من سنة ١٨٠٦ الى سنة ١٨٢٠ . كان هذا الحكم نعمة طويلة العمر تحتاج اليها الشعوب لاصلاح حالة بؤسها المؤلم ، وتضميد جراحها الثخينة .
وبفضل الحياة التي كانوا يقضونها في البرية ، اي في البساتين القائمة في الضواحي حول المدينة ، كان باستطاعة كل من يسكن بيروت ، من المقيمين الموقتين ، الذين تدل امتعتهم الخفيفة النقل عن استقرار غير ثابت وموقت ، ان يبدلوا محل اقامتهم بالفرار والالتجاء الى الجبل .
لم يستطع الباشاوات حتى الآن ان ينتزعوا من لبنان امتيازه القديم ، ألا وهو حماية المظلومين والمنكوبين .
وهذا الامر كان اكثر الامور بساطة لان سلطة متسلم بيروت لم تكن تمتد الى ما وراء غابة الصنوبر ، وعبر نهر بيروت . وهذه المسافة يمكن اجتيازها باقل من نصف ساعة مشياً على الاقدام .
فأكثر السكان الاغنياء كانوا يلجأون الى القرى الواقعة في سفح الجبل عند اقل بادرة تنبىء بالظلم ، او اقل خبر يسبق هذه النكبات المحزنة . كانوا يمكثون هنالك حتى تهدأ العاصفة ، ولا يعودون إلا بعد دفعهم مبلغاً من القيمة المفروضة عليهم ، او بحصولهم على كفالة تضمن لهم راحتهم . وقد كان نزوح السكان يحدث جموداً في الاعمال الى حدّ ان توشك الصناعة ان تشل

وتقف حركتها ، ويأخذ البؤس بالانتشار بين سواد الشعب . لذلك كانت السلطـات تتسابق حينذاك على نيل « صفو خاطر » الباشا ورحمته ، فيمنحهما بناء على التوسلات التي تعيده الى فطرته الخيّرة .

وهكذا أثرت بيروت على الرغم من تعنّت السلطة وبؤس اساكل سوريا الاخرى ، ولا سيما اسكلة عكا .

اما الحروب التي خاضتها الشعوب فيما بينها ، في حلب والشام ، فسببت عدة مهاجرات الى بيروت . وجميع الذين أضطرهم الاضطهاد الى مغادرة منازلهم كانوا يُجذبون بالطمأنينة والمنافع التي يوفرها لهم لبنان . كان بوسعهم ان يجنوا نفعاً دون ان يُضطروا الى الانقطاع عن مدينة بيروت ومزاولة تجارتهم .

وفي تلك الايام ، ونظراً لهذه العوامل نفسها ، أثرت ضواحي هذه المدينة ، وازداد عدد سكانها ، حتى انـه لم يُرَ في جميع البلدان ، الخاضعة لسيطرة امير الجبل ، بلد مأهول هانىء العيش ، اكثر مما هي عليه الضاحية المجاورة لبيروت والممتدة من نهر المعاملتين حتى الشويفات .

اوحى اضطرار التجار الى استرداد اموالهم التي سلبت ظلماً ، او هدرت في تنقلاتهم ، كثيراً من الاساليب البارعة . لقد اصبحوا جريئين بقدر مـا تسمح لهم الضمانات التي يوفرهـا لهم مستقرهم الجديـد . لم يكن يعوقهم عن التبسط في اعمالهم التجارية ، الى مدى بعيد ، إلا عدم الحماية . غير ان الاوروبيين الذين استقروا في بيروت اخذوا على عاتقهم حماية املاك هؤلاء مـن القراصنة اليونان الذين كانوا يغزون البحار آنذاك ، ثم قبلوا فيما بعد ان

يودعوا في مخازنهم البضائع التي يجد تجار البلاد بعض المنفعة في تسليمهم اياها :

اولاً – لانهم يجنون بعض الربح من الفروقات العائدة اليهم من رسوم الجمارك ، فالاجانب يُفضلون من هذا القبيل على ابناء البلاد .

ثانياً – كيلا تعرض اموالهم للخطر اذا ما أفتضح امرهم ، وفُهم ان هذه البضائع هي لهم .

والمنفعة الاخيرة التي كانوا يجنونها هي سحب ما يشاؤون من هذه البضائع بصورة تدريجية لانهم مضطرون حسب الظروف الى سكنى المدينة او الجبل .

وقرائي الذين لا يعرفون تركيا إلا معرفة مشوهة ناقصة يدهشهم هذان العاملان : الاول وهو ان السلطات كانت تصطنع اساليب تسبب نزوح الاهلين ، وتشل كل صناعة وبالتالي خراب البلاد . والثاني ان الاوروبيين كانوا ينعمون ، فيما يتعلق برسوم الجمارك ، بامتيازات خاصة على حساب الرعايا العثمانيين .

ومهما قيل ، فأساليب الحكم في تركيا تناقض تماماً الاساليب المتبعة عندنا . السلطة في اوروبا تحمي ابناء البلاد ، وتسهر على رفاهيتهم ، وتدرس الاسباب التي تؤدي الى زيادة عددهم ، واخيراً فانها تفضل المواطنين على الاجانب . امـا في سوريا فالعكس بالعكس . ان الاجراءات التي أتخذت لم يكن ينتظر ان تحدث غير هذه النتائج . ان المظالم قد ألغيت ، اذ لم يعد باستطاعة الباشوات ان يفرضوا عـلى المدن ضرائب باهظة ، او يكلفوا الاشخاص فوق طاقتهم . ومع ذلك فقد كان الافراد ، في مناسبات

شتى ، يُضطرون الى ان يدفعوا مبالغ كبيرة توصلاً لممارسة حقوقهم ، او دفعاً لما يُخشى ان يُحكم به عليهم اذا ما رأوا انفسهم متهمين .

اما الآن فان رسوم الجمارك اصبحت تستوفى على قدم المساواة . فالمواطنون يعاملون كالفرنسيين .

ان بلص الباشاوات العادي احدث ضجة كبرى ، وان كانت المبالغ المفروضة غير ضخمة إلا على الطبقات والاشخاص الذين هم في بحبوحة . ولما جاء المصريون فرضوا ضريبة جديدة تفوق الاولى اربعة اضعاف ، ولكنها أعتبرت من المنافع العامة ، وأكره جميع السكان على دفعها . كانت تجبى هذه الضرائب من الجميع ، فلا يستثنى منها احد حتى ذوو الفاقة والعجزة . اما المسيحيون ، بوجه خاص ، فلم يكن لهم ثمة عذر يعفيهم من دفعها .

# الفصل الثالث

## وصف بيروت.

لا توحي مدينة بيروت ، لاول وهلة ، شيئاً يثير الفضول . يُلاحظ انها حديثة العهد بتعاطي التجارة دون ان يدلنا شيء ما على انها استطاعت جمع ثروات ضخمة .

ان مظهر المنازل الخارجي هو من اكثر المناظر بشاعة . والفكرة الاولى التي تتبادر الى الذهن ، اذا ما نظرنا بعين الاعتبار الى الذين يقيمون فيها لانها تنبىء عن حالتهم ، هي انه لا يمكن ان يكون في هذه المدينة سوى صناعيين غير ميسورين .

ان واجهات البيوت مبنية ، على الغالب ، بحجر غير منحوت ، وقد اخذت الايام على عاتقها مهمة تلوينها ، يعاونها في ذلك الدخان والمطر والغبار . ولما كانت الاخشاب تُستعمل ايضاً كما اوجدتها الطبيعة ، اي بلا صقل ، فالابواب والنوافذ تكون في اغلب الاحيان من لون الجدران .

اما ما يتعلق بتنسيق البيوت وترتيبها فيجب ان لا نحسن الظن به . فعلى من يريد ان يلجها ان يحني رأسه قليلاً او كثيراً تبعاً لقامته . واذا اراد ان يطل من النافذة فعليه ان يزج جسمه بانحراف اذا كانت بدانته تفوق المعدل قليلاً . فعلو الشبابيك هو على الاكثر متر واحد ، وعرضها خمسة وسبعون سنتمتراً ، يفصل

بينها حاجز صغير . وهذا التدبير الذي يلجأون اليه ضروري لحماية الصغار ، اذ ان هذه الشبابيك تقوم على ارتفاع عشرة سنتمترات او خمسة عشر سنتمتراً من ارض البيت .

كل ذلك يرجع الى العادة المتبعة في الجلوس على الارض ، حتى ان الدواوين التي تصنع من فرش رقيقة جداً توضع على حصر . اما الذين اصيبوا قليلاً بعدوى البذخ فانهم يضعونها على مقاعد لا يتجاوز علوها السنتمترات الثمانية او العشرة .

ومنذ مدة ليست بالبعيدة كان الزجاج يكاد يكون غير معروف في مدينة بيروت . اما الآن فاننا صرنا نجده في منازل الاغنياء ...

ان الحواجز والمصاريع التي نجدها في الشرق لم نشاهدها إلا عند الاوروبيين . لقد أضطروا ، ليستطيعوا ان يعيشوا في هذه المنازل ، الى ترتيبها وتوسيع ابوابها ونوافذها بقدر ما يسمح لهم المكان والعرف المتبع .

ومع ذلك فقد لاحظتُ مثل هذه النوافذ عند الاتراك . ثم اني وجدت ، طبقاً للقاعدة التي تكلمتُ عنها في سياق مشاهداتي ، ان كل شيء هنا يناقض كل التناقض الاشياء التي تُصنع في اوروبا . وجدتُ ان صفائحها كانت مقلوبة رأساً على عقب ، فأعلاها في الخارج واسفلها في الداخل بنوع انها تفسح في المجال لدخول حرارة الشمس والهواء ، وتمنع الناظر من ان يرى شيئاً في الشارع او ان يُرى . ان ذلك هو بالحقيقة شبه حاجز وليس « أباجور » .

لا يجهل معظم قرائي ان حسن تنسيق المنازل ومحلات اللهو

مجهول تماماً في تركيا نظراً للادارة الحكيمة التي اهتمت بتشييدها ...

انه يستحيل على اي كان ان يتصور الفوضى التي تسود الشوارع والمساكن في بيروت . وفي هذا يقول السيد بوجولا : « انني لم ارَ غرابة وشذوذاً اكثر مما رأيت في مدينة بيروت العربية . ان منازلها ، المبنية بالحجارة ، عالية اكثر منها في اي مدينة من مدن سوريا . فقبابها وسراديبها السرية وممراتها المظلمة ، وشوارعها الضيقة الملتوية تبعث ، لاول وهلة ، نوعاً من الهلع في نفس السائح الذي يريد ان يطوف في انحائها . ان كل بيت يؤلّف مخبأ لا يقتحم ، والحي الاسلامي بنوع خاص يبدو كأنه مأهول بطبقة من المساجين . اني لم اجد صعوبة تضاهي الصعوبة التي اشعر بها حين دخولي بيتاً من بيوت بيروت . ان الظلم الذي لا يضل طريقه ليُزعج احياناً عند القيام بزياراته الرعائية لهذه البيوت ... ويمكن القول ان كل واحد منها يصلح ان يكون مركز دفاع [1] . »

ان مدينة بيروت هي مضنية حقاً ، بالنظر الى بيوتها التي تفصل بينها ممرات معوجة ، وتربطها قناطر قامت عليها غرف تضعف من نورها الذي لم يكن قوياً بسبب تلاز شوارعها الضيقة .

فاضطرار المرء الى ان يسمّر نظراته برجليه ، وهذه احدى محاسن المتاعس ، يحول دون رؤية بنايات بيروت الكريهة . ولما كان المسافرون يشعرون ببعض الغبطة عندما ينجون من خطر

١ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٤١٢ .

ما ، فانهم يهنىء بعضهم بعضاً في نهاية كل مرحلة في هذه المزلق الحرجة .

ان استهتار الاتراك بكل ما يمت الى السلامة العامة بصلة هو شيء لا يغتفر لهم ، ولا سيما اذا ما نظرنا الى الوسائل المتوفرة لديهم للاهتمام بها دون ان يكلفهم ذلك اقل نفقة : لقد كان بوسعهم ان يسخروا اناساً لسدّ ثغرة في حائط . إلا انهم لا يفعلون ذلك إلا بعد وقوع عدة حوادث مفجعة وازهاق عدة انفس .

والذين لا يعرفون بيروت قبل حكم محمود بك يظنون اني اتعمد هذه المبالغات . ودفعاً لهذا الظن اقول : ما علينا إلا ان نبتعد قليلاً عن الشارعين اللذين يتفرعان عن البحر ، حتى نلاحظ انه يجب على المارة ان يدرسوا طبيعة البلاط درساً مدققاً ليسلموا من الانزلاقات العديدة التي قد تنتج عنها وتكسر عظامهم .

وصف سائحون كثيرون الحوانيت التركية . اما انا فحسبي القول انها تشبه تماماً شوارع البلاد وبيوتها ومنازلها وحوانيتها .

اننا نعلم ان اصحاب الدكاكين يقعدون القرفصاء ، فالدكاكين لا تعلو عن الارض إلا بمقدار متر واحد . امـا داخلها فمجهز برفوف تبسط عليها البضائع . واوسع حركة يستطيع ان يأتيها صاحب الدكان هي ان يميل يميناً او شمالاً ، او يقف على رجليه عندما يريد الوصول الى الرفوف العليا . امـا المشترون فيقفون امام الواجهة التي توازي الدكان عرضاً وارتفاعاً .

والصديق او زبون المحل الذي يأتي بقصد التلهي لا الشراء ، يقبع في الزاوية الاخرى قبالة صاحب الدكان . وبما ان القهوة

موجودة في جميع الاسواق فتصب القهوة المرّة [٢] للضيف بناء على اشارة صاحب الدكانة ويقدم له الغليون ، لانه ، كما يقول الهواة ، ما من لذة تضاهي لذة تناول جرعات من القهوة والتدخين عليها ، فتمازج وتطيب آناً بعد آن . انها افخم مأدبة يمكن ان يدعى اليها شرقي .

فالقهوة في الشرق تصب للضيوف كما نعلم في جميع المناسبات . تصب عند الباشاوات وعند الفقير المعدم . وقد أضطر الاوروبيون الذين يسكنون تركيا الى اتباع هذه العادة ، حتى انه اذا لم تقدم القهوة لابن البلد فلا يعزو هـذا الاخير المنسي ذلك الاهمال الى عدم التهذيب ، بل يعتبر ان كرامته قد جرحت . وهذه العادة تفشت كثيراً حتى تسرّبت الى جاليتنـا ، فأصبح النزق الفرنسي يدفع الكثيرين منا الى التذمر من عدم تقديم القهوة لهم في بيوت اوروبية ، عازين ذلك الى قلة الاعتبار والاحترام .

ان عظمة الدارات وجمال الينابيع لم تعرفها بيروت ايضـاً . واذا كان هنالك فسحة دبرتها يد القدر في هذه المدينة فانها تصبح محلاً تكدس فيه البضائع .

اما المقاهي ، وما اكثرها هنا ، فهي عبارة عن غرفة مظلمة رديئة البلاط تنتصب حولها مقاعد من الحجارة ، مفروشة بحصير ، تنتشر فيهـــا عدة كراسي علو الواحدة منها خمسة وعشرون سنتمتراً ، يجلس عليها المتفرجون في داخل القهوة وعلى الطريق

٢ ان البن المدني قليل جداً في سوريا ، ويمكنني التأكيد ان البن الذي يستخدمونه في بيروت هو من البرازيل ، ولكنه غير نظيف لان تقتير الاهلين يحملهم على ان يفضلوه معيوباً ليشتروه بثمن اقل .

العام . اما في المدخل فيقوم موقد عليه ابريقان او ثلاثة اباريق للقهوة ، واثنا عشر فنجاناً مغلفة بظروف [٣] من النحاس الاصفر . والى جانب الموقد تصفف النارجيلات وهي عجمية الاصل يدخن بها التنباك ، وهو نوع من التبغ ذو طعم حاد جداً ، وهذا ما يحدو الى تدخينه من خلال الماء اذ لا يمكن احتماله بغير هـذه الطريقة .

اما في المساء فتكون المقاهي مطروقة جداً ، وقلما تمتد السهرة الى ما بعد العشاء ، اذ تقام الصلاة بعد انقضاء ساعة ونصف من غياب الشمس . انها الفترة القصيرة التي يقوم بها القصاصون العرب ، ولاعبو الكركوز ، بتحريك مواهبهم والهاب قرائحهم .

ان الشرقيين بعيدون جداً عن التجديد ، حتى ان المواضيع التي قلدوا بها المشاهد الصينية لم تتغير ، فهي هي منذ اربعين سنة لا تزال كما عرفتها فيها . لقد حضرت هذا المشهد نفسه في افريقيا واليونان وسوريا . ان لاعبي الكركوز يقدمون بعض الاحيان على الهزء بالشخصيات المحترمة ، والحوادث الحديثة العهد . وقد بدا لي ان عواقب هذا العمل تحمل على السخط والتقزز . انه يؤول الى افساد اخلاق الممثلين والمتفرجين الذين يضمون بينهم العدد الكبير من الصغار فتفسد اخلاقهم . ومن حسن الحظ ان هـذا المشهد القذر قد ألغيَ في الجزائر ، حيث كان يقام بتمثيل ملذات من يتعودون ان يرتادوا المقاهي المغربية .

٣ الظرف هو صحن يحمل عليه الفنجان فيقي من الاحتراق . يكون في البيوت من الفضة ، اما عند الباشوات فمن الذهب ، وهم يحلونه عادة بحجارة كريمة .

اني لا ارمي الى اظهار اخطاء من كتبوا قبلي اخبار مشاهداتهم ، كما صرحت سابقاً ، ومع ذلك فلا بد لي من ان اشير الى الخطأ الكبير الذي وقع فيه « فولني » Volney عندما تحدث عن الراقصات اللواتي زعم انهن يظهرن [4] ، بعض الاحيان ، في المقاهي ، ليهجن غلمة الجماهير الهادئة . واستطيع ان اقول ، وليس هذا نتيجة اختباري الطويل ، ولكنه يستند الى رأي كثير من الاوروبيين الذين طافوا في سوريا او اقاموا فيها ، ان امرأة واحدة ، ولو كانت اشد النساء فجوراً واباحية ، لا تجرؤ على الظهور في هذا المحل العمومي .

ان القهوة وتدخين النارجيلة وحضور ذينك المشهدين لا تكلف اكثر من عشرين بارة ( عشرة سنتيمات ) .

وفي بيروت عدة خانات ينزل فيها الدلالون والسياح والمواطنون . انهم يحلّون في غرف صغيرة ، وهذا كل ما يرغبون فيه ، اذ ان من المصيبة ان يجدوا غرفاً مؤثثة !

ولما كان كل شخص يصطحب معه الامتعة التي يحتاج اليها في سفره ، فانه يتمركز حالاً دون ان يلجأ الى بائع المفروشات والسجّادات .

يبسط المسافر سجادته على الارض ، ثم يرتب امتعته ، ويبدل ثيابه بسرعة وجرأة ، لانه تعود ذلك ، ثم ينزع من اجربته الحوائج التي تزود بها ، فاذا به قد استقر على احسن ما يرام .

ان السجّادة والعباءة والاجربة هي اشد ما يحتاج اليه المسافر .

٤ الجزء الثاني ، ص ٣١٩ .

فالاولى تقوم مقام السرير ، والثانية يجعلها لحافا ، والثالثة تحشى بثياب التبديل ، فتقوم مقام المخدة . امـــا الخُرْج فينوب عن الصندوق او الحقيبة ، فتُجعل فيه ادوات المطبخ والمؤن البسيطة . وهذه الامتعة ، التي يصطحبها المسافر ، توفر الكثير من النفقة ، فلا يدفع المسافر إلا بدل الزرابة .

ان المسجد الكبير لا يتميز إلا بطراز بنيانه المسيحي . يعود بدء عهده الى زمن الصليبيين اذ كان كنيسة على عهد القديس يوحنا ، كما تكلمتُ عن ذلك في فصل سابق . واقول الآن ان هندسته تشبه هندسة تلك الابنيـة التي هي من نوعه ، ولا تزال بعض بقاياها قائمة على الشاطىء الواقع بين يافا والكرمل .

ويزعم ابناء البلاد ان كنزاً كبيراً مدفون هنـاك . ومصدر هذا الزعم ضعف عقلية الشرقيين بوجه عام . فجميع الابنيـــة القديمة تخفي ، حسب زعمهم ، كنوزاً تقدر بمبالغ ضخمة .

اما المساجد الاخرى فلم توح اليهم زعماً خاصاً لانها ، كما يظهر ، قليلة الدوطة ... ولا يمكننا ان نقارن بينها وبين مساجد المدن التركية الاخرى التي تملك بعض المدخول المخصص للنفقـــات الدينية .

تدخل الكتب ايضاً في عداد الهبات التي تقدم للمساجد بغية تثقيف الشعب الاسلامي القليل المطالعـة بطبيعته . وهـذه الكتب تكون عادة مصاحف وشروحاً وكتب عبادة اخرى .

وفي هذه المساجد يفتش الدراويش عـــن اسباب الارتزاق ، وعن ملجأ يأوون اليه عندما يهبطون المدينة . وقد تكون ايضاً ملجأ للذين لا يرتحلون ، او للمعتوهين . انها تستخدم كبيمارستان

الذين فقدوا عقلهم او خُلقوا مجاذيب .

يطوف هؤلاء الدراويش في الشوارع بالبسة غريبة ، وعلى رؤوسهم طرابيش طويلة . وقد يتسلح بعضهم بحراب . ويحملون في ايديهم صحيفة ضخمة تشبه شكلاً نصف جوزة او لوزة . اما الذين يفتقرون الى قليل من الذوق فانهم يستغنون عن ارتداء الثياب ، ويكتفون بصلب ايديهم على صدورهم او تركها مدلاة كرقاص الساعة .

ان رحالةً لبيّباً شاء ان يعتنق الدين الاسلامي عندما رأى الاحترام الذي يحاط به المعتوهون في تركيا فيخفف من بؤسهم وتعاستهم . فهم يحترمونهم ويجلونهم لانهم ، في نظرهم ، اشخاص مُنحوا امتيازاً دون غيرهم . فالله لم ينتزع عقلهم إلا لانه كان راضياً عنهم . غير انه يمكنني ان اضيف ان هذا الشعور لا يرد الموت عن هؤلاء الاولياء المساكين الذين يقضون في كثير من الاحيان لعدم الاهتمام بهم . انه جسد ينطفىء ، هكذا يقولون . اما القسم الجوهري – يعني الروح – فقد اصبح منذ زمن طويل عند اقدام خالقه .

تخيّل احد هؤلاء الدراويش ، وقد اصيب بمرض جنون السلطة ، وسيلة فيها بعض شفاء لجنونه هذا ، وهي سهلة التنفيذ . اشترى من الاباريق الصغيرة مقداراً سمحت به ميزانيته . ولكي يملك منها اكثر عدد ممكن انتقاها مثلومة ومشقّقة ومصدّعة . وبعد ان ملأها ماء ، صفّها على منضدة صغيرة لعوامّ المسلمين ، ليتناول كل منهم واحداً منها يستعمله عند الوضوء . ثم قعد قربها يلقي على المصلين اوامره . فكان يقول لمن يمد يده الى الابريق الاصفر :

خذ الاحمر . والى الآخر : دع هذا وخذ ذاك . والى الثالث : دونك المستدير او المشعث ، او الذي ليس له رقبة الخ ... وكان الحاضرون يتأملون ويتساءلون عما حدا هذا الرجل على القعود منهم هذا المقعد ، دون ان يفهموا لاول وهلة ما هو الباعث على ذلك ، واخيراً عرفوا انه كان موظفاً وعزل ...

ان منائر بيروت تشبه كل الشبه منارات البلدان الاخرى ، وهي قائمة كالشمعدان . اما السراي ، او مركز الحاكم ، فليست سوى خربة مقوضة . ومع ذلك فمن يتأملها يمكنه ان يحكم على ما كان عليه سابقاً قصر فخر الدين . لقد اقتبس هذا الامير الكثير عن الاوروبيين في بناء قصر مدسيس ، فأضفى على قصره تجميلات كثيرة دلت بحق على انه احسن الاقتباس .

اما المحكمة فهي في الواقع بيت سكن القاضي ، وهو قصر العدل في تلك البلاد ، وهنالك تعرض المظالم على اختلاف انواعها .

والبوليس يتلقى الامر من « المتسلم » المكلف توزيع العدالة . واذا جاز لي ان اتلاعب في الكلام قلت : انها الوظيفة الوحيدة التي يحسنون القيام بها على حقها ، لاننا نجد انفسنا دائماً معرضين لضربات العصي المتعددة ...

وفي السراي سجنان يطلق على احدهما اسم « الزندان » وهو عبارة عن محل رطب تعشش فيه البراغيث . ان خشية تطبيق هذه العقوبات القاسية ، بل الظالمة في اكثر الاحيان ، تقلل كثيراً من الجرائم وتحمل على التحفظ الشديد .

ويظهر ان البوليس لم يغير اساليب المحافظة على الامن ، فهو

لا يزال يحافظ على عقيدته القديمة واسلوبه البالي . وها كم على الاقل دليلا يثبت ان الطريقة المتبعة في القرن السابع عشر لا تزال تطبق اليوم :

انهم يُركبون المحكوم عليه حماراً ويديرون وجهه صوب ذنب هذا الحيوان . وبعد ان يسوّدوا وجهه ويضعوا على رأسه جلد خروف مليء باوساخه ، يقودونه الى المدينة على هذه الصورة ، طائفين به في شوارعها بين الهتافات الصارخة والبلبلة العظيمة * .

وكما هي الحالة في جميع انحاء الشرق ، ترى اسواق مدينة بيروت تزخر بالكلاب . ان المشاجرات التي تقع في الاحياء لا يحس بعقباها إلا المارة المحايدون الذين يخرجون من مأزق هذا النزاع المحلّي ملطخين او ممزقي الثياب . وما اسعد المتقاتلين المدفوعين بحماستهم الشديدة اذا لم يسمحوا لانفسهم ان يعض بعضهم بعضاً !

كان امراء الجبل يترددون ، بوجه خاص ، الى مدن الشاطىء ، في اثناء الاحتلال المصري ، لان ابراهيم باشا كان قد وكل اليهم مهمة القيام بحمايتها . وعليه فانه لم يكن يرى سوى مسيحيين مسلحين . وهذا ما كان يؤلم اهالي المدينة اعداء ابناء لبنان ، فقد كانوا يتمنون لو يوليهم الباشا عناية السهر على مدينتهم .

وفي ذات يوم كان احد هؤلاء الامراء ماراً بالاسواق ممتطياً جواده ، فاذا به يصادف على الجانبين ، وفي كل لحظة ، كلاباً

* مسرح تركيا ، ص ٢٧٢ .

ممددة على البلاط . ولما اعيته الحيلة في اجتنابها قال ، في ساعة فقد فيها صبره : ما اكثر الكلاب في هذه المدينة ! فأجابه حانوتي جرحته هذه الملاحظة ، اذ ظن انه يعنيه : لقد نطقتم بالحق ، يا صاحب السعادة ، ولكن تأملوا قليلاً تعلموا ان اكثرها غريب ...

ان المدارس العامة قليلة جداً . ولا يعلّم فيها إلا القراءة والكتابة بدون اتباع قاعدة . والاولاد الذين يراد ان يتلقوا دروسهم يتعلمون قراءة القرآن . ولما كان هذا التعليم يتعب الاطفال الذين قلما يقدرون جمال الاسلوب ، فانهم يعدونهم باجمل الاماني التي تحقق ، بدون مطل او خلف ، يوم يصرّح المعلم بان تلميذه ختم الكتاب الكريم . عند ذاك يعطي الاب بخشيشاً للشيخ ويدعوه الى حفلة الغد .

ان جميع الاقارب والاصدقاء يدعون اليها ايضاً ، كما ان جماهير من الفضوليين لا تتأخر عن الانضمام اليهم . والصبي الذي يلبس بفخامة ثياباً كلها جديدة ويحلّى بمجوهرات امه ، يركب حصاناً مجللاً بالكوبان ، ويتبعه رفقاؤه وعلى رأسهم الشيخ يتمتم مقاطعه الاثيرة اليه . اما المصحف الشريف فيوضع على طبق ، وحواليه الجميع يصعدون ترانيم الشكر ، حتى ان النساء يساهمن في هذا الاحتفال مع الرجال بزغردتهن المشهورة : لو ، لو ، لو[6] . انهن لا يفتحن افواههن المخبأة وراء الحجاب السميك إلا ليفلتن تلك الصرخات الحادة التي يمططنها ما استطعن ، ويتمتعن برحابة

٦ قيل ان هذا النوع من الصراخ يعود الى اصل قديم . انه هلِلويا الرومان .

هذا الامتياز الضئيل .

ان الشيوخ او سدنة المساجد هم ايضاً مدعوون الى هـذا الاحتفال، فيقومون في اثناء هذا الطواف الاحتفالي بتمثيل رواياتهم الدينية ، بعد ان ينضم اليهم المتعصبون الذين يوهمون الناس انهم وقعوا في غيبوبة . ولكي يفيقوهم فانهم يهزّونهم بعنف على نغم الطنبور الذي اصطحبه تلاميذ الشيخ وهم يغنون ، وذلك مـا يؤلف مع الموسيقى الاخرى وصراخ النساء وضجيج الجمهور أخوف ضجة يمكن ان يتصورها العقل .

نجد احياناً ، وهذا ليس بالغريب ، شباناً من المسلمين يدرسون النحو على علماء مسيحيين ، نظراً لتفوق الاصول الحديثة التي اتبعها هؤلاء بعد ان وضع اصولها مطران ماروني في حلب . ان فائدة هذه الطريقة ظاهرة لانها تعلم بسنتين ما لا تستطيع ان تعلمه الكتب الاخرى في عشر سنوات .

ان الينابيع التي لم تكن تنضب قط جفّت الآن . اما قديماً فكان يدفعهم حب الاحسان الى تخصيص مبالغ للحصول عـلى الثلوج في اثناء الصيف، فيتمكن عابرو السبيل من ان يشربوا ماء نقياً ويتبردوا بسهولة [٧] .

وفي بيروت حمّامان ، يقع الكبير منهما قرب السراي وهو قديم العهد ، ظهر ان الاسماعيليين ضربوا صفحاً عنـه كما ضربوا صفحاً عن المسجد الكبير . ان الحمامات لم تخصص فقط لتطهير المسلمين ، بل لهـا ايضاً اهمية كبرى في حقل الطب العربي ...

٧ بايسوتيل ، رسالة ... الخ ، ص ٤٣ .

فهناك يتعرض المرء الى التقاط الامراض الجلدية ، وغالباً ما تكون هذه الامراض معدية ، واولها واسرعها عدوى الجرب ، الكثير الانتشار في البلاد .

اما مَنْ يريد الاستحمام فلا يتكلف إلا انتزاع ثيابه فوق احد المقاعد الخشبية الكبيرة القائمة حول الغرفــة الاولى . ثم يستعيض من ثيابه بمنشفة يشد بها وسطه . الغرف مشتركة بــين الجميع . إلا انه يمكن الاختلاء في احدى المقاصير القائمة في الزوايا الاربع . وما من شك في ان المستحم يكون مرتاح البال وفي حرز حريز متى علّق منشفة على الباب كأنها ستار له .

حاول ساذج ذات يوم ان يختبر صحة الزعم بانه لا بد من ان يجن مَنْ يستحم بعد ان يأكل سمكاً ولبناً . ولما وجد ان عقله لا يزال في رأسه ، رغم قيامه بانفـاذ هذه الشروط الثلاثة ، دفعته لذة هذا الاكتشاف التي استولت عليه الى وسط الشارع ، ليعلن ذلك بسرعة . فخرج عارياً وهو يصيــح : انظروني ، لقد استحممت بعد ان اكلت سمكاً ولبناً ، ومع هذا فاني لم اجن . إلا ان عريه الكامل كان ينقض زعمه بانه لا يزال يملك عقله ...

ان لمسيحيي بيروت ثلاث كنائس . واكثر هذه الكنائس رحابة وجلالاً هي كنيسة الروم . لقد شيدت وكنيسة الموارنة في وقت واحد ، عــلى عهد امراء الجبل الذين كانوا ، رغم تظاهرهم بالاسلامية والدرزية ، اكثر تسامحاً من سواهم . ان كنيسة الروم في بيروت هي اجمل كنيسة مسيحية في انحاء المملكة العثمانية .

انتقلت عدوى الاوروبيين ، في الاكثار من تشييد الكنائس ، الى الكبوشيين ، حتى اننا لا نجد نسبة بين عدد هؤلاء ووفرة

كنائسهم . وهذه الخطة ابتدعها كبوشيو بريطانيا لتكون الصلوات والقداسات سهلة المتناول للمسيحيين الذين كانوا يقطنون ، وحدهم ، انذاك ، بيروت وضواحيها في مستهل القرن السابع عشر . كان اباء الارض المقدسة يملكون فيها قديماً مأوى للفقراء ، وكنيسة على اسم المخلّص ، وقد حازت هذه الكنيسة شهرة واسعة حتى ان القديس اثاناثيوس جعلها موضوع احدى مواعظه التبشيرية [٨] .

وعام ١٤٥٥ حدثت على يد المتعبدين الذين يخدمون الكنيسة اعجوبة تمت بها شهرة قداسة هذا المأوى .

ان مؤلف كتاب « سوريا المقدسة » يجعل من مدينة بيروت قدساً صغيرة بسبب الصليب العجيب الذي كانت تملكه . انه صنيع يدي نيكوميد ، وقد اتصل بالارث ، كما يقول المؤلف ، الى جاماليل ، ثم أرسل الى بيروت قبل سقوط القدس بسنتين بين يدي تيت وفاسباسيان . ويقولون انه لا يزال موجوداً اليوم في مكان ما تحت الارض في كنيسة المخلّص التي اصبحت اليوم مسجداً [٩] .

ويضيف المؤلف قائلاً : ان القديس اثاناثيوس اتخذ من هذا الصليب موضوع موعظة جميلة القاها في مجمع نيقية [١٠] .

أوهل يعقل ان يكون المؤلفون قد خلطوا بين هاتين الاعجوبتين !

ان بيروت تتقدم باضطراد وتوشك ان تعد بعد الاسكندرية وازمير . لقد انشئت فيها قنصليات لجميع الدول تقريباً ، ومؤسسات

٨ تاريخ الارض المقدسة ، الجزء الثاني ، ص ٩٠٩ .
٩ سوريا المقدسة ، ص ١٣٣ .
١٠ سوريا المقدسة ، ص ١٣٤ .

تجارية ، وفنادق ، ومحلات مجهزة على اكمل وجه ، واخيراً ملاه فخمة لا مثيل لها الا في الاساكل الخطيرة .

حاولت ان اقوم بمشروع تأسيس خان افرنسي يضم بين جنباته دار القنصلية ، ومحلات التجارة ، والمكاتب ، ومخازن تجّارنا حتى معبد بلادنا ايضاً . وحكومة الملك التي كانت تشجع دائماً مؤسساتنا في تركيا ارصدت لي ، بعد تأييدها هذا المشروع ، مبلغاً كافياً للشروع فيه . الا ان السلطة المصرية التي كانت تستخدم جانباً من هذا الخان لاستيداع الملح ، وكان يمكنها ان تودعه محلاً آخر ، قد أصرت على رفضها منحنا هذا المركز رغم المفاوضات المتعددة التي قمتُ بها حتى لدى نائب الملك .

ولقد اتخذت من هذا الرفض مقياساً لاقدر العواطف التي يكنّها لنا المصريون ، واني لم اخطىء قط في الاحكام المختلفة التي اصدرتها على اصدقائنا المزعومين على ضفاف النيل .

# الفصل الرابع

## ضواحي بيروت.

المدافن هي اول ما يقع عليه النظر عند الخروج من باب السراي . ففي جميع المدن التركية لا يفصل بين مقر الاحياء ومقر الاموات سوى حائط السور الكثيف وعرض الطرقات .

ان سبب هذا القرب الذي لا يجهل العرب مساوئه ، لانهم ملمون بعلم الفيزياء والصحة ، عائد ، بلا ريب ، الى الاعتقاد الذي يوجب الاسراع بدفن المؤمن ، لان ملاك الموت ينتظره في اللحد لاستماع استجوابه الاول .

وهنا يجب ان نذكّر بالمثل السائر الذي وضعه موليير شعراً :

« من يدفن الميت باكراً فكأنه قتله ، فربّ مَنْ ظُن ميتاً لا يكون موته الا ظاهراً . »

عرفت في اماكن شتى من سوريا اشخاصاً يطلق عليهم اسم ابن الميت او الميتة ، لان اباهم او امهم قد انتشلا حيين من المقبرة .

تُزار القبور عندهم كثيراً ، والنساء اكثر زيارة لها من الرجال ، كما ان في جعلها حول المدن ، وعلى مرأى من الجمهور ، تسهيلاً لمهمة الزائرين ، ومحافظة على الحشمة التي قد تُهتك في الاماكن المنزوية .

لم يكن منظر المدافن يضعف شجاعة الاحياء عند الرومان .

كانوا يهدفون من تشييدها على الطريق العام الى خلق المنافسة والطموح، اذ تدعو رؤيتها الشباب الى التشبه بالرجال العظام الذين خلدت ذكراهم هذه المقابر، فيقتفون آثارهم [1].

ويقوم بين مدافن بيروت قبر لاحدى الحاكمات في عهد السلطان محمود، ماتت منذ حوالى ثلاثين سنة، على اثر سقوطها من تحت روام [2] لدى رجوعها من الحج الى مكة.

والى اول جمعية صحية، تألفت في بيروت، يعود الفضل في منع دفن المسيحيين في دهاليز كنائس المدينة.

في الساحة الواقعة عن يمين باب السراي كان يقوم، فيما مضى، بستان فخر الدين. واظن ان كاتباً قديماً سبقني الى وصفه. ان كل منتوجات اوروبا وآسيا كانت تتكردس في هذا المكان.

ومن جملة الزخارف التي ابتدعها الذوق، كان يُرى في ذلك المكان عدد كبير من التماثيل. انه لشيء غريب حقاً! فهذا الامير كان درزياً او مسلماً، وكلتا الديانتين تقضي تعاليمهما الدينية بالابتعاد عن هذا الجمال المثالي.

وبعد، فمن يدري، فقد تكون تلك التماثيل غير كاملة، اي نصفية، وقد لا يكون هنالك منها الا التماثيل النصفية. وهذا ما يغير عند ذاك وجهة النظر.

واذ كنت رأيت في الجزائر بعض المسلمين الذين لا تردعهم وساوسهم من اقتناء علب تبغ نقشت عليها تصاوير جميلة جداً، بحثتُ عن

١ مدام دي ستايل، كورين.
٢ هودج مقفل ينقله بغلان.

الاسباب التي تحرم عند البعض مـــا يحلله البعض الآخر ، فانبأني احد الافندية ان التماثيل الكاملة التي تمثل الاشخاص كما لو كانت في حالتها الطبيعية هي وحدها الممنوعة . ومن ثمّ فلا حرج عليهم ، عند الضرورة ، اقتناء تصاوير رجال ونساء شرط ان تكون نصفية . وهذه الصور اذا ما اوقفت عند هذا الحد لا تمثل اجساداً يمكنها الحياة . واما التماثيل الكاملة فاقتناؤها جسارة تتنافى والحشمة ، وهي مشجوبة على الغالب .

وهكذا فان فخر الدين الدرزي ، المتظاهر بالاسلام ، قـــد استطاع ان يوفق بين امياله واوهـــام بلاده التي لم يشأ ان يصطدم بها .

ويقال ان هذا الامير افرط في البذخ ، فكانت له جنينة تجمع غرائب الحيوان ، وان الاقبية المعقودة ، الموازية للقصر ، التي لم تمس واجهتها حتى عام ١٨٣٨ ، كانت تستخدم لايوائها . الا انه يرجح ايضاً انها كانت اصطبلا .

اقتضى ، بسبب انحـــدار الارض وميلها ، ان تكون جنائن الامير متعددة الاشكال . كان يحدها من الجهة الجنوبية الشرقيـة برج الكشّاف وسلالمه الجميلة التي شوهدت بقاياها عام ١٨٠٨ ، والتي تدل على ان الامير غالباً ما كان يزور البرج . اما المنظر من اعالي هذا البرج فهو بديع جداً .

ان سهول بيروت مغروسة كلها اشجار توت ابيض . وهذه هي الشجرة الوحيدة التي تنمو في التربة الرملية الجافة . وهذا ما دعا الى الاعتناء بها بصورة خاصة ، اذ ان اغصانها تنمو خلال سنة واحدة .

ولهذه الغاية يقطعون جميع اغصانها في شهر ايار ، حتى اذا ما نبتت اغصانها مجدداً في إبان الصيف انتزعت في الخريف اوراقها وكانت علفاً للمواشي ، ثم تنفتق براعمها في مطلع الربيع ويبلغ نموها في ايار اشده ، فتكون طعاماً لدود القز الذي ترتكز الصناعة الاساسية عند البيروتيين على ما ينتجه من الحرير .

بنيت ، بادىء ذي بدء ، بضعة اكواخ في ضواحي المدينة لتربية دود الحرير . وعندما ابتدأ ساكنوها يمنّون انفسهم بقليل من الاطمئنان دفعتهم ثقتهم بالسلام الى تشييد بنايات اكثر رحابة . وقد اصبحت البيوت التي تشاهد اليوم هناك اجمل بيوت الضاحية . اما تلك الاخصاص فلا يرجع عهدها الى اكثر من ثلاثين سنة .

ثم اخذ المسلمون ينافسون المسيحيين حتى لم يعد يُرى سوى القليلين من السكان الذين لم يشتروا ولو بضعة امتار من الارض لتشييد برج ( كذا ) عليها .

يجب ان نُبتلى بحرارة المدينة لنقدر الطراوة القليلة التي ينشدها البيروتيون في هذه البساتين ، هذه البرودة التي تهب عليها تارة من البحر ، وحيناً من جبال لبنان فتدفعها جدران محمومة ملتهبة . ان هذه الجدران مبنية بحجارة رملية ، وهي بطبيعتها تنقل بوقت واحد الحرارة والرطوبة . وهذا ما يجعل بيوت المدينة غير ملائمة في الفصلين القاسيين . انها أتاتين حقيقية في الصيف .

قلما نجد في بساتين بيروت اشجاراً مثمرة . لم يحل جفاف التربة وحده دون ذلك ، بل هنالك سبب اهم وهو تقسيم الارض فيما بينهم . انهم يضيّقون بهذه القسمة على بيوتهم فلا يكون لكل

شخص طريق تؤدي به الى منزله . ومن لا يملك طريقاً كيف يملك جنينة !

واشجار ضواحي بيروت قليلة الانواع ، نجد منها شجر الازدرخت الذي يوافقه مناخ بيروت كل الموافقة ، وشجر الخروب والسنديان والزعرور والبطم . اما الصبّار فموجود بكثرة ، والشعب بكامله يقتات بثماره طوال ثلاثة اشهر كاملة .

وفي الناحية الغربية بساتين كبيرة من التين لا يقل نوعها جودة عن تين بروفانس وكالابره الممتاز . وجميع هذه الاشجار يؤثر فيها جفاف التربة ، فلا ترتفع الى اكثر من ثلاثة امتار او اربعة .

ان الجمّيزة التي تهزأ بحرارة الشمس تنبت ايضاً في حقول بيروت ، ونجد منها اشجاراً ضخمة الجذع غير متطاولة الفروع ، لان الاغصان التي نراها لا يزيد عمرها على خمس عشرة سنة .

عرفت البستان الذي تزينه شجرة الجميزة الجميلة ، ثم تأثرت جداً عندما رأيتها تهوي بناء على طلب محمد علي الذي شاء عبد الله باشا ان يرضيه آنذاك . انه كان بحاجة الى كمية كثيرة من هذا الخشب ليصنع آلات جديدة يخبط بها الارزّ . فقدم له باشا عكا جميع ما كان في البلاد من هذه الاشجار . فكان يوم قطعها مأتماً في ضواحي بيروت . فالنظر الذي تعود رؤية هذه القباب الجميلة الخضراء لم يرتح إلا بصعوبة الى ذلك الفراغ الذي حدث عندما فقدت .

وهذه الجميزة الواجب غرسها لا قطعها لم تكن ضرورية لتجميل الضاحية فحسب ، بل كانت تتفيأ الجماهير في ظلال اغصانها

الوارقة ، بعد ان يدفعها قيظ المدينة ، فتلتمس عند المساء هواء التربة العليل .

كثيرة هي الاشجار التي استحالت مقاهي وفنادق في الهواء الطلق . ان السائحين ذوي الفاقة ، او اصدقاء الطبيعة الجميلة ، كانوا يتألبون عليها زرافات زرافات ، ويجدون في جلوسهم تحت قبتها الخضراء ملجأ يقيهم حرارة شمس النهار وندى الليل .

كم كان جميلاً لو ظلت هذه الاشجار على ما كانت عليه قديماً ، اي مكرسة للالهة ! وهنالك في الشرق حيث تنتشر الاوهام عند الجميع [3] من يدعو الى احترام هذه الاشجار لانها ضرورية لتنقية الهواء .

ان الجميزة الوحيدة التي صمدت امام فأس عبد الله باشا الهدّام هي الجميزة التي نجدها في باب السماطية الى الغرب ، والفضل في بقائها وسلامتها يرجع الى واقعة دلت على انه بقليل من الحزم يمكن ان يبلغ صوتنا مسامع الظلم .

وجدوا مسلماً ، حين همّوا بالقطع ، يمسك بجميزته وهو يقبلها . وعندما ابلغوه وجوب انسحابه وافساح الطريق للذين يقومون باعمال القطع ، اجاب : « انكم لا تستطيعون ان تقطعوها قبل ان تقطعوا رقبتي . لقد كلفتني جميع ثروتي ! »

ان هنالك بعض المسلمين الاتقياء الذين يهتمون بترك مآثر خلفهم تقدس ذكراهم وتستمطر لهم نعم العزة الالهية . فالشرقيون

[3] في حلب شجرة لم يجرؤ احد ان يمد يده اليها لان الشعب كان متيقناً ان الذين ارادوا اقتطاع اغصانها حلت بهم مصائب مؤسفة . وهذا الوهم كان متأصلاً في النفوس حتى ان الجنود المصريين لم يجسروا ان ينتزعوا الخشب اليابس منها .

اعتادوا ان يسألوا الله الرحمة لفاعل الخير الذي يقدرونـــه حق قدره .

وغارس هذه الجميزة كان من عدد اولئك الاتقياء ، فقد رأى هذا الرجل الصالح ان الشيء النادر ، لدى الخروج من هـــذه المدينة ، هو الظلّ ، فغرس شجرة توفر الكثير منه لعابري السبيل فيترحمون عليه .

غير انه بعد انقضاء قليل من الوقت صحت عزيمته على القيام بفرض الحج الى مكة ، فكلف احد اصدقائه ، بعد ان استحلفه ، الاعتناء بالشجرة .

وعندما عادت القافلة ولم يرجع معهـا صاحب الجميزة ، بردت همة متعهد هذه الشجرة ، وكاد ان يقف مواصلة نفقاته التي ظن انه لا يستردها . إلا ان شخصاً قادماً من الحج حمل اليـه توصيات جديدة من صاحب الجميزة ، واكد له عودته بعد قليل من الزمن . لقد اضطر ان يقوم برحلة الى خليج فارس ، وسيعود قريباً عن طريق بغداد والشام .

ثم طالت الغيبة اكثر من المنتظر ، ولكن الرجل رجع اخيراً ، ودنت ساعـــة الحساب ودفع المصارفات فتخاصما وانتهيـــا الى التقاضي .

كان ما يطلبه الصديق من صاحب الجميزة مبلغاً لا يُستهان به لان تقلبات الطبيعة والجفاف جعلا الماء عزيزاً ، والشجرة كانت تسقى منذ زمن طويل .

واخيراً قضت المحكمة على الحاج الجديد[4] ، فاضطر الى بيـــع

[4] الحاج هو الذي يزور مكة والمدينة .

عقار صغير كان لا يزال يملكه وسدد بثمنه الدين الذي اورثته اياه تلك الشجرة .

اما الضابط الموفد من قبل عبد الله باشا فقد ادهشته هذه الحكاية ، فعفا عن الشجرة التي خالها مرصودة . فسلمت ولم يحاول احد اقتلاعها حتى بعد موت حاميها المدافع عنها .

وتجاه هذه الجميزة يجري ينبوع قام بدفع نفقاته مسلم آخر . ذلك بان صاحبها الاول وهب هذه القطعة للفقراء عند موته ، ناذراً ان تحول الى ارض تسقى . وانفاذاً لوصية هذا المحب للانسانية اشتروا سهماً من مياه المدينة وأجروه ينبوعاً في ذلك المحل المطروق الذي لم يكن فيه سوى آبار ماؤها اجاج .

اما في تركيا فالخاصة وحدهم يقومون اليوم بقليل من عمل الاحسان .

وبين المساكن القائمة في ضواحي بيروت مسكن موظفي جمعية التوراة اللندنية الذين ينشرون كتب التوراة المنقولة الى اللغات الشرقية ، إما هبةً ، او بيعاً . وهؤلاء السادة يؤلفون فرعاً من مؤسسة مالطة التي تمدهم بالكتب والمال . انهم لا يكتفون بالتبشير بكلام الله ليلتف حولهم المشايعون والانصار ، بل يحسنون استغلال ضعف البشر . يعرفون ان التوفيق يحالفهم اكثر اذا ما التجأوا الى دفع المال ، فيبذلونه في سبيل نشر دعوتهم . انهم يشركون نساءهم في التبشير والوعظ ، فيوحي جمالهن الى الموعوظين محبة الارض اكثر من محبة السماء ...

ولو كان اصحاب التوراة يبشرون بدعوتهم بين المسلمين والنصيرية والدروز ، لكنا شكرنا لهم هذه النخوة بارشاد غير

المسيحيين وهديهم . إلا انهم لا يهتمون إلا بالمسيحيين ، حتى اذا ما وفقوا الى انتزاع واحد منهم ، خلقوا البلبلة في العائلة والشقاق والفتن الكبيرة .

اقترح احد مبشري التوراة على مسلم تربطه به علاقات وثيقة ان يعتنق الدين المسيحي . ولما كان هذا الاخير فطناً ، اجابه : « نعم ، اني اوافق على ذلك عندما تثبتون لي اي المذاهب المسيحية : من الارمنية، والروم، والسريانية ، والكلدانية ، والقبطية، والانكليكانية ، واللوثرية ، والكلفينية ، هو الافضل . »

ان « بوسيه » لا يشعر بحرج موقفه في اجابة هذا المسلم على سؤاله هذا ، ولكن مبشري التوراة في سوريا ليسوا من الملافنة العظام .

# الفصل الخامس

ضواحي بيروت ايضاً . غابة الصنوبر .
مار جرجس . الكرنتينا . هضبة مار متر.

في الجهة الغربية فسحة كبيرة من الرمال يتقاذفها البحر من مصر[1] ليلفظها على ضفاف اليابسة التي يسمونها رأس بيروت .

كانت هذه البقعة مكسوة قديماً بالاغراس والابنية وربما بالمدافن ايضاً . وهنالك سببان يحملانني على هذا الاعتقاد : الاول ان الاقدمين كانوا يدفنون ، دائماً ، موتاهم على المرتفعات العالية لجهة البحر ، والثاني وفرة بقايا الخزفيات والزجاج ، وقطع المعادن والمسكوكات التي كانت تظهر على اثر هبوب العاصفة . فالماء والهواء كانا يكنسان هذا المكان ويتركان في العراء هذه البقايا الاثرية .

ان الصخور التي لم تغطها الرمال محفورة ، اينما كانت ، بشكل دياميس ونواويس . وقد نجد كثيراً من النواويس المصنوعة من التراب الفخاري او الرصاص .

طمست عدة اماكن خلال اربعة عشر عاماً قضيتها في بيروت . ويمكننا القول ، منذ الآن ، اذا ما حكمنا بالنظر الى تدافع الرمال السنوي ، انه في اقل من قرنين ستصبح جهة رأس بيروت

[1] قال السيد لامرتين بلغته الشعرية : « انها قطعة من صحراء مصر مرمية على اقدام لبنان . » ( رحلة الى الشرق ، الجزء الثاني ، ص ٣٣٦ ).

المعرضة لهذه الحملات الرملية مطمورة كلها [٢].

ناهيك بان الشاطئ معرض بكليته لمثل هذا الهجوم العدواني. بيد ان النتائج التي يحدثها قليلاً ما تؤثر فيه بسبب نتوء رأس بيروت الذي يكسر شوكة حدته.

واذا نظرنا بعين التأمل الى طبيعة الارض التي تحيط ببيروت، فقد يخامرنا الريب، ولو هنيهة، بان هذه المدينة كانت قائمة، في زمن قديم جداً، على جزيرة، ومنفصلة عن لبنان، لان تربة السهل المحدق بها مؤلفة من الرمل.

اما اذا توجهنا صوب الجنوب فنجد بعض اشجار من الصنوبر تسترعي الانتباه نظراً لعلوها وضخامتها، ونرى على مقربة منها بقعاً من الارض مكسوة بهذه الاشجار التي يدل اختلافها في الغرس والعتق على عصور مختلفة.

ان اشجار الصنوبر الضخمة التي تُلقى بدون رحمة في الاتاتين لعمل الكلس (والبيروتيون يظنون انها خلقت لذلك)، قد اصبحت على وشك الاضمحلال. وهنا مقام القول الفصل بقضية اثارها سائحان حول اصل هذه الاشجار وعمرها.

قال السيد بوجولا [٣]: طفت في اثناء ثلاثة ارباع الساعة غابة

٢ ان هذا الحادث اصبح مألوفاً كثيراً في مصر. ويذكر بيان تضمنه العاشور الكثير من هذه الحالات: ان رمالا جديدة تتصاعد كل يوم من جوف البحر، فترميه الامواج على الشاطئ، حيث تلتقطها الرياح وتنقلها الى داخل الاراضي. اننا نجد شاهداً بيّناً لدى خروجنا من خان يونس في طريقنا الى غزه، فرمال البحر المدفوعة بعيداً نحو الشرق تتناقل وتحول الى صحراء واسعة من الارض كانت تستعمل فيما مضى. ص ١٧٥.

٣ رسائل شرقية، الجزء السادس، ص ١٢٧.

الصنوبر التي صنع منها رفقاء البدو سلالمهم وحصونهم المتحركة ، ومعدات الحرب الاخرى التي كانوا يستخدمونها في حصار المدينة .

ولكن لماذا يقول فولني ان الامير فخر الدين هو الذي غرس هذه البقعة صنوبراً ابتغاء تنقية « الهواء ما دام التاريخ يقول ان فأس المجاهدين الصليبيين القدماء تعرفت الى صنوبر بيروت » ؟

ان الجواب على ذلك ، حسبما ارى ، سهل جداً لانه يستنتج من السؤال نفسه ، فالامير فخر الدين أضطر الى اعادة تشجير الغابة التي عزوا اليها تنقية هواء بيروت ، لان المحاربين الصليبيين كانوا قد ابادوا قسماً كبيراً منها .

وهَتَف السيد بوجولا وهو يتحدث عن الاشجار الاخرى في ساعة وحي حقيقية : « اه ! هل باستطاعة المدنية ، التي يهددون بها الشرق ، ان تنتقي غير الارز المسنّ هدفاً لفتوحاتها ؟ أيمكن العبقرية الصناعية المتعسفة ، الهدّامة ، الشاعرية ، ان لا تجتاح هذه الاشجار النفيسة لتباع اخشابها الثمينة في اسواق الغرب [٤] ؟ »

واذا ما عدنا من الصنوبر الى مصب النهر الذي تتألف منه تخوم حكومة بيروت ، نجد جامعـــاً صغيراً هو جامع الخضر الذي يزعم المسيحيون انه بني في المكان الذي صرع فيه مار جرجس التنين [٥] .

٤ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٢٦٣ .

٥ وما يروونه عن بيروت ، وهذا ما يقوله ادريكوميوس ، هو ان مار جرجس انقذ ابنة الملك من تنين هائل كان قد اوشك ان يفترسها ، واعادها بعد ان قضى على الحيوان المخيف . ويقول ايضاً على ذمة لوديفيكوس ان محل النزال دعاه الاهـــلون « كاباد وسيام » .

وروى المؤرخون الاقدمون ان قد قامت هنالك ، في المحل نفسه ، كنيسة كانوا يشاهدون اعمدتها المنحنية قبل ان واراها الثرى . واذا تجاوزنا شاطىء البحر من الجهة الشمالية وابتعدنا قرابة نصف ميل عن بيروت ، نجد مغارة تتسع لايواء اكثر من اربعمائة شخص . وهذه المغارة جعلها التنين مأواه . واذا تقدمنا نصف ميل آخر الى الامام ، نجد كنيسة مار جرجس التي يجلها المسلمون والمسيحيون إجلالاً كبيراً . ان كل تلك الآثار قد اندثرت بكاملها ، فالكنيسة دكت اساساتها ، والمغارة سدّ بابها بسبب بعض الانهيارات .

ولن اختم وصفي لضواحي بيروت دون ان اذكر المحجر الصحي ( الكرنتينا ) الذي لا يبعد إلا قليلاً عن جامع الخضر . فهذا المحجر قد قام بانشائه القناصل ، عام ١٨٣٤ ، بما تيسر لهم ، فاستطاع ان يقي سوريا طوال خمسة عشر شهراً من الطاعون الذي كان متفشياً في القسطنطينية ، وازمير ، وقبرص ، ومصر ، هذه البلدان التي كانت تفد منها دائماً سفن مشحونة بضائع وركاباً .

وابراهيم باشا هو الذي كلفني انشاء النظام الصحي في سوريا ، على ان يساعدني فيه قناصل بيروت الذين شاؤوا ان يظهروا غيرتهم في عمل يهمنا جميعاً . إلا ان هذا العمل لم يكن مجدياً بوجه خاص إلا للذين ألفوه ، او الذين حكم عليهم ان لا ينزووا في نقطة معينة . وفيما عدا ذلك فالقيام بمثل هذا التدبير لم يكن عملاً يسيراً .

كان علينا ان نذلل جميع العقبات التي خلقتها قضية المحاجر الصحية في بلادٍ يناهضها فيها الرأي العام . والقائد العام الذي

كان يهمه امر المحافظة على سلامة جيشه منحنا سلطة مطلقة . غير ان اعمال النظارة المصرية كانت صعبة جداً، حتى انه كان يتوجب علينا ، لاجل الحصول على مساعدتها ، ان نمرّ في شبكة من التقاليد أهم نتائجها اضاعة الوقت .

والقناصل ، بفضل جهودهم الجبارة التي لم تعرف الملل ، توصلوا الى حماية البلاد من الاوبئة رغم تسرّب المصابين اليها بلا انقطاع .

أضطر القناصل ان يقوموا بدفع تلك النفقات من جيبهم الخاص . فسرعة الحوادث والاصابات لم تكن تمكننا من انتظار وصول المال الذي طلبناه من السلطة .

كان علينا ان نشيد اكواخاً كبيرة لايواء القادمين وايداع البضائع . ولما كانت البضائع ترد في اوقات تكاد تكون متصلة ، كنا مجبرين على ايجاد امكنة لها تتفق واصنافها . وخلال المدة التي زاولت فيها الجمعية الصحية اعمالها ، لم يستطع الطاعون ان يجتاز التخوم التي اقمناها بوجهه . فلم يمت غير مئة وستة وعشرين مصاباً في الكرنتينا ، ولم تضطر السلطة الى دفع اقل مبلغ للادارة الصحية ، لان الجمعية وفّرت للصندوق آلاف القروش ما عدا قيمة البنايات التي تجاوزت الاربعين الف قرش . اما هذه الجمعية فكانت مؤلفة من قناصل فرنسا والنمسا والدانمرك واسبانيا واليونان .

اني لاحظت ، آنذاك ، وفي هذه المناسبة على الاخص ، ان الاجراءات البسيطة التي تُفهم وتدار بحكمة كانت كافية ، وحدها ، للوقاية من وباء الطاعون رغم طبيعته المعدية .

وفي مكان غير بعيد من الكرنتينا، تقوم هضبة مار متر التي تغنّى بها لامرتين ومجّدها . انها جميلة حقاً بمناظرها الخلوة، والموقع الفخم الذي يتمتع به الناظر . وها كم ما يقوله فيها :

« كثيراً ما تخيلت في طفولتي هذه الجنة الارضية ، لا بل هذه العدن التي تقوم في مخيلة جميع المخلوقات ، إما بصورة حلم جميل ، واما كأنها اسطورة تحكى عن زمن واقامة اكثر كمالاً وجمالاً . لقد تتبعت « ملتون » في اوصافه الجميلة التي وصف بها موطن اجدادنا الاولين المسحور . غير ان الطبيعة هنا ، كما هي في جميع الاشياء ، أسمى من الخيال . ان الله لم يمنّ على المرء ان يحلم بكل ما خلق من جمال . لقد حلمت بعدن ، لا بل اقول اني قد رأيتها[6] . »

انه لمن المؤلم ان يشرف مثل هذا المكان على بلاد ينتشر فيها الفساد كل يوم فواجعه .

ان بساتين بيروت مليئة بالخانات وأشباه الفنادق التي تجري فيها مسارمات رخيصة يندى لها وجه الاخلاق .

٦ الجزء الثاني ، ص ٣١٧ .

# الفصل السادس

حاصلات البلاد . الدخل العام . اسعار الحبوب .

ان رحالةً لا يكتب لفئة خاصة ، او طبقة معينة من القراء ، يجب عليه ان يتناول جميع النقاط التي تقع عليها عيناه . ولكي أرضي هواة تقويم امكانيات البلاد ، ها انني اقدم بياناً صغيراً ومقتضباً جداً عن حاصـــلات بيروت ودخلها ، نظراً لضؤلتها وطريقة حكم هذه البلاد التي لا تشجع الانتاج ، بل تعرض القسم الاكبر للتهريب ، وتجعله في متناول السلطـــات ومأموري الخزينة ، فيستطيع الحاكم ان يجني منه نفعاً كبيراً .

واني اقول دائماً الى الذين احسنوا الظن بسكان سوريا ، او الذين يحسبون ان المدنية قد وصلت اليهم ، ان هذا العلم – علم الاحصاء – غريب تماماً عن هؤلاء . انهم لم يحاولوا الاحصاء مطلقاً ، فالاحوال الشخصية غريبة عنهم ، والدولة لا تعرف عـن واردات البلاد سوى ارقام غير صحيحة ، لانها تُؤجر كلها .

ان الشعب التركي هو اكثر الشعوب لامبالاةً ، وهو يرى ان جميع المعلومات التي وصلنا اليها تافهة . وعلينا ان نعلّمه نحن بدورنا ان الطلاسم والعلوم والتاريخ هي بالحقيقة محاولة شرب البحر [1] .

[1] لافونتين ، الخرافة ١٦٦ .

وساعود في فصل مقبل الى الاخلاق التركية ، فاتكلم عليها .

ان محصول بيروت المهم هو الحرير ، ويمكننا الجزم بانه يبلغ في السنة العادية الاربعماية والخمسين قنطاراً ، اي ١٠١،٢٥٠ كيلوغراماً . ان هذه الكمية قد عرف وزنها بصورة رسمية ، لانها تصدر بعد ان تحول الى الف وثمانماية بالة .

٨٠٠ بالة الى مصر عن طريق البر .
١٢٠ بالة الى مصر عن طريق البحر .
١٣٠ بالة الى افريقيا الشمالية .
٣٥٠ بالة الى مرسيليا .
١٠٠ بالة الى دمشق .
١٠٠ بالة الى حلب .
٢٠٠ بالة للاستهلاك .

وهاكم الآن ، فيما عدا ذلك ، بياناً مقتضباً عن حرير سوريا :

| | انتاج | | استهلاك |
|---|---|---|---|
| بيروت | ٤٥٠ قنطاراً | دمشق | ٥٠٠ قنطار |
| دير القمر | ٢٠٠ قنطار | حلب | ٣٢٠ قنطاراً |
| الزوق | ٢٠٠ قنطار | طرابلس | ٥٠ قنطاراً |
| طرابلس | ١٥٠ قنطاراً | دير القمر | ٨٠ قنطاراً |
| صيدا | ١٠٠ قنطار | الزوق | ٣٠ قنطاراً |
| اللاذقية | ٣٠ قنطاراً | بيروت والجبل | ٢٠٠ قنطار |
| انطاكية وسائر الشمال | ٥٠٠ قنطار | صيدا | ١٠٠ قنطار |

الداخلية حما وحمص ١٠٠ قنطار    حما وحمص وسواها ٢٠ قنطاراً
دمشق وملحقاتها والجنوب    الصادرات    ٥٠٠
٧٠ قنطاراً

المجموع    ١٨٠٠ قنطار    المجموع    ١٨٠٠ قنطار

فالقناطير الحُسماية المصدرة الى الخارج ، والمحولة الى الفي بالة ، تصبح عنصراً هاماً للتصدير . الا انه يجب الاعتقاد هنا بان الكميات التي وزعت في البلدان المتقدم ذكرها لا تُستخدم جميعها في مصانعها ، فقد تبين من التدهور الذي صارت اليه ان القسم الاكبر منهـا كان يصدر الى اسوق اوروبا .

وقد تأكدتُ ان صناعة دمشق قصرت استهلاكها على مائتي وخمسين قنطاراً ، وصناعة حلب انقصت الكمية التي كانت تستهلكها حتى الثلثين ، فاكثر الاقشمة كان يُنسج من القطن الخالص .

ان منتوجات بيروت ودخلها ارتفعت على التوالي الى مبلغ ٨٠٠،٠٠٠ فرنك .

وهاكم بياناً عن اربع سنوات :

بيان بالمكوس والضرائب الملتزمة ( المضمّنة ) في بيروت :

| | ١٨٣٠ | ١٨٣٣ | ١٨٣٥ | ١٨٤٢ |
|---|---|---|---|---|
| أصباغ | ٥٠٠٠ | ١٣٥٠٠ | ٢٠٥٠٠ | ٠٠٠٠٠ |
| دباغة ومسالخ | ٩٠٠٠ | ٣٦٥٠٠ | ١٠٠٠٠٠ | ٧٠٠٠٠ |
| كيالة | ٢٠٠٠٠ | ٣٨٠٠٠ | ٥٠٠٠٠ | ١٠٥٠٠ |
| | | | | ٨٨٥٠ |
| | | | | ٢٥٥٠ |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| ساحة السمك | ٩٥٠٠ | ٣٤٧٠٠ | ٣٣٠٠٠ | ٤٥٠٠٠ |
| | | | | ٥٠٠٠ |
| حمامات | ١٠٠٠٠ | ١٤٦٠٠ | ١٦٠٠٠ | ٥٦٠٠٠ |
| دخولية | ٧٠٠٠ | ٢٠٥٠٠ | ٢٧٥٠٠ | ٠٠٠٠٠ |
| رسم الخضار | ٠٠٠٠ | ٢١٠٠ | ٣٢٥٠ | ٠٠٠٠٠ |
| العقارات والمسقفات والبساتين | ٩٠٠٠ | ٣١٤٥٠ | ٣٢٥٠٠ | ٥٨٤٤٨ |
| بن (المبيعات العامة) | ٤٤٥٠٠ | ٤١٧٠٠ | ٦١٧٠٠ | ٦٨٠٠٠ |
| حمالة | ٠٠٠٠ | ٠٠٠٠ | ٠٠٠٠ | ١٧٢٥٠ |
| فحم | ٣٥٠٠ | ٥٢٥٠ | ٧٠٠٠ | ٤٠٥٠ |
| الحياكة | ٥٠٠٠ | ٦٦٠٠ | ٦٣٠٠ | ٠٠٠٠ |
| خزفيات | ١٥٠٠ | ٢٠٥٠ | ٢٠٥٠ | ٠٦٥٠ |
| خان الامير يوسف | ٢٠٠٠ | ١٤٥٠ | ١٤٥٠ | ٩٦٠٠ |
| الوقود | ٠٠٠٠ | ١٢٣٠٠ | ٣٠٠٠ | ٦٥٠ |
| مسالخ | ١٤٥٠٠ | ٢٩٥٠٠ | ٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠ |
| تبغ وتنباك | ١٠٠٠٠ | ١٩٠٠٠ | ٢٠٠٠٠ | ٠٠٠٠ |
| اتونات | ٧٥٠٠ | ٨٨٠٠ | ٠٠٠٠ | ٠٠٠٠ |
| حانات | ٠٠٠٠ | ١٦٠٠٠ | ١٠٥٠٠ | ٠٠٠٠ |
| ارض الصيد | ٠٠٠٠ | ٢٥٠ | ٣٥٠ | ٣٠٠ |
| المكس | ٤٥٠٠٠ | ٥٣٥٥٠٠ | ٧٦٠٠٠٠ | ٣١٨٥٠٠٠ |
| حرير | ١٢٠٠٠٠ | ٢٥٠٠٠٠ | ٣٢٥٠٠٠ | ٠٠٠٠٠ |
| ملح | ١٧٥٠٠ | ٦٥٠٠٠ | ١٢٠٠٠٠ | ١٨٣٣٣٣ |
| قفف | ٣٠٠٠ | ٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠ | ٠٠٠٠ |

| | | | | |
|---|---|---|---|---|
| الجعالة | ١٥٠٠٠ | ١٢٠٠٠ | ٢٠٠٠٠ | ١٤٣١٧ |
| الفردة المصرية | ٠٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠٠ | ١٧٠٠٠٠ | ١١١٣٩٠ |
| المسيحيون | ٠٠٠٠٠ | ١٨٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠٠ | |
| المسلمون | ٠٠٠٠٠ | ١٢٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠ | |
| مال اميري | ٢٥٠٠٠٠ | ٩٢٠٠٠ | ٩٢٠٠٠ | ٠٠٠٠٠ |
| رسوم على الحبوب | ٠٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠٠٠ | ٠٠٠٠٠ |
| المجموع | ١٠١٣٥٠٠ | ١٥٨٨٧٥٠ | ١٨٨٢١٠٠ | ٣٩٣٠٨٨٨ |

ان حاصلات بيروت ولبنان المشتركة يبلغ حدها الاعلى حتى ١١،٩٠٨،٨٠٠ قرش ، وهي تنحصر في :

| | |
|---|---|
| الحرير ٤٥٠ قنطاراً | ٩٠٠٠٠٠٠ قرش |
| الزيت ٢٠٠٠ قنطار | ١٦٠٠٠٠٠ قرش |
| الخمور ١٠٠٠ قنطار | ٣٠٠٠٠٠ قرش |
| التبغ ٢٠٠ قنطار | ٣٠٠٠٠٠ قرش |
| الفحم الحجري ( الذي لم يعد يستخرج اليوم ) | ٠٠٠٠٠ |
| الثمار المجففة : تين ، عنب ، جوز ، الخ ... | ٣٠٠٠٠٠ قرش |
| الحديد الذي يستعمل في لبنان لنعال الخيل ( ٢٢٠٠ تقريباً ) | ٨٨٠٠ قرش |
| خشب البناء | ٢٠٠٠٠٠ قرش |
| القمح وسائر الحبوب | ٢٠٠٠٠٠ قرش |

اسعار الحاجات المختلفة في بيروت :

| | ١٨٣٤ | | ١٨٤٢ |
|---|---|---|---|
| | سانتيم | قرش[2] | |
| الخبز ، الاقة[3] | ٣٠-٤٠ | ٠ | |
| لحم البقر | ٢٠ | ٢ | |
| لحم الغنم | | ٧ | |
| عشر بيضات | ٣٠ | ٠ | |
| فرّوج | ١٠ | ٢ | |
| دجاجة | | ٥ | |
| سمك طازج | | ٤ | |
| سمك مقدّد | | ٤ | |
| حليب | ٢٤ | ٠ | |
| زبدة | | ٧ | |
| شحم الخنزير | | ٦ | |
| زيت | ٢٠ | ٣ | |
| خمر | | ١ | |
| فريك ( الكيلو ) | ٤٠ | ٠ | |
| الشعير ( الكيلو ) | ٢٠ | ٠ | |
| ملح ( الكيلو ) | ٠٤ | ٠ | |

٢ كان القرش يساوي عام ١٨٣٤ خمسة وعشرين سنتيماً، ثم تدهور عام ١٨٤٢ الى عشرين سنتيماً .

٣ ان الاقة توازي كيلو غراماً واحداً و ٢٤ غراماً .

| | | |
|---|---|---|
| تبغ للتدخين | | ٨ |
| سعوط | | ٣٤ |
| شموع | | ٧ |
| صابون | ٢٠ | ٤ |
| شمع عسلي | | ١٨ |
| حديد | | ٢ |
| نحاس مصنوع | | ٣٦ |
| فحم الخشب | ١٢—٤٠ | |
| سكر | | ٧ |
| بن | ٢٠ | ٩ |
| نيل | ٨٠ | ٠ |
| قرمز | | ١٤٠ |
| بهار | ٢٠ | ٦ |
| كتان | | ٨ |
| صوف غير منظف | | ٥ |
| صوف مغسول | | ٧ |
| حرير | | ١٢٥ |
| ارز | ٢٠ | ٢ |
| خنزير واحد ( خنوص ) | | ١٠٠ |
| حصان عادي ( مسار خيل ) | | ٥٠٠ |
| زوج بقر | | ٨٠٠ |
| بقرة | | ٣٠٠ |
| عنزة | | ٢٥ |

| | | |
|---|---|---|
| خروف | | ١٠٠ |
| جلد بقرة | | ٨٠ |
| جلد خروف | ٢٠ | ٣ |
| جلد عنزة | ٢٠ | ٤ |
| جلد قرقور | | ٢ |
| قطن صوفي | | ٧ |

# الفصل السابع

## اخلاق السكان وعاداتهم .

تحدث قبلي كثيرون عن مدنية الاتراك ، فاذا لم يتفق مـا سأدوّنه وما كتبوه عنها فذلك لاننا نثق ثقة عمياء بصحة اقوال الكتّاب المغرضين [1] او الذين لم يتمكنوا من الحكم على الاتراك كما هم لانهم لم يخالطوهم بل مرّوا في ديارهم مراً .

اني اعرف سوريا منذ سنة ١٨٠٣ ، فاقمت فيها عدة مرات ، واطول اقامة كانت مدتها عشر سنوات . وبناء على ذلك يمكنني التأكيد بان سكانها لا يزالون في مختلف شؤونهم واحوالهم على ما كانوا عليه قديماً ، لم يغيروا شيئاً من عاداتهم وتصرفاتهم

---

١ لحسن الحظ ، تسنى لبعضهم ان يحسنوا الحكم على رجالات الشرق ، ومن بين هؤلاء السيد مينو الذي يقول : « حملت على الاعتقاد بان اعمـــال الاصلاح التي اثاروا حولها ضجة كبيرة ما هي الا مشهد يتلونه امام الرأي العام الاوروبي . اني لارتاب جداً بمحمد علي ومحمود الذين يمثلان رواية المدنية ليستميلا عطف الشعوب المسيحية ويناﻻ اعجابها . فباشا مصر ، على الاخص ، متيقن ان الطريقة الصحيحة الواجب عليه اتباعها ليكثر مشايعوه عبر البحار انما تكون في ان يحتل مكاناً بين حكام الجيل الحاضر ، وان يظهر للناس مقته القوي للهمجية القديمة ، ويدلل على انه صديق المعارف والعلوم والاراء الجديدة الغيور . لقد خُدع كثير من الناس ، ومن هنا بالطبع نتجت هذه الخرافات التي تناقلوها عندنـــا حول مدنية هبطت ، كما يظهر ، منذ فترة ، من السماء على ضفاف النيل.» ( رسائـــل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٣١٣ ) .

واخلاقهم . وكيف كان يمكنهم ان يتغيروا ؟[٢]

انهم لا يستطيعون ، كما يريد « لامارتين » لمواطنينا في فرنسا ، ان يفهموا معنى الحياة ويتحركوا للاعمال التي يأتي بها العلم كل يوم . فالثقافة صعب تعميمها بينهم وجعلها في متناول جميع الناس . فالبلدان هنا محرومة من الجرائد لا يذاع ولا ينشر فيها شيء . لا تجد شخصاً واحداً يتعاطى الكتابة ، ولو على سبيل التسلية ، والقصاصون الذين يتولون ، كل مساء ، خلال ساعة ، تسلية عاطلي المقاهي ، يستقون معلوماتهم القصصية من مخطوطات بالية مبتذلة .

فاذا كان لا بد للشرقي من ان يفكر فانما يكون تفكيره في مشاغله البيتية او التجارية ، ولا يشغله شيء آخر في هذا العالم غير هذه . ان تسليمه لمشيئة القضاء والقدر يعيده بسرعة ، في كل الاحوال ، الى هدوئه المعتاد الذي هو مزيته الغالبة على طبعه .

اعرف تركياً كان يكنّ لي كثيراً من الثقة ، ويستشيرني في الاعمال التي تهمه . وفي ذات يوم أضطرته مصالحه التجارية الى ايفاد ابنه الوحيد الى قبرص ، فسألني ان احمله وصاة الى احد اصدقائي فيها ليعنى بامره . وما مضى يوم على سفر ابنه حتى جاءني مستطلعاً انباء هذا الولد الذي كان متزوجاً وأباً لاولاد . ولسوء طالعه كان هواء لارناكا الموبوء شؤماً عليه ، فجاءنا ،

[٢] ان الاتراك الذين لا يتغيرون في عرفهم وعاداتهم لم يتطوروا ولم يتجددوا ولم يتقدموا في اي مضمار . ان كل شيء عندهم يحول دون تقدم المعارف والعلوم . ان توهماتهم تجعل من جهالتهم مبدأ مقدساً . فهم سذج وذوو اعتقادات باطلة الى مدى بعيد ، واعتقادهم بالقدر يخدرهم ويجعلهم لا يبالون بأي شيء . ( ديجون ، اراء في السلطنة العثمانية ، ص ٦٢ ) .

ويا للاسف ، خبر وفاته . ارتبكتُ جداً ولم ادرِ كيف اواجه صديقي بهذا النبأ الاليم خوفاً من تفجعه العظيم . واخيراً ، نزلت على اقتراح احد تراجمتي ، فتوجه اليه واعرب له عن مشاركتي اياه ألم هذا المصاب ، ودعاه الى احتماله بجلد . إلا انـــه عندما رأى موفدي تقدم منه وقال : لقد آلم صديقي القنصل هـذا الحادث المفجع الذي حل بي ، أوليس كذلك ؟ هذا مؤكد عندي . انّا لله وانّا اليه راجعون . أبلغوه تمنياتي القلبية ، لا ابتلاه الله بمثل هذا المكروه . قولوا له ان يتعزى لمصيبتي .

وهكذا استغنى الترجمان عما اعدّ من الجمل الطنانة ، وأضطر الى الانسحاب دون انْ ينبس ببنت شفة ، لان موقف هذا الشخص الهادىء المستسلم قد ضعضعه تماماً .

قلتُ سابقـــاً انه لم يكن عند المسلمين مجتمعات حقيقيـة ، فالاشخاص الاشد حباً للاجتماعات والمجالس ينسحبون الى منازلهم عند غروب الشمس ليتعشوا فيها ، ثم لا يبرحونها . قلما يسمحون لانفسهم بالقيام بنزهة صغيرة على الاقدام ، وان فعلوا فتلك النزهة لا تتعدى المدافن او احدى الروابي غير البعيدة عن المدينة . انهم كانوا يخشون ، اذا ابتعدوا ، ان يقلقوا بال الحكومة لان السلطة كانت حذرة جداً [3] . اما خروجهم الى المتنزهات راكبين خيولهم فهو نادر . فالاتراك يعدوننا مجانين حين يرون ما نبديه مـــن

[3] كُتب هذا الفصل يوم كانت الفوضى حالة البلاد الطبيعية . اما اليوم ، وقد ظهر بعض النظام في تصرفات الدولة ، فانه لم يبق ينطبق على الحقيقة بالقدر نفسه . ولكن لما كانت الحالة لم تستقر بصورة نهائية فالعادات لم تلغ ، بل يحافظ عليها .

الحركة النشيطة الفرحة عندما نفتش عن اسبـــاب اللهو ، فهم لا يدركون اننا ننشد المسرة في المشقة التي نعانيها . اما هم فيؤثرون المسرات التي هيأتها لهم متاعب غيرهم [4] .

اما المتعبدون منهم فيفضلون الذهاب الى الجامع في مواقيت صلوات الليل بدلاً من ان يصلّوا في منازلهم ، وقد تحظر عليهم الصلاة بالمنزل في بعض الحالات ، لان الوضوء الجزئي الذي تؤمنه الدار غير كاف . فيذهبون الى الجامع فور خروجهم من الحمّام . ومع ذلك فهناك بعض اشخاص يرون ان من اسباب الراحة ان يستطيعوا القيام بالتطهر الكامل في دورهم .

اما المسيحيون فباقتباسهم بعض العادات الاوروبية قد تذوقوا لذة الاجتماعات الليلية ، وقد سهلت لهم سبلها وحشة الشوارع . فبعد هبوط الليل بساعتين ، تمتنع ملاحظة ذهابهم وايابهم ، ناهيك بان السلطة لم تكن ترتاب فيهم لتبث عليهم العيون والارصاد .

في هذه السهرات الشرقية يصطخب بحث قضايا الساعة ، ولكن ضمن اطار محدود وضيّق في النظر تبعاً لثقافة المجتمعين السطحية . فالقضايا السياسية التي تشغل بالهم هي قضايا تركيا ، وليتك تدري كيف يحكمون عليها !

وعلى كل ما في ارائهم من ضعف فاننا نراها دائمـــاً اكثر صواباً من اراء سواهم .

فالسلطان هو دائماً في نظر الاتراك موزع العروش . واذا لم يكن للاميركيين ملك ( الولايات المتحدة ) فذلك لان جلالته لم يشأ

٤ ساي ، بحث في علم الاقتصاد العام ، الجزء الاول ، ص ١٢٦ ، الحاشية .

ان يعترف باستقلالهم *.

اكد احدهم، في جدال وقع بينه وبين احد الاوروبيين ، ان الافرنسيين لن يتمكنوا ابداً من اخضاع بلادهم . اما الاوروبي فكان يحاول اقناعه بان اتراك اليوم ليسوا اولئك العثمانيين القدماء الذين يفتخر بهم .

فأجاب التركي : انني اسلّم بهذا ، ولكن السلطان العظيم أسدٌ مخيف .

فقال له الاوروبي : نعم ، انه كما يبدو لك مروع جداً ، ولكن تصور كلبين قويين يتنازعانه اذنيه ، وكل منهما يشد صوب صدره ، ثم قل لي بعدئذ ما يصيب اسدكم ؟ وهكذا أضطر التركي المشدوه الى التسليم بصواب رأي مجادله . ان نفسه لم تحدثه بهذا المؤتمر الكلابي .

فبمثل هذه التشابيه يمكننا حمل الاتراك على الاقتناع ، لان تعصبهم الاعمى وجهالتهم يجعلان منهم اناساً لا يستطاع اقناعهم إلا بهذه الصورة .

وعندما نذكر لهم تفوق عُدَد الافرنسيين يجيبون بان مؤمناً حقيقياً يمكنه ، بضربة سيف واحدة ، إسقاط ١٢،٠٠٠ كافر . اما فيما يختص بالاعمال الحربية وخططها فقد اصبحوا أنداداً لنا منذ غيروا طريقتهم . أولم يجهز كل شيء عندهم مثلنا ؟

* ... نهت من جوالة انكليزي لطيف في تصرفاته ومتفوق بثقافته (السيد بلانون) نه على اثر اهداء السلطان امير بلاد الغال ، سيفاً مرصعاً بالماس ، قالت له احدى الشخصيات في دمشق ان ذلك كان اعترافاً له بحق وراثته .

ان السوريين يبالغون جداً بالامتداح ، وهم جد اسخياء بالهبات والعطايا الممتعة التي يحوزونها الى حد ان تراودنا فكرة الاعتقاد بانهم صادقون اوفياء .

. . . . . . . . . . . . .

ان المسلم ، اذا لم يكن له اولاد ذكور ، يأكل منفرداً في خدره . اما النساء والبنات فيجب ان ينتظرن ريثما ينتهي سيدهن . وبعض الاحيان تكتفي الحريم بأكل ما هيأنه من مأكولات للعامة .

ومن تقاليدهم وعاداتهم ان يأكل الزوج وحده الثمار عند اول نضجها او عندما تكون مرتفعة الثمن .

ان روح الألفة في العائلات الشرقية مفقودة تماماً ، ذلك لانه يتوجب على الرجال ان يظلوا متجهمين دائماً في خدورهم ليحافظوا على هيبتهم ويوحوا الى النساء والاطفال شعور الامتثال الذي يكفل لهم سيادتهم .

ان الشرقيين يُشغلون بسهولة ، وعندما يعجز تدخين الغليون عن اعفائهم من الكلام ، فأتفه حادث يصلح موضوعاً لقضاء السهرة التي لا تتجاوز حداً معقولاً . والمسيحيون ، بصورة خاصة ، لا يتمادون في اطالة سهراتهم اذ ان الحكمة ، التي تتوج جميع تصرفاتهم ، تقضي عليهم بان لا يظهروا على الطرقات العامة في ساعة لا يجيز القانون التجول فيها .

ان سكينة الليل لا يقلقها سوى صراخ بائعي التمرية ، ملذة الذين يُضطرهم تعطشهم الشديد للمال او حاجتهم الحقيقية الى ان يعملوا قسماً كبيراً من الليل . واذا حكمنا بالاستناد الى قطع

الحلوى التي تباع كل مساء ، يمكننا الاستنتاج ان في بيروت عدداً كبيراً من الاشخاص العاملين الذين لا يرغبون في النوم فارغي الامعاء .

ان المسلم ، في حياته الخاصة ، صالح وخيّر وامين ( إلا تجاه امرأته ) . انـــه يأخذ حذره حينما يغادر منزله ويصبح رجلاً مشككاً .

وسكان بيروت مشهورون ببخلهم ، فالاكثرون حديثو النعمة ، ولذلك يرجعون الى طبيعتهم الاولى كلما همّوا بالتنعم بالاموال التي وفرتها لهم ثرواتهم . انهم يعتبرون ثروتهم وديعة بين ايديهم . هذا شيء فلسفي . إلا انـه ناتج حقيقةً عن تقتيرهم الذي طبعوا عليه . فهم لا يفقهون معنى الترف سواء أكان في لباسهم او على موائدهم ، او في مفروشاتهم التي تكلمت عنها آنفاً .

يرتدي السوريّ الميسور ، عادةً ، اكثر ما تحتويه خزانته ، وعليه ان يتحلى دائماً بكل ما يملك من اشياء ثمينة ليظهر للناس غناه .

اننا نعجب اذ نرى الفنون الجميلة حديثة الميلاد في الشرق . ولكن اية حاجة لهم بها ؟ فالعرب يعيشون غـــير محتاجين الى شيء ، وكل صناعة في بلادهم تكون معرضة للموت .

وماذا نرى في اسواقهم غير منسوجات الصوف ، والحرائر ، والقطن ، والطرابيش ، والبوابيج ، والغلايين ، وبعض الزجاج الغليظ ، واخيراً الحبوب التي تأتيهم من المستعمرات . وماذا عند صيادلتهم غير المواد الطبية البسيطة ، وبعض خلاصات كيماوية يعرفها الجميع ويطلبونها لصبغ الاقمشة .

حاول بعض الاوروبيين ان يمدّونا ، بعد ان فتشوا في فهارسنا ، بما نحن في حاجة اليه . وهب انهم باعوا بعض المواد من غير الفرنسيين ، فتشتري على سبيل الفضول ، وليس لانهم محتاجون اليها . ان طريقة استعمالها لا تزال مجهولة عندهم .

ان مسلمي مدن سوريا الداخلية هم دائماً ثائرون مهتاجون ، واقل بادرة تمس دياناتهم تحملهم على انفعال متجاوز الحد . ان علاقاتهم الحسنة مع التجار الغربيين قد درّت عليهم كثيراً ، إلا انها لم تعمل ، ولو قليلاً ، في تحوير عاداتهم .

ومع ذلك فللبعض منهم علاقات وثيقة مستمرة بالمسيحيين ، وخصوصاً اذا كانوا ممن يحبون الشرب ... ان للاتراك ميلاً خاصاً لتقليد الافرنسيين في تذوقهم المشروبات . واذا كان الشرب يسمّى مدنية فانني استطيع التأكيد بانهم جروا شوطاً بعيداً في هذا المضمار . ذلك لان رؤية اشخاص يطوفون الشوارع بين خمرتين في تركيا ليست نادرة . فالكحول تباع فيها اليوم جهراً لان السلطة اقتنعت بانها تجني ربحاً باهظاً من سماحها بما ليس في الامكان تحريمه . ان الخمارات قد اكتريت كلها .

وفي زمن كانت الخمرة فيه محرّمة حظر احد الباشوات ، الذي شاء ان يكون متنطساً ، بيع المشروبات المسكرة من المؤمنين . إلا ان احدهم لم يكن يستطيع الاستغناء عنها فاتفق له ، وهو يملأ زجاجته ، ان مرّ الحاكم الذي كان يقوم بدورته التفتيشية ليتأكد من تنفيذ اوامره . فخبأ المولع بالعصير الالهي بيديه الثنتين وزجاجته وراء ظهره ، ثم انتصب مستنداً الى الحائط ليقوم بمراسم

الاحترام والاجلال . وكان الباشا لبيبا من الاشارة يفهم ، فرابه وجود الرجل في هذا المكان ، فسأله ، بعد ان سلم [٦] عليه ، عن سبب اخفاء يديه ، فأراه الرجل يده اليمنى . فقال الباشا : واليسرى ؟ فأراه اياها ايضاً بعـد ان امسك الزجاجة باليمنى . إلا ان ذلك أكّد له ان في القضية سراً . فطلب اليه ان يريه كلتا يديـه معاً ، ففعل الرجل بعد ان حصر الزجاجة بين ظهره والحائط . إلا ان الباشا صرخ قائلاً بعد ان نفد صبره : تقدم اليّ !

وعندما وجد صديق الخمرة لم يعد بامكانه التستر ، تناول الزجاجة وقدمها وهو يقول : انها مملوءة زيتـاً . فصاح الباشا : زيت !! وهذا اللون ؟

فأجاب الرجل الظريف : لقد أحمر خجلاً من دولتكم .

ان المؤمنين لم يحجموا عن تعاطي المشروبات بعد التطور الذي حدث في تركيا ، فهم لم يتقيدوا بتحريم النبي للمشروبات المسكرة ، ولكنهم يشربون بتحفظ واحتشام .

والسكر آفة قديمة عند العرب . وقد انبأنا احد الكتّاب ، وهو مطلع على تاريخهم : « انهم على الرغم من زهدهم في اسباب ترف المعيشة كانوا مولعين بالخمرة والسكر ، وكثيرون منهم ذهبوا ضحية باخوس كالزبير مثلاً . وروي ايضاً ان احدهم تنازل ، لقاء حصوله على زقٍّ من الخمر ، عن مقاليد مهنته المرموقة في حراسة

٦ ان هذا العرف يرجع اصله الى الوصية التي أوصاها محمد لعائلته المجتمعة حوله في مرضه الاخير : اني امنحكم السلام، يا من انتم حاضرون هنا، واكلفكم ان تمنحوه باسمي الى الغائبين ، واشهدكم اني سامنحه انا ايضاً للذين يأتون بعدي على ممر العصور. (رينو ، مشاهد شرقية ، الجزء الاول ، ص ٢٦٨ ).

الكعبة في العهد القريشي . »

وبعد ، فلم اجد في القرآن إلا آيات قليلة أتي فيها على ذكر الخمرة . وهذه الآيات ، كما يلاحظ القارىء ، لم تحرمها تحريماً مطلقاً ، وساوردها طبقاً لترجمة السيد بيربستان كاسميرسكي البارعة :

« يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس واثمهما اكبر من نفعهما . — سورة البقرة ، ٢١٨ . »

« ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، ان في ذلك لآية لقوم يعقلون . — سورة النحل ، ٦٧ . »

« يسقون من رحيق مختوم . — سورة المطففين ، ٢٥ . »

« يا ايها الذين آمنوا ، انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . — المائدة ، ٩٠ . »

وهناك اعتقاد خاطىء آخر انتشر بين الاوروبيين ، فهم يحسبون ان محمداً حرم على النساء الجنة . ولهذا ادوّنُ هنا الآيات التي تدل على ان النبي لم يهمل مصيرهن ، وقد اراد لهن النعيم كالرجال انفسهم :

« ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا . — سورة النساء ، ١٢٤ . »

« وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوانٌ من الله اكبر ، ذلك هو الفوز العظيم . — التوبة ، ٧٣ . »

« جنات عدن يدخلونها ومن صَلَحَ من آبائهم وازواجهم وذرياتهم ، والملئكة يدخلون عليهم مـــن كل باب . — الرعد ، ٢٥ . »

« ليُدخلَ المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفّرَ عنهم سيئاتهم ، وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . — سورة الفتح ، ٥ . »

# الفصل الثامن

اخلاق المسلمات وعاداتهن .

انصف النبيّ محمد النساء اكثر مما انصفهن الرجالُ الذين اتبعوا شريعته . فلسن في نظر هؤلاء اكثر قيمة من متاع نافع . واذا شئتُ انْ أوضح بجلاء فكرة ازواج الشرق ، وجب عليّ ان اقول انهم ينظرون اليهن نظرة الاطفال الى الدمى . وهل ان هنالك ظروفاً اكثر ايلاماً من الظروف التي ترافق دخولهن الى هذا العالم ؟

« واذا بُشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشر به ، أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب . — سورة النحل ، ٥٨ – ٥٩ . »

وفي ايامنا هذه يفهم الناس في الشرق من الضجيج او السكون الذي يخيم على غرفة النفساء ، اذا كان المولود الجديد صبياً او بنتاً .

فاذا كان انثى خيّم الذعرُ على البيت ومن فيه . ان القابلة هي التي تحمل النبأ . وشعور البهجة الذي يثيره فيها ميلاد الصبي ينقل بسرعة الكهرباء . فما ان تسري البشرى في الداخل حتى تعلن في الخارج بالزغردات : لو ، لو ، لو [1] ، تقذفها افواه النساء

[1] بما ان النساء يفصلن دائماً وابداً عن مجتمعات الرجال ، لم يبق لهن في الاعياد

في المنزل اكثر من مائة مرة ، وعندئـــذ يهنىء الجميع الاب ، وتكون سعادة العائلة على اتمها .

ان الفتاة لا تحظى عندهم الا بالثقافة المنزلية . فهي تكنس عندما تستطيع حمل المكنسة التي لا تتجاوز طولاً نصف متر . واذ يشتد ساعدها ، تستخدم في الغسل والطهي واشغال البيت الاخرى ، فالولائم العربية تستدعي عدة تجهيزات ، سواء أكان ذلك لدق اللحم في جرن لتحويله الى معجون ناعم ( الكبّة ) او لقطع اللحم يُمزج بالارزّ ، ويحشى به ورق العنب ، والملفوف ، والكوسا ، والباذنجان . ان مآكلهم الطيبة تقتضيهم وقتاً كثيراً ومجهوداً كبيراً .

امـا الشؤون الاخرى فلا تتعلم الفتيات التركيات منها إلا قليلاً من الخياطة والتطريز على الطراز الشرقي الغليظ . هذه هي الاعمال التي يشغلون البنت بها . اظن انـــه لا يوجد بين نساء المسلمين من يعرفن القراءة . ويزعم الرجال انهم يقللون بذلك من خبثهن ومكرهن .

ان العادات الشرقية تشجب المخالطات الاجنبية حتى بين النساء . والمسلمات لا يبحن لانفسهن سوى التمتع بالمسرّات التي يمكن منها المنزل الذي لا يخرجن منه إلا لزيارة نسيباتهن القريبات .

ومع ذلك فعندهن الاستحمام ، فاذا ما فقدنه فقدن اهم اسباب

سوى مهمة تصعيد هذه الاصوات الحادة ( الزغردات ) من وراء الحجاب الذي يغطيهن. (رحلة علي بك ، الجزء الاول ، ص ٣٧ ) . ولما كانت هذه الاصوات المخيفة نوعاً من الفن والمقدرة عند النساء ، كن يتهزن الفرص لقذفها في الهواء ويتبارين فيما بينهن سواء أكان ذلك بحدة الصوت ام بطول النفس . انهن يرسلن هذه الزغردة في مناسبات الولادة ودخول الحكام الى المدينة .

ملذاتهن . ان ازواجهن لا يمنعونهن منه ، لانهم على يقين انه المكان الوحيد الذي لا يتعرض فيه شرفهم لأيّ خطر .

والنساء يذهبن الى الحمامات عملاً بتعاليم دياناتهم التي تقضي عليهن بالوضوء الكامل .

انهن يهيئن ، يوم ذهابهن الى الحمام ، كل حوائجهن منذ الصباح الباكر . فيجعلن من المناديل رزماً مختلفة تصلح لعدة شؤون . انها متعددة جداً ، فمنها ما يكون من الحرير او القطن ، ومنها ما يكون مربع الحجم ذا لون ابيض . ان النساء يتلثمن باربعة مناديل في وقت واحد : على اكتافهن وعلى رؤوسهن . واذا شئن ان يكنّ ظريفات ، ولو قليلاً ، فعليهن تبديلها مرة ومرتين بعد مغادرتهن المنزل .

والوقت الذي يقضينه في الحمام لا يمكن ان ينقص عن ثلاث ساعات او اربع . وهن يأكلن ويشربن في اثناء ذلك حتى ان تدخين الغليون والنارجيلة يملأ فراغاً كبيراً من فترات الاستراحة .

ان مشاغل النساء في الحمام عديدة ، فهنـــاك يجتمعن لينظفن اجسادهن بكيس من الشعر الناعم ، ويضعن على رؤوسهن الحناء لتصبح شعورهن ملساء . ثم يدلكن اجسادهن بمادة لزجة ممزوجة بماء الورد . واخيراً يتمشطن ويصففن شعورهن ذوائب . ولما كن يعتبرن انفسهن عائلة واحدة ، على الرغم مـــن تعدد الاشخاص ، فان هذه العمليات ، لكل منهن على حدة ، تستغرق الوقت الطويل .

وفي الحمام يشتد هذر النساء ولغوهن ، فهناك يلقنّ بعضهن بعضاً ما حفظنه من حاضناتهنّ اللواتي كن يدلكن اجسادهن ويغسلنها .

تتألف حمامات الشرق مـــن ردهات واسعة معقودة بالحجر ، تعلوها قباب تطل منها كوى صغيرة مدورة ، لتستقبل ضوء النهار . ان هذه الحمامات لا تعرف الهواء مطلقاً لان كل نافذة منها مجهزة بعدسة من الزجاج .

ومن نزه النساء ايضاً زيارة المدافن ، فهي موضوع تسليتهن ، بل الطريقة الوحيدة التي تسهل لهن مغادرة المدينة واستنشاق هواء الجبل . وهن لا يحجمن عن استغلال هذا الظرف جهدن ، عندما تسمح لهن الحال بذلك . يجتمعن حلقات حلقـــات حول اضرحة عائلاتهن يتحدثن او يصلين ، بينما يقوم أحد الشيوخ ، وهو عادة اعمى ، بتلاوة آيات القرآن عن نفس المرحوم .

يؤكد البعض ان النساء يقمن في اثناء هـــذا الطواف بين القبور بالتقاءات لا تكون في اكثر الاحيان بريئة . واذا لم يجدن الاشخاص الذين يرغبن في رؤيتهم او لم يتمكنّ من مخاطبتهم ، فانهن يعبرن عن عواطفهن وافكارهن بترك باقة زهر ذات رمز على ضريح الراحل العزيز .

ان طريقة التفاهم بالحركات تؤدي الى خلق مثل هذه البدعة ، وهي ضرورية نظراً للافتقار الى معرفة الكتابة . فبها يستطاع التعبير عن كل قصد ورغبة في اصغر حجم ممكن . ان الازهـار والثمار هي دعامة هذا التفاهم بلا كلام .

يقول السيد روبنسون : ان الحب عند الشعب الاسلامي هو شعور مجهول [2] تقريباً ، لان الجنسين لا يختلطان ابداً .

٢ رحلة ، الخ ... الجزء الثاني ، ص ٤٣ .

ان السائحين القدماء لا يؤيدون هذا الزعم الذي يشاركهم فيه السياح المحدثون ، نظراً لفساد وانحطاط العادات والعرف الناجمين عن ضعف الحكم العثماني الظالم .

ولقد نقل مسرح تركيا اقصوصة يصح القول عنها انها مستقاة من تاريخنا الاوروبي . وهذه هي :

« أحبّ شاب تركي ، مرموق النسب ، وافر الثراء ، فتاة عربية بائسة جميلة العينين على الرغم من اسمرار لونها . وبذل اهله كل ما في وسعهم ليحولوا دون هذا الزواج المخزي لعائلتهم ، الشائن لاسرتهم ، فلم يفلحوا . وبقدر ما كانوا يغالون في تصوير انحطاط اصل الفتاة وضعتها وفقرها ، كان فتاهم يزداد لها اشتعالاً بدلاً من ان يخمد . واصرّوا واصرّ ، وهدد اخيراً بالانتحار اذا لم يوافقوا على هذا الزواج . كان يقول انه لا يستطيع الحياة إلا في قرب هذه الفتاة التي توحي الخوف والكراهية لاهله وذويه . صحيح انه حب بشع ، ولكن هذا الحب كان أعمى . فاضطروا اخيراً ، تداركاً للكارثة المنتظرة ، الى النزول على مشيئته [٣] . »

يقول السيد دي بايسونيل في رسالة حول مذكرات السيد دي توت :

« يزعمون ان الخادمات المستعبدات هن اللواتي يمهدن الطرق لمكائد سيداتهن ، مع ان هؤلاء لا يستطعن اكثر من العمل على اخفائها . ان مثل هذه الاعمال غالباً ما تقوم بها بائعات مواد

٣ رحلة ، الجزء الثاني ، صفحة ٢٤١ .

الزينة التركيات ، او المسيحيات ، او اليهوديات المفتوحة بوجههن ابواب الحريم ، وهن في كثير من الاحيان يجعلن بيوتهن ملتقى للعشاق لقاء أجر ما . »

والرجل المثري التركي تعرفه من سمته . لقد وجدتُ هنالك شباباً واساتذة صغاراً ، وضرباً من الناس يسمونهم بالتركية « زنبر شلبي » . ان في حوزة هؤلاء لائحة باسماء النساء الجميلات اللواتي يتمتعن ببعض الشهرة ، فهم يفتشون بلا ملل عن طرق التعرف اليهن وتذوق حبهن وامتصاص ثروتهن وما يملكنه . وكثيراً ما يتباهون بظفرهم بهن ، مع ان شيئاً من هذا لم يحدث .

« ان مصارحات الحب المتبادلة تتم عادة بـ « المعاني » . وهذه الكلمة المأخوذة من العربية تعني التأويل ، المجاز . وهي تطلق في لغة العشاق والمتظرفين على الاشياء التي تعني لفظتها رمزاً اتفق عليه المحبون [4] . »

وفوق ذلك ، أوهل يُظن ان النساء يتعبن او يملن من انزوائهن المتواصل ؟ لقد جعلتهن العادة الطويلة الامد صالحات لهذه الحياة حتى بتن لا يرغبن في استبدالها . ان ثقافتهن لا تجعلهن صالحات لاي عمل آخر .

وعندما تُطلب فتاة ما للزواج ، تكون عادة في عمر الاربع عشرة سنة او الخمس عشرة . والأب لا يستشير امرأته ولا ابنته ، بل يكتفي باعلامهما انه قال كلمته ( وعد ) ، وان حفلة العرس

٤ رحلة ، ص ٢٩ .

ستكون في اليوم الذي عينه .

ان العروس تجهل غالباً اسم خطيبها . واذا ارادت ان تراه فلا يكون ذلك إلا من ثقب النافذة ، او خصاص الباب ، او بصورة خفية في الشارع ، من خلال منديلها الشاشي الذي تضعه النساء على وجوههن ، والملاءة التي تغطي القسم الباقي من جسدهن عندما يخرجن .

وفي عشية الزفاف ينقل الجهاز الذي يهبه الاب لابنتـــه في موكب فخم . يكثر هذا الجهاز او يقل بالنظر لثروة الاشخاص. وهو يتألف من الملبوس وادوات الطبخ ومتاع البيت كالمسرجة والمقعد ، وحزمة فتائل ، والاشياء الاخرى التافهة الثمن . إن كل قطعة من هذه الامتعة تحمل على حدة ليقال ان جهـاز بنت فلان قد نقله كذا وكذا من الرجال .

ولدى وصول هذا الجهاز تستسلم قريبات العريس الى ذوقهن وتتعالى الزغردة : لو ، لو ، لو . ويتنعمن بذلك الصباح ساعات طوالاً . ان هذا الصراخ ، كما سبق لي ان قلت ، هو ملذة توحي حب المنافسة عند النساء ، وهذا ما يحملهن على اغتنام كل مناسبة يظهرن فيها هذه البراعة والتفوق .

اما عقـــد الزواج فينظمه القاضي بناءً عـــلى شهادة انسباء العريسين ٥ . وهو ، اذا ما استثنينا هذه النقطة ، لا يقوم باية مهمة في النكاح المنوي عقده ، اي لا يكسبه أية صيغة رسمية ، لان

٥ ان الشريعة الاسلامية توجب رضى العروس . ولما كانت رؤيتها مستحيلة وجب ان يكون الشهود من الذين يعرفونها من صوتها . ولذلك يقفون وراء ستار او حائط لتقول لهم الفتاة ان اباها هو وكيلها في كل شيء .

الزواج عند المسلمين مدني بحت . وافتقاره لشكل ديني ما لا يفقده الطابع المقدس الذي تغدقه عليه الطقوس الدينية عند غير المسلمين .

والعروس لا ترى عريسها إلا يوم زفافها ، وفي البرهات التي تتمكن فيها من اختلاس النظر اليه . فكل فتاة تحترم نفسها مضطرة الى اغماض عينيها خلال سبعة ايام كاملة. ففي هذا الوقت « تُصمد » على وسادة بعد ان تقلّد كل حلاها ، وتخضع للزينة الخاصة بالمتزوجات الفتيات . وهذا التبرج يؤدي الى مسخ الوجه ، فيصبح كأنه وجه مستعار حقاً ، ثم تدهن اليدان والرجلان العارية دائماً .

ومن يمكنه عند ذاك معرفة وجه انساني من خلال الصفائح المذهبة ، وشتى ضروب الالوان الحمراء ، والزرقاء ، والبيضاء ، والبراقع المتعددة ، وتكحيل الجفون ، وتزجيج الحواجب التي تقوس بتأنٍ ، ثم يعنى بان تتلاقى عند اول الانف !.. وهنا يجب ان نعترف ان العلم لم يساهم في اصلاح مقابح العصر ، ولكنه ساعد في انماء مفاعيلها وتقويتها [٦] .

٦ انا نغتفر لاكليريكي قام برحلة في القرن السادس عشر شططه وخطأه عندما قال ان حفلات الزواج الاسلامية تجري كما يأتي: عندما يتم الاتفاق بين الفريقين توضع الزوجة في غرفة مع نساء من قريباتها ونسيباتها . والعريس الذي يرافقه عدة رجال يذهب اليها ، ويقرع الباب فتصرخ النساء : من تطلب ؟ يجيب : اطلب فلانة لتكون زوجة لي. فيجبن: ماذا تقدم لها ؟ فيقول: وماتبتغي هي؟ فيقلن: انها تريد غلامين يقومان على خدمتها، وكذا كذا مهراً . وعندما يتفقان على ذلك يفتح الباب فتخرج النساء من الغرفة تاركات العروس وحدها . اما الرجال فيرافقون العريس الذي يدخل الغرفة ويقيم مع عروسه . هذه هي الرتبة كلها . (الاب دنديني، رحلة الى لبنان، ص ٦٢ ).

ان ذوق هؤلاء النـــاس غريب جداً الى حد انهم كانوا يعتقدون ان العروس التي تظهر بمظهر الفتوة الجذابـــة وبلباس بسيط يخشى ان تُنبذ .

# الفصل التاسع

عادات اسلامية . شعر . موسيقى . علوم .

توجب الحشمة على الشرقيين ان لا يتحدثوا مطلقاً عن نسائهم . وعندما يُضطرون الى الاتيان على ذكرهن ، وذلك يكون في ظروف نادرة جداً ، يتوجب عليهم ان يطلقوا عليهن اللقب المصطلح عليه في المنزل . والذين يعتقدون انهم من اقرانك وامثالك ، يسمون زوجتهم شقيقتك عند اقتضاء ذكرها ، واذا كانوا اقل طبقة فهي عبدتك ، او أمّ علي مثلاً ، اذا كان هذا اسم ابنها البكر . ان النساء لا يكتنّين ابداً باسماء بناتهن .

واسماء النساء لا تحذف من لغة المتخاطب فحسب ، بل لا تُذكر ابداً في الشعر العربي . فاذا اراد عاشق ان يتغنى بحبيبته فعليه ان يطلق عليها اسماً غير اسمها ، وان يشبهها بما أعتيد التشبيه به من الكائنات التي ترمز الى الرشاقة او النعومة او المرونة او اللطف .

وفي الاغاني العامية ، نفهم عند سماعنا هذه الكلمات : سمراء ، عيون سود ، قامة هيفاء ، ان المعنيّ بهذه الالفاظ هو امرأة . فهذه التعابير التي تردد غالباً يقصدون بها في الوقت نفسه رشأ من الغزلان او غير ذلك .

ان اجمل مقاطع الشعر هي تلك التي تجيش فيها العاطفة

بحرارة وتسمّى « نبوية » ، وان كانت غزلاً ، لانها موجهة الى النبي محمد ، الخليق وحده بهذا البيان الشعري الذي لا يستحقه أيّ هوى آخر .

وهنالك اولاد الفن في سوريا الذين يسلون الجماهير باقاصيصهم التي تدّخر منهـا ذاكرتهم الشيء الكثير فتشبع ، حين تروى انشاداً ، لذة عنيفة في القلوب . فهؤلاء المهرجون يغنون أحياناً اذا كانوا من ذوي الصوت الرخيم . ومن ميزة عبقريتهم الخاصة استنباط العبر حتى انهم يقومون بشبه محاورة لا يستعملون فيها إلا الامثال والحكم .

وعندما يضيق ذرع اولاد الفن، تعرض العاب الصغار فيشترك فيها الحاضرون جميعهم دون ما تمييز بين العمر والمقام . وهـذه هي صورة استطيع ان أؤيد فيها الفكرة التي سأتناولها فيما بعد عن اخلاق الاتراك المتناقضة ، لانهم ينتقلون بسرعة فائقة مـن وقارهم الطبيعي الى الالاعيب الصبيانية ...

الموسيقيون نادرون جداً في بيروت ، ومـن وقت الى آخر نرى بعضهم يقومون بجولة في الجبل ليمتعوا الاهالي بفنهم .

اني لا استطيع ان اشبع نهم القارىء حين اتحدث اليـه عن حالة الموسيقى في هذا البلد إلا اذا نقلت له ما كتبه رحالة مثقف توافرت لديه عدة عناصر مكنته من اصدار حكم صحيح عليهـا . فكلامه ، في اعتقادي ، وبدون اي مبالغـة ، يصورها لنا تصويراً صادقاً . فالموسيقى في الشرق مرّت في اطوار تختلف كل الاختلاف عن احوالها في ايامنا هذه . فعلينا اذن ان نعتقد ان هـذا الفن قد عانى من البلايا مـا عانته جميع الفنون الاخرى، ففوّضت

اسسها ومسخت انواعها ، قال :

« ان الموسيقى التوكية ، على الرغم من انها شبيهة بالموسيقى العربية ، لهي احسن تنسيقاً منها ، لاننا نجد فيها على الاقل بعض الايقاعات الموفقة الختام . فأحد الباشاوات ، وهو قائد عثماني مركزه الاسكندرية ، كان يتكرم عليّ بايفاد جوقته الموسيقية كل ستة ايام او ثمانية ، وهذا ما يمكنني من الحكم على الموسيقى عندهم لانني عرفتها بنفسي .

« ان جوقة صاحب الدولة تتألف من خمسة موسيقيين ومدير يرافقها دائماً . اما آلات العزف فأربع فقط ، وهي : السنطير الذي يُنقف ويضرب بقضبان صغيرة ، وقد نظمت أوتاره الوسطى بطريقة تؤدي بها اوتار الجهة الشمالية النغم الثامن موافقة لما تخرجه الجهة اليمنى .

« والكمنجة ، وهي مجهزة بستة اوتار تؤدي اربع درجات من السلم الموسيقي المعروف عندنا . ثم نوع من المزمار ذو نغم حلو يشبه البوق الانكليزي . واخيراً دفّان صغيران يخرجان ، كما هي الحالة في اوروبا ، النغم الخامس عوضاً عن النغم الرابع ، وهما يُنقران برفق باطراف الاصابع . اما الموسيقي الخامس فانه يغني فقط ولا ينقر أية آلة [1] .

« كلما اتتني هذه الفرقة كان يبدأ مديرها بعبارات المجاملات

[1] من ضروريات الموسيقى العربية ان يرافق الدف المغني . وازيد على ذلك ان كاتب هذا المقال اخطأ حين قال : ان الدف كان ينقر بالاصابع . انهم يستخدمون لهذه الغاية عيداناً دقيقة . — المعرب : وازيد انا ايضاً ان كليهما قد اصاب ، فالدف ينقر بالاصابع وغيرها ، فكل من الرحالتين قد وصف ما شاهد .

من قبل مولاه . اما الموسيقيون فكانوا يجلسون بشكل نصف دائرة على الارض وعلى رأسهم المدير .

« ان آلات الطرب كانت مصلّحة من قبل . ولدى اشارتي كانوا يبدأون بعزف مقطوعة متزنة الايقاع ، فتتبع احدى آلاتهم اللحن المطلوب . اما الاثنتان الاخريان فكانتا في هبوط متواصل ، تعزفان لحناً آخر . اما الدفّان فكانا يتوقفان . واذا اغتفرنا لهم بعض الخلل ، قلنا ان عزفهم كان جميلاً في بعض اقسامه . وبعد ذلك كانوا يبدأون بعزف لحن آخر فيشترك فيه الدفان الصغيران . وهنا كانت الاصوات وانغام الآلات الموسيقية تقوم بجهود خائبة المسعى ، فلا يطابق بعضها بعضاً ، فتدفع اذ ذاك اذناي المسكينتان اللتان تعودتا سماع موسيقى صحيحة ، ثمن المسرّات التي تنعّمت بها في اوروبا . وبعد مرور ربع ساعة على هذه الضوضاء المشوشة كان يتوقف الغناء وتظل الآلات تصدح . ثم يتوقف الدفان ليعودا الى نغم مماثل للاول . وعند انتهاء هذه المعزوفة كان الموسيقيون يؤدون لي تحيتهم ، وهكذا ينتهي المشهد الاول[٢] » .

عند حدوث بعض الظواهر الجوية ترى الشعب بأسره يضجّ ويصخب ، فاذا ما خسف القمر او كسفت الشمس ترى سكان البلاد جميعاً يصعدون الى سطوح منازلهم يقرعون أوانيهم النحاسية ، ويدقون الاجراس ، ويطلقون عياراتهم النارية ليفزعوا الحوت الذي يهدد الكوكب بالابتلاع .

ان الموسيقى الاكثر انتشاراً والاشد صخباً هي الموسيقى

٢ علي بك ، رحلة ، الجزء الثاني ، ص ١٩٧ .

المؤلفة من مزامير وطبول ضخمة . فهذه تُسمع في الافراح العامة ، والاعراس ، ومولد الصبيان ، وفي كل مناسبة يراد فيها اظهـار الفرح . اشار احد السائحين الى ان المسلمين لا يلجأون الى مثل هذه الموسيقى الصاخبة في جوامعهم ، ثم علق على ذلك بقوله : لعلهم كانوا يخافون ازعاج الاب الازلي [٣] .

والفنون الجميلة ، ولا سيا الشعر ، لم تُعر اهتماماً اكثر مما أعير الجنس اللطيف في هذه البلاد . فهنالك بعض نظّامين يعملون من وقت الى آخر قطعاً من الشعر يصفق لها الجهلة لان قوافيها واتساقاتها تستفزهم . وقد علمت ان هذه القصائد الاكثر تداولاً هي في الغالب ركيكة العبارة ، غير معربة ، لا تستطاع ترجمتها . مع ان اللغة العربية لغة شعرية يُستطاع النظم فيها باسلوب يسحر الالباب نظراً لفخامة تعابيرها وموسيقى الفاظها .

ان « المواويل » التي تُغنّى تجري جميعها على سياق واحد ، وكل مقطع منها يشبه الاغاني التي يرجع فيها الى اللازمة . وهي مفككة المعاني ولا ارتباط بينها .

قد نجد بعض الكتب العربية القديمة عند العلماء المعاصرين ، ولكنهم لم يقتنوها إلا ليتمتعوا بمظاهر العلم ليس اكثر . واعتقد اننا لا نجد في بيروت اكثر مـن شخصين يتمتعان بذوق علمي ، او كفاءة ثقافية ، ومن هنا نشأ جهل الحوادث التاريخية الاكثر تداولاً وبساطة .

ان الشيء الاكثر غرابةً وطرافةً هو الحدث الغريب في نظر

٣ علي بك ، رحلة ، الجزء الاول ، ص ٤٧ .

الرجل العـــادي ، ولهذا تراهم لا يدونون ، اذ يؤرخون ، إلا الحوادث التي رافقتها بعض الخوارق ، فهي ، وحدها ، تستحق ان تخلد للاجيال الآتية . ولذلك لا يجوز في نظر السوريين الحصفاء ان يكون الحادث البسيط، الذي لا يوحي شيئاً غريباً ، موضوعاً للمباحث الحاضرة والمقبلة .

# الفصل العاشر

اخلاق المسلمين . معجزات الروم . قدر . تعاليم دينية . تسول .

كتب قنصل فرنسي [1] في مؤلف غفل : ان الاتراك شعب يجتمع فيه النقيضان . وصوّرهم ترجمان [2] احترف مهنتنا تصويراً لم يترك مجالاً للرغبة في الاستزادة ، قال :

« ان اخلاق الاتراك في تناقض مستمر . انهم كلفون باللذات ، ومظهرهم عسكري فظ . قساة على انفسهم ، جفاة ، يعيشون عيشة رخوة ترفة . يرتجفون لاقل بادرة مشؤومة ، ويستصغرون الطوارىء الجلّى التي قد تحدث في الحياة . شجعان حتى التهور ، وجبناء حتى الضعف ، فخورون بانفسهم ومتغطرسون يزدرون كل شيء ، ووضعاء وسفلة اذلاء . بخلاء ومسرفون في وقت معاً ، رحماء وطغاة ، غالباً ما يزدرون حياة الانسان ، ثم يرون في اغاثة ابشع الحيوانات فضيلة دينية [3] . »

اجل ، اننا لا نزال نرى ، كما كان الامر في زمن كاتب هذا المقال ، بعض المتعبّدين الذين يوزّعون الخبز والاكباد على الكلاب والهررة .

١ دي بايسونيل .
٢ ش . ديجون ، وقد توفي في قبرص .
٣ اراء تاريخية في السلطنة العثمانية ، ص ٧٠ .

ويعزو أليوس عباسي Elios Abesci [4] كراهية بعض المسلمين لمبدأ افناء الحيوانات الى فلسفة فيثاغور، مع ان ذلك هو احد تعاليم القرآن .

اننا نجد عند شعوب الشرق عدداً كبيراً من المتناقضات الاخرى نلمسها عندما نقابل بين عرفنا وعاداتنا ، وعرفهم وعاداتهم .

على ان القارىء لا يلاحظ منها إلا ما تلفت غرابته النظر . ولكن، فليعلم ان هذه القاعدة يمكن تطبيقها بصورة عامة . وسأقدم عدداً لا يحصى من الادلة في سياق مشاهداتي ، واليكم منها الآن ما يتعلق بالرسميات .

عندما يريد شخص منهم ذو مكانة مرموقة ، القيام بزيارة ، عليه ان يتناول جبته ، التي يحملها خادمه تحت إبطه ، ليتسربل بها فوق ملابسه حين يدخل فيبدو اكثر ضخامة وتستراً ، بينما نحن نضع ، في مثل هذا المقام ، الرداء او البردوسه في الايوان .

انه يقوم ، عند دخوله ، بتحريك رجله ليخلع حذاءه ويتركه على الباب . اما نحن فنستعين بيدنا لنرفع قبعتنا ، ونحني رأسنا علامة الاحترام .

والشرقيون يستعملون عند الالتقاء الاول عبارات تبجيل وتعظيم مبتذلة لا طعم لها ، ثم لا يأتي ذكر الغرض من الزيارة إلا بعد القهوة . اما عند الاوروبيين فانه يبدأ تواً بموضوع

[4] ص ١٥٠ .

الزيارة . والاستعلامات الخاصة او العائلية لا تكون إلا بالنسبة للعلاقات القائمة بين الزائر والمزور .

لا يوقع الاتراك رسائلهم وسنداتهم وان كانوا يحسنون الكتابة . فالاسم يطبع على الرقعة ، وذاك شأنهم في الالقاب اذا توافرت لديهم . اما ما يثبت [٥] صحة وثائقهم فهو الخاتم [٦] . والسلطات هي التي تستعمل الخاتم بوجه خاص ، وبه تكتسب كتاباتها الصفة الرسمية . ان بعض الخاصة من الاتراك يكتفون بوضع اسمائهم واسماء عائلتهم ، اذ يرون في استعمال الخاتم مظهراً من مظاهر الادعاء .

وبما ان الشرق لا يحسن إلا قليلاً استعمال اسماء العَلَم ، فقد نتجت عن ذلك عدة اخطاء واختلاطات . فالاسماء المتشابهة كثيرة جداً . وهذا ما حملهم على استعمال اسماء عديدة تكاد تكون اسماء ذرية بكاملها .

يتميز الكثير من الشرقيين باسماء مهنتهم . وكثيراً ما تكون تلك الاسماء سمجة . لا يستقبح في الشرق ، مثلاً ، ان ينتسب احدهم الى اعور او كسيح او احدب او مقطوع اليد . وفي اكثر الاحيان ، يضيفون اسم الاب الى اسمهم الخاص ، وهذا ما يطبق في كثير من البلدان حتى الاوروبية منها ، وعندئذ يكون

٥ ان الخاتم والكتابة لا يكسبان التعهدات صفة قانونية ، ولكنها شهادة الملفين هي التي تجعل للعقد صفته الرسمية الشرعية .

٦ ان طغراءات العرب هي بالحقيقة ما نسميه نحن اختاماً ، وهي تثبت صحة الامضاءات ، وتستخدم ايضاً عند جهل الكتابة . ويعزى اختراعهـا الى أهالي سبارطة ( دائرة العلوم والمعارف ، الجزء الاول ، ص ١٨٥ ) .

علي هو ابن حسن ...

أوَهَلْ يقال ان الشعب المتأخر هو وحده ذو الاعتقادات الباطلة ؟ ان الرجال الذين حرموا الثقافة لا همّ لهم إلا اقتفاء آثار غيرهم . فليس الذنب ، إذن ، ذنب هؤلاء ، ولكنّ المسؤولين عنهم ، اي كبارهم ، هم المذنبون ، فهم الذين يرسّخون في أذهانهم هذه الاوهام والنقائص .

ترى ، هل الشعب الساذج هو الذي يؤلف تلك الحلقات التي يردد فيها الرجال ، وهم وقوف بشكل دائرة ، كلمة : الله ! الله ! ويظلون يفعلون ذلك حتى تتلاشى قواهم وتختنق أصواتهم ، ثم يستأنفون العمل بانغام موقعة على انحناءات الجسم ، ذات اليمين وذات الشمال ، والخلف والأمام ، مرددين غناء الشيخ الواقف خارج الحلقة ؟ وعندما يغادر المدينة درويش ، اشتهر بالتقوى ، ليقوم بزيارة احد المزارات في الضواحي – وعند المسلمين اماكن عبادة في اكثر النواحي – نرى الشعب يسارع الى لقياه ليرتمي تحت نعال فرسه حائلاً بينه وبين وطء الارض ، فيمر على اجساد هؤلاء المؤمنين الذين يتقبلون البركة من اطراف قوائم الحيوان الاربع .

ان اشراف المسلمين يدعون ايضاً صغارهم للتهافت على هؤلاء الشيوخ لانهم يرغبون هم ايضاً في الاستفادة من المناسبات المؤاتية .

اني لم احاول معرفة المقدار الذي تحتله الشعوذة في هذه الانواع من المعجزات . ولكن يجب ألا نعزو كل شيء الى التعصب . ومع ذلك فلم تكن تهمني معرفة الاساليب التي تتبع في تمثيل هذه المهزلة .

رغبتُ في ان اشاهد معجزة كانت تحدث كل عام في دير للروم قرب طرابلس . إلا اني عندما علمت انها ناتجة عن تفاعل اشعة الشمس ، التي كانت تنفذ من ثقب طاقة مغلقة الى الكنيسة الشديدة الظلام ، احببت ان ابين ذلك للذين كانوا يعتقدون بأني سأرجع عن ضلالي واهتدي الى دينهم القويم فور رؤيتها . إلا ان ذلك كله لم يجدني نفعاً ، فكل ما قلته لهم قد جعلني في اعينهم اشد الحاداً وكفراً .

ان القسم النفساني في الديانة المحمدية المتعلق بالرضوخ لاحكام العناية هو جدير حقاً باعجاب الفيلسوف . فتسليمهم لمشيئة الله يبدو بوجه خاص في أجلى مظاهره حين انتشار وباء الطاعون ، فهم لا يتزحزحون ، بل يثبتون في وجه الخطر الذي يهددهم مهما يكن عدد ضحايا هذه الكارثة .

أنبأني مسلم اعرفه ان عائلته كلها اصيبت بهذا الوباء . وعندما طلبتُ اليه ان يحتاط للامر، أجاب : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . ثم عاد الى منزله ولم يبرحه بعد ذلك ، كأنّ هذا الانقطاع هو اتقاء الخطر .

أوليس بامكاننا ان نعزو هذا الانقياد الاعمى او هذه اللامبالاة الى الجهل اكثر منها للتقوى ؟ انه يجب علينا ايضاً ان نتهم المخيلة التي تعمل عملها الخطير في هذا المضمار ، فاننا لا نخشى خطراً نجهله .

ان الشواهد المتعددة على الاشخاص الذين ينجون من الطاعون رغم توافر عناصر العدوى التي تعرضهم له ، والشواهد الاخرى على عدد كبير من الرجال لم يموتوا بعد ان اصيبوا بـه ، هي التي

مكنت في مخيلتهم الاعتقاد بالقدر ، هذا الاعتقاد الذي جعل الجهل جذوره راسخة في النفوس ، ثم عمل باستمرار في تقويتها . ولا ننس ما في طبيعة الرجل العامي من الميل الى تجسيم ما يكون صغيراً بمجد ذاته وتكبيره .

قال دوسون : « ان فكرة القدر ترتكز عند المسلمين على ثلاث دعائم : ١ – ان الاصطفاء لا يتناول إلا الحالة الروحية ، ٢ – انه لا ينطبق على جميع الجنس البشري ، بل على فئة خاصة من القانتين المصطفين ، حتى من قَبْل ولادتهم ، ليكونوا في طبقة المختارين او المرذولين ، ٣ – انه لا علاقة له بالطبقة الاخلاقية والمدنية والسياسية ، فالرجل ، وفقاً لمبادىء هذه الديانة ، لا يحرم في اي تصرف من تصرفاته ، من ارادته المطلقة [٧] . »

ليس مسلمو سوريا ملحدين كالاتراك ، فهؤلاء لم تتوافر لهم اساليب التنوير نفسها لان جميع المؤلفات الدينية مكتوبة بالعربية . ومن الجائز ان يكون الاتراك مفتقرين الى قوة الارادة ايضاً . فعدم مبالاة الاتراك باعتقاد عرفوه مستحيلاً ، واعتناقهم مذهباً لم تتضخم فيه الاعتقادات الباطلة جعلهم يمشون أولى خطواتهم نحو الحضارة . لم يبالوا بتحريم الخمرة فشربوها واكثروا من شربها . وها هم يفرّقون بين الشرب على الطريقة التركية والطريقة الفرنسية المعتدلة .

حكي عن شخصين كانا يتحدثان في مقهى عن تفوق الاوروبيين على الشرقيين . ولما كانا يحاولان اكتشاف ذلك ، قال احدهم

٧ مشهد عام عن السلطنة العثمانية ، ج ١ ، ص ١٦٧ .

للاخر : أوتعلم كيف يتلقن الفرنسيون العلم ؟.. بان يشربوا كثيراً .

فأجاب الثاني : ها ، ها ! اذن ما علينا إلا ان نقتفي آثارهم . اشرب . ثكلتك امك ! لنكن علماء .

وحاول شريفٌ نيل قسط وافر من الثقافـــة ، فشرب حتى سكر . ولما رآه احد اصدقائه على تلك الحال ، قال له : انه لمن قلة الادب والحشمة ان تظهر بهذا المظهر بين الناس .

— اني اسير على الطريقة الافرنسية ! نعم ، الطريقة الافرنسية ! وليس لاحد ان يقول لي شيئاً .

ان اوهاماً كثيرة عند العرب قد خلقتها عقلية الشيوخ المحشوة بالمغالطات . ومن هذه الاوهام الزعم بتأدية الحساب في الآخرة . وقد فتشتُ عن اساس لها في الدين ، فلم اجد . قال لي مسلم غني انه يرجو خيراً كثيراً في العالم الآخر ، لانه لاقى كثيراً من الاذى في هذا العالم . ولذلك يترجّى ان يعتاض عنهـــا بملذات سماوية في العالم الثاني .

وبناء على هذا المعتقد ، لا يتردد المسلمون في خدع ادارات الحكومة التي يعتبرون انها أسست بصورة غير إشرعية ، كما انهم يرون دواوين الجمارك ، عـــلى الاخص ، مؤسسة بربرية . فكأنهم يتفقون في هـــذا مع بعض مؤلفي علم الاخلاق والاقتصاد ، في اوروبا المتنوّرة ، الذين لا يشجبون اعمال التهريب وحسب ، بل يرون في المهربين اشخاصاً يعملون للعمران العام [8] ، ولا يرون

[8] ساي ، بحث في علم الاقتصاد العام ، الطبعة الثانية ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

معاقبتهم عدلاً لانهم يعملون عملا بريئا بحد ذاته .

وعلى رغم المشقات التي يكابدها السوريون للحصول على القوت الضروري ، فانهم يعدّون العدّة لصوم رمضان ، والقيام بالحج ، ناهيك بالصلاة التي يقومون بها على أكمل وجه .

صحيح ان ذوي الغنى واليسار يوزعون صدقات جمة خلال هذا الشهر الذي يتقشفون فيه . إلا انه يجب ان أعيد القول ان أعطيات سكان بيروت ، المفرطين في التقتير ، لا تتناسب والحاجة التي يشعر بها الناس في هذا الشهر المكرم .

اما فيما يتعلق بالحج الى مكة فالذين لا يمكنهم الحج ركوباً يحجّون مشياً على الاقدام . انهم لا يحرمون وسيلة لتأدية هذا الفرض ، فاما ان يعملوا في تمهيد الطرقات ، او في سياسة مطايا الحجاج وخيولهم ، او في نوع آخر من العمل كخدمة الحجّاج مثلاً .

والسوريون ، نظراً لجهالتهم وقصر نظرهم ، يقومون بالحج دون اي هاجس او صعوبة ، حتى اذا لم يحل حادث بينهم وبين العودة ، وهذا قليلاً ما يحدث ، فانه يخيل اليهم انهم رجعوا من بلد غير بعيد . وهذا كل شيء .

وعلى الرغم من ان كتاب « جيل بلاس » لم يترجم الى العربية فان متسوّلي هذه البلدان يحسنون كل ضروب حيل التسوّل * . فهؤلاء الشياطين المساكين يتركون غالباً بعد موتهم اكثر مما

* يظهر ان المؤلف لم يسمع بما كتبه الجاحظ عن حيل هؤلاء ، قبل « لوساج » في « جيل بلاس » وغيره . — المعرب .

يتركه بعض الاشخاص الذين يعدون من طبقة الاغنياء . امـا كيفية ظهور هؤلاء الشحاذين فهي فن قائم برأسه .

حكي عن احد هؤلاء المتسولين ، وقـد كان ضريراً تـدل مظاهره على فقر مدقع ، انه حفظ طائفة من العبارات المؤثرة ، فكان يلقيها دائماً في آذان المارة لترقّ قلوبهم ويتحننوا عليه .

كان يقف للنـاس في اماكن معلومة ، في احسن مواقع المدينة ، حتى اذا ما هدأت الرجل أخذ يتمشى في الشوارع وفي يده سبحته . وحامت حوله الشكوك فبُحث عنه ، فعُلم عنه انه في غنى عن التسوّل ، ولكن هي العادة تحتل عند مثل هؤلاء مكانة كبيرة فيجعلون منها طبيعة خامسة . وهم يشبهون الشحاذة بالكيمياء [٩] .

وكان هنالك شخص ، يراقب هذا الشحاذ الطاعن في السن ، فعرف انه يضع كنزه في عمامته ، فتحين فرصة يكون فيها وحده في منعطف الشارع لينتزع عن رأسه تلك العمامـة . وكم كانت دهشته عظيمة عندما وجد فيها زهاء خمسة آلاف قرش .

بكى الشحاذ الضرير وظل يعوي حتى يئس من معرفة مغتصبه ، لان احداً لم يره . ورأى السارق تفجع المتسول ، بعد مضي وقت قليل ، فرقّ لحالته ، واشترى له قطعاً من الحلوى الرخيصة ، وقدمها اليه قائلا له : كلْ ، يا صاحبي ، فانها تعينك وتقويك .

وادرك الضرير من الرائحة التي تصاعدت الى منخريه أن هنالك اكلا شهياً ، فذاب شكراً وامتناناً لمن أحسن اليه .

٩ مثل عربي : ان الكيمياء هي عند العرب اسمى العلوم .

وشرع يأكل . ولكنه انتفض بعد مضغات قليلة ، وامسك بالرجل صارخاً : « الى السارق ! ليوقف السارق ! هذا هو الذي سلبني مقتناي . »

فتراكضت الجماهير على الصراخ ، وسألوا الضرير كيف عرف هذا الشخص ، فأجابهم : لم يخامرني أقلّ ريب في انه هو الذي سرقني ، لاني وجدت صعوبة في ابتلاع هذه الحلوى التي أشتريت بمالي ...

يحتج المسلمون للبخل والبخلاء بالكلمة القائلة : ان النعمة التي يمنّ الله بها عليهم ليست لهم ، فما هم سوى مؤتمنين عليها .

# الفصل الحادى عشر

## عادات المسيحين.

قلت في الفصل السابع ان المسيحيين اتبعوا عادة الاوربيين في احياء السهرات ، كما اقتبسوا منهم عادة القيام بالزيارات دون ان تُشرك النساء بهذه الاعمال المؤنسة الا اذا كنّ من اقارب الزائرين او بين ازواجهن إلفة شديدة . ان هـذه الضروب من اللياقة ترتكز على المبادلة فحسب .

اما المسلمون فيخبئون نساءهم لان القرآن جعل لهم من ذلك سنة . والمسيحيون قد يأتون ذلك تقليداً لهم ، لان عاداتهم هي بالواقع شبيهة بعادات المسلمين . ان للنصارى اوهامهم وتعصبهم ، وان كانوا ذوي كفاءة في العلوم التي يظهرون فيها تفوقاً . وقد لمست هذا التفوق في الاعمال الفكرية ، ولاسيما الحسابيـة منها ، بوجه خاص . ويظهر لي ان المسلمين لم يخلقوا لهذه العلوم . ولهذا نرى المسيحيين يشغلون مراكز امناء السر ، والمفوضين ، وامناء الصناديق .

ان الاسرائيليين دللوا على الاسبقية في علم الاقتصاد ، وقليل هم الباشوات الذين لم ينتقوا صيارفتهم من الطائفة الموسوية .

وعلى الرغم من ان الكتب هي نادرة الوجود في الشرق ، فالمسيحيون يملكون الكثير منها ، فيتعلمون دروساً نافعة ، فتسمو

اخلاقهم .

والمسيحيون مدينون بثقافتهم الى مخالطة الاوروبيين ، ولاسيما المرسلين الذين يقيمون بينهم ، ويزورونهم بصورة منظمة .

وتواريخ سوريا تنبئنا ان مسيحيين كثيرين مثلوا دوراً هاماً في الحقل السياسي . وهذا يجب ان لا يُدهش في بلاد كل شيء فيها متأثر بالرشوة . ولكن التاريخ يعلمنا ايضاً ان هؤلاء الرجالات لم يكن لهم من العمر الا ما يكون للشهاب ، تاركين لعائلاتهم الذكريات المؤلمة .

ان موقف المسيحيين هو من اتعس المواقف في تركيا على الرغم من التحسينات التي شعروا بها بعد اعمال الاصلاح التي قام بها السلطان محمود ، والتي اكملها السلطان الحالي ، وذلك لانهم يفتقرون الى زعيم يلجأون اليه ويحتمون به .

ان افتقار الناس الى ظهير ونصير في هذه البلاد قد حملهم على السعي الحثيث وراء نيل الحمايات الاوروبية . وهكذا ، فان اجمل حلم يمكن ان يتصوره عربي هو الاحتماء في ظل احد القناصل .

ولكن قليلون هم من يرغبون في ذلك ، رغم الرغبة المتبادلة التي تظهر عند ملتمسي الحماية والسلطات الحامية الراغبة في تنمية عدد هؤلاء . فالسلطة التركية ، التي لا تتنازل الا مكرهة عما لها من حقوق على رعاياها ، تخلق ما تستطيع من العراقيل لتحول دون منح الحماية الاجنبية .

فاول امتياز يحصل عليه الجباة المشمولون بالحماية هو ان يُعفوا من دفع الضرائب ، مع انه يجب ألا يستفيدوا الا من الاجراءات التي تكفل لهم حرمتهم دون ان تلحق ضرراً بالخزينة . ان الحماية لازمة اذا

كان القصد منها دفع الظلم والجور .

اننا لا نفهم الدافع الذي حمل على اعتبار من هم في خدمة القناصل والتجار الاوروبيين غير خاضعين لمحاكم سلطتهم ، ما لم نعرف اولاً هذه البلاد معرفة دقيقة . كان ينبغي تجريد هذه السلطة من كل حق في ملاحقة من تعودت ان تعاملهم بقسوة بربرية . وهذه الامور كان يمكن تغييرها لو عدلت الدول عن الامتيازات المكتسبة بقوة المعاهدات والعرف ، واعلنت وجوب تمتع تركيا بالحقوق التي تتمتع بها بقية الشعوب في البلدان الاخرى . ولكن هذا يؤدي الى تقوّض التجارة الاوروبية في سوريا ، فهي لا يسعها الاستغناء عن العمال المسيحيين ، ابناء البلاد ، كما انها لا تجني منهم نفعاً مجدياً اذا لم ينعموا بالعصمة القديمة نفسها . وهكذا يصح قول المثل : السلطة تصيب التاجر اذا ما ضربت السمسار .

# الفصل الثاني عشر

عادات المسيحيين ايضاً . انها تختلف قليلاً عن عادات المسلمين . ملابس النساء . اتباع العادات الشرقية . اوهام . تقتير . جدل اثناء الاكل . غنى عام . الولع بالبناء . الاعراس .

يدهش الاجنبي الذي يزور سوريا اشد الدهشة عندما يلاحظ ان المسيحيين ( الرجال منهم ) لا يختلفون عن الاتراك الا بملابسهم الاشد سواداً من ملابس اولئك . ذلك بان النساء عند كلا الجانبين يرتدين ثياباً لا اثر للتأنق فيها او الهندام . ان جسدهن يلفه نوع من الملاءة ، ووجهن يغطيه منديل عملاً بالاية : « يا ايها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى ان يعرفن فلا يؤذين . — سورة الاحزاب، آية ٥٩ . »

ثم ان الكشف عن قدم جميلة محرمٌ على نساء الشرق . فعليهن ان ينتعلن جزمات عريضة او بوابيج مستديرة الشكل . وهذا ما يُضطرهن الى الاستعانة بخرق عتيقة يلففنها حول القدم ليستطعن بها سد فم المستيك ( خف بدون نعل ) واحكام البوابيج ( سندال ) في اقدامهن .

ويلاحظ ان النساء يتجهزن بما هنّ في حاجة اليه دون ان يلجأن الى الاسكافي ليأخذ القياسات المختصة بارجلهن . واظن ان

الاتساعات المختلفة التي تفرضها مراحل العمر، في اطواره المتعددة، غير موجودة ايضاً. انها بعد ان تنمو نمواً كاملاً، تخضع للقياس عينه، سواء أكانت سمينة ام رقيقة، طويلة ام قصيرة. ان الدين الاسلامي يعفيهن، كما نرى، من سجن احذية الاسكافي.

اما المسيحيون، فيبدو انهم اقتبسوا عاداتهم عن كتبنا المقدسة ايضاً، وهي العادات التي ترجع عندنا وعند المسلمين الى اصل عبراني: حجر النساء، فصلهن عن الرجال في المعابد، اجبارهن على البقاء محجبات.

اصبحت هذه العادات فرضاً على جميع النساء اللواتي يسكن هذا البلد، حتى ان الافرنسيات اللواتي ولدن في سوريا، وكن مجبرات على التقيد بهذا العرف، أضطررن الى اتباعه، ولكن ضمن نطاق محدود، وفي علاقاتهن مع ابناء هذه البلاد الذين يعدّون كل مخالفة لعاداتهم خزياً وعاراً. فكل من يظهر امامهم بغير المظهر الذي اوجبته عاداتهم يرتكب جريمة بخروجه على قواعد الآداب واللياقة.

أفلا نشمئز نحن في اوروبا ممن يخرج على دائرة تقاليدنا؟ اننا نترك هذا الاثر نفسه في نفوس المسلمين، بل اشد منه كثيراً، لان الشريعة الدينية هي التي نظمت كل شيء عندهم، فكل اذاة تلحق باحد احكامها تصبح جرماً فظيعاً ومدنساً لِقدسيّاتها.

وبناء على هذا، اراني لا استنكر ابداً اعمال نسائنا اللواتي يجدن انه من اللياقة ان يرتدين ملابسهن على الطريقة الشرقية، او يتبعن بعض العادات المحلية، ولكني لا ارتضي ابداً ان تتشرب نساؤنا المتمشرقات هذه الاوهام التي لا تحصى، اذ يستحيل عليهن

ان يحافظن ، بعد ذاك ، على تقاليد حضارتنا الاوروبية .

ان الاوهام كثيرة الانتشار في سوريا . وبما ان البيروتيين ليسوا بالشعب الاشد ذكاء من غيره في هذه الولاية ، فقد تأصلت هذه الاوهام في عقولهم بسهولة فائقة . فمن اوهامهم وخرافاتهم مثلاً : اذا اردنا ان تصل رسائلنا الى اصحابها يجب علينا ان نرميها على الارض ، لا ان نسلمها يداً بيد الى ساعي البريد او الرسول . واذا قطعنا جزءاً من طرف ورقة السند فهذا يعني اننا ننوي الايفاء كاملاً . واذا شئنا ان نسر شخصاً بان نهدي اليه منديلاً فلا بد من ان نمزق ، ولو قليلاً جداً ، احد اطرافه . ولكن هذه الخرافة لفظت انفاسها الاخيرة لما صار تطريز حواشي المنديل علامة التكريم والترف .

اما اذا اراد شخص ان يكتب اليك وينبئك بحرج موقفه ، او الخطر الذي يحدق به ، فانه يحرق احد اطراف الرسالة قبل ارسالها .

والبيروتيون يحتلون المكانة الاولى بالتقتير على انفسهم في جميع ضروب المعيشة . إلا اني بعد ان تعرفت باهالي حلب اقول ، اعترافاً بالحقيقة ، ان سكان بيروت يتخلون لهؤلاء عن الاولية ...

ان سكان بيروت يضيفون ، بصورة متصلة ، ابناء الجبل ورجالات الاساكل الذين تجتذبهم اعمالهم التجارية الى مدينتهم ، لان الاهلين في الشرق هم الذين يهتمون بايواء من يأتي راكباً او على الاقدام بناءً على كتاب توصية يقدمه . وهذا ما يتعب ويدعو الى النفقات مهما تكن منزلة الشخص . وهكذا نجد في كل بيت تقريباً عدة أسرّة معدة للنزلاء .

اما ما يلام عليه البيروتيون فهو انهم يحاولون ان يجعلوا من البخل فضيلة . فأطيب الاحاديث على موائدهم هو التحدث عن منافع الاقلال في الاكل . وهم ينتهزون فرصة الجلوس حول المائدة ليفيضوا في التكلم عنها مع ضيوفهم ، حتى اذا كان هؤلاء من ذوي القابلية العنيفة يشعرون في الحال ان الاقلال من الطعام واجب ونافع . وقد يتحدث صاحب الدار عن الضائقة الآخذة بالخناق ، ويأخذ بالتشكي والتأوه ، ثم يبالغ في شكواه ليدل على قيمة كل لون من الوان الطعام ، لا بل على ثمن كل لقمة ، وكأنه يقول لمؤاكله : « ان اللقمة التي تضعها في فمك تعود عليّ بكذا بارات ! »

وعندما لا تسفر هذه الطرق عن النتائج الطيبة فصاحب الدار ، الذي يمكنه ان يعتمد اساليب اخرى ، يسأل ضيفه عن نوع العلة التي مات بها ابوه او امه . انه يعلم ان الذكرى المؤلمة ، والانقباض الذي يشعر به وهو يروي الحوادث التي استبقت هذه الخسارة القاسية ، يحدّان غالباً من نشاط قابليته اذا كان نهماً . وقد احسّ احد الظرفاء بهذه الشراك المنصوبة له فأجاب بسرعة : « بالموت الفجائي ! »

ويروى ان احد هؤلاء البخلاء الفطاحل دعا سائحاً اجنبياً الى تناول الغداء على مائدته . وبحجة تأخر اعداد المائدة لسبب طارىء غير منتظر ، سأله الخروج الى الحديقة حيث يستنشق الهواء النقي . وهنالك أغراه منظر الثمر على الشجر ، فدعاه الى اكل التين الاخضر الشهي .

وبسرعة الشهب استيقظت قابلية الضيف الذي كان لا يزال

جائعاً على الرغم من انها الساعة الثانية بعد الظهر ، فلبى الدعوة فوراً . ولما كان نهمه يتطلب إشباعاً سريعاً فقد ابتدأ يستثمر شجرة التين دون ان تستوقفه قشور ثمارها ، غير مميز بين الناضج والفج . وكان ذاك البخيل يلاحظ ذلك متهللاً ، شاعراً بسرور عظيم ، وهو يفكر بكمية الطعام التي يوفرها . ومع ذلك فانه لم يشأ ان يستعجل الامور ، فترك الرجل على هواه ، وغمز ابنه ليظل مرافقاً له ، ولا يدعوه الى المائدة إلا عندما يبدأ بتقشير الاثمار ، لانه يكون قد شبع ، فتأمن السفرة شره ...

لست ادري اذا كان مسيحيو بيروت يميلون الى الاعتقاد القائل بوجود « تعويض » في العالم الآخر . الا اني اعرف رأي الكثيرين منهم في ضروب المكر والغش والخداع ، وهم يسمون هذا دهاء ولباقة .

والعرب يرون ان المامهم من كل فن بطرف يدل على وفرة معارفهم وسعة اطلاعهم . اما ما عرفوه حقاً ونبغوا فيه فهو انصرافهم الى صيانة ثرواتهم التي لم تتعرض لخطر ما ، منذ عشرات السنين . فمدينة بيروت كانت مسرحاً لبعض الحوادث التي الحقت ضرراً كبيراً بالاهالي . بيد انها ادت خدمات جلّى الى التجار الذين احسنوا الاستفادة من الظروف في الامكنة التي يبيعون فيها ويشترون .

واستطيع القول ، بعد ان رأيت ما رأيت من السعة التي ظهرت في اسكلة بيروت ، عندما ازدهرت فيها الاعمال التجارية ، انها ، بوجه نسبي ، اكثر ثراء من دمشق وحلب . اننا لا نجد اليوم شخصا بيروتياً مرموقاً لا يملك ، على الاقل ، بيتاً في الجبل .

وفي هذه الابنية التي تغمرها غالباً روح الفخفخة اكثر من الذوق السليم ، تدفن معظم الثروات . ان حب البناء هو بصورة عامة داء معدٍ عند الشرقيين . انهم يحرمون بذلك انفسهم من رأس مال يدر عليهم ارباحاً وافرة لو بقي في صناديقهم ، ويساعدهم على توسيع دائرة اعمالهم دون ان يضطروا في الساعات الحرجة ، وهم معرضون لذلك كثيراً ، الى الاستدانة المهلكة بفائدة اربعة او خمسة بالمائة عن كل شهر .

ان البيروتيين شعب مسالم هادىء ، ومع ذلك لا يستنكرون الاغتياب والنميمة . واذا حصلت منازعات ما بسبب هذه الوشايات فان الاصدقاء المخلصين او الكهنة يتدخلون حالاً . وهكذا يسود الامن وتعود السلامة الى مستقرها . والعرب في كل حال ليسوا بحقودين . واننا نستطيع القول إن اخلاقهم لا تزال تحافظ على شيء من بساطتهم وطهارتهم الفطرية .

ان حفلات الزواج المسيحية تختلف في بعض الامور عن الاحتفال به عند المسلمين . فعند تحرك الموكب الذي جاء لاخذ العروس[1] ، تأخذ هذه تظهر الاحجام عن الذهاب ، ويأخذون هم في استعطافها لتمشي وتسرع ، اما هي فتصر على الابطاء ، فيتدخل الاقارب والاصدقاء ، والاشبين والاشبينة ( شاهدا الزواج ) بنوع خاص ، فتستجيب لطلباتهم الملحة ، وتتقدم خطوات ، ولكن لتعود

١ يؤتى بالعروس ، وهي في ثوبها الاكثر بساطة بعد ان يفتش عنها في احدى زوايا البيت . واذا لم تتصرف هكذا قيل انها مسرورة لفراق اهلها . ان الزخرف الوحيد الذي يضاف الى بذلتها المهلة هو منديل احمر مزين بخيوط القصب الذهبية . وهذا لا بد منه في هذا المقام .

الى ذلك بعد هنيبة . وهكذا تتجدد وتتكرر هذه الخطة الحربية مراراً ... ومتى بلغت بيت العريس وأدخلت اليه ، تجلس على منصة ـ صندوق او ما يوازيه علواً ـ غاضة طرفها . انها تجمد كالصنم لا تتحرك ، وعلى الزوج ان يطعمها ، فيملأ الملعقة ويقدمها لها . اما هي فلا تفتح فمها إلا بعد الف رجاء . ان التوسلات الحادة تتصاعد من افواه جميع الحاضرين . ولما كان لا يليق بالعروس ان تتكلم ، فانها تقابل هذه الاحاديث اللطيفة التي تدور حولها بصمت ثابت الجأش . واذا أضطرت للجواب فانها تميل برأسها الى الوراء لتقول لا ، وتوجهه الى الامام لتقول نعم .

ان مشغلة الزوجة العظمى هي ان تقبل ايدي جميع الذين يدخلون البيت الذي تكون فيه مع المدعوين . واذا خرج احد هؤلاء وعاد بعد قليل فتقبيل يده واجب ايضاً . اما اذا كان الداخل زوجها فان القبلات تكون اوسع نطاقاً .

اما عند الارمن فالزوج عندما يقدم الى امرأته ، بعد ان يقتبل بركة الزواج ، فانه يرفع الحجاب الاحمر الذي يغطيها بحد السيف الذي يسلمه اياه الكاهن ، بعد ان يكون قد وضعه بين العروسين خلال الاحتفال الديني لمباركة عقد زواجهما .

ان العروس لا تلبس ثيابها ولا تتزين إلا في بيت عريسها ، وذلك قبل ان تتقدم الى الكاهن . وقد نسيت ان اقول : انه من الشائن ان يحضر الشاب العريس الاستعدادات التي يقام بها لحفلة عرسه ، بل عليه ان يختبىء برصانة ودهاء فلا يعثر عليه إلا بعد مشقة وعناء .

# الفصل الثالث عشر

السلطات التركية . مبادئها وانظمة العدالة . مساوىء الادارة .

ان قوام سلطات بيروت المتسلّم ، والقاضي ، والمفتي ، هذا اذا لم تدغم هاتان الوظيفتان الاخيرتان ، ثم مأمور جمارك ، وهو غالباً مسيحي ومن العوام . اما الرسوم المترتبة على دخول البضائع وخروجها ، وعائدات الدولة الاخرى ، فتضمن كلها كما سبق القول عنها في الفصل السادس .

وهنالك ايضاً ادارة صحية يرأسها مدير مسلم . ان كل هذه المؤسسات العامة التي يديرهـــا مأمورو الحكومة او الخاصة من الناس تتبع في منهاج اعمالها مبدأ واحداً . انها تتبع الطريقة القديمة التي حوّرت بعض وجوهها ، ولكنها لا تزال تطبق ولو بصورة خفية على الاقل ، فالرشوة والظلم هما دائماً دعامتها . واذا كانوا لا يحاولون الا مراعاة الظواهر فلأن السلطات العليا تبدي رغبتها في التمسك بالاصلاحات التي اقرتها البلاد . ان الباشوات هم ايضاً محافظون من الطراز الاول ، فلا يأبهون للشريعة ، بل يتجاوزون حدودها على اوسع نطاق ممكن .

انه يصح القول هنا ان مصير اهالي سوريا قد تحسن قليلاً في بعض الاماكن وعند بعض الاشخاص . لقد كان ذاك المصير مشؤوماً في ظل النظام القديم ، ثم اصبــح اشد شؤماً ايام

المصريين . إلا ان عودة العثمانيين خففت قليلاً من حدته .

وفي الزمن الذي كان يُحكم فيه باسم محمد علي ، كان يصح الاستشهاد بهذا المقطع من « الاطلال »[1] الذي يصور ذلك العصر :

« لقد نهب الآغا الفلاح ، وهكذا تضاءلت المزروعات . ان الزارع لم يستطع ان يلقي البذار لانه حرم التسليف . داهمته الضريبة ولم يتمكن من دفعها ، فاستدان لانه هُدد بالعصا . والمال كان مخفياً نظراً لفقد الثقة . كانت الفائدة فاحشة ، وهكذا زادت مراباة الاغنياء في بؤس العامل .

« تضاف الى ذلك تقلبات الفصول والجفاف البالغ الحد ، فحالت دون نضوج الاغلال . ان الحكومة لم تمنح اية مهلة لدفع الضريبة او الاعفاء منها . وهكذا فان قسماً من الاهلين فروا الى المدن عندما اناخت الفاقة على القرية . فالتكاليف التي ألقيت على عاتق الذين لا يزالون يقطنونها زادت في طينة بؤسهم بلة ، فاقفرت البلاد .

« وحدث ان تآمرت القرى عندما أشبعت ظلماً وهواناً . فسر الباشا بذلك ، فحاربهم : هاجم منازلهم ونهب منقولاتهم ومواشيهم ، اما الارض فظلت مقفرة . فاتى باناس يفلحونها على حسابه الخاص لانه لا يشاء مغادرة سوريا . »

لقد عرف السيد ميشو ، عندما زار مصر ، حقوق التملك في هذه البلاد معرفة صحيحة ، فكان يقول :

« ما قيمة الملكية العقارية في ظل الحكومات المستبدة التي

١ فولني ، الاطلال ، الطبعة الخامسة ، ص ٧٤ .

تستطيع ، عندما تشاء وكيفما تشاء ، ان تغتصب الاراضي . ان الارض لهي ملك من يستطيع ان يسألها عما تنتج ، واكثر مما تنتج [2] » .

قيل ان المصريين قاموا كثيراً بحراثة الاراضي البور وغرسها في سوريا ، ولكن لحسابهم الخاص ، بعد ان انتزعوها من مالكيها الحقيقيين . كانوا يدمرون القرى الخاصة ليبنوا اخرى تكون بكاملها لهم . فطريقة تعديهم المتجاوزة الحد كانت ترمي الى ان تجعل من سوريا مصر ثانية لها ، ولا يمكن تأويل تلك القساوة وهذه الاساليب التي أتبعت إلا بالرغبة في الوصول حالاً الى هذه النتيجة : امتلاك سوريا امتلاكاً تاماً .

والذين كانوا يقطنون سوريا ، يوم كانت تُحكم بصورة تعارض مصالح محمد علي ورغباته وامانيه ، يعلمون ان هذا الكلام غير مبالغ فيه . ويمكننا هنا ان نضيف بعض خطوط تزيد هذا المشهد تعاسة . فقد كلفوا المقيمين ان يدفعوا ضرائب المهاجرين ، فأحرجوا موقف الكثيرين من الفلاحين المسلمين والنصيريين ، فأضطروا اخيراً الى بيع بناتهم ليخرجوا من هذا المأزق الحرج . وقام المصريون بهذه الاعمال وفقاً للمبدإ السياسي التركي القائل بوجوب ارهاق الشعب لانهم على يقين بانه لن يجرؤ على الاستغاثة بصوت عالٍ ، او على الاقل لانه من الصعب او من المستحيل ان تبلغ صرخاته آذان السلطان [3] .

كانت الحكومة تلاحق بشدة وعنف مبذري اموالها الخاصة ،

٢ رسائل شرقية ، الجزء السابع ، ص ٦٦ .
٣ ديجون ، اراء في السلطنة العثمانية ، ص ١٤٩ .

اما المختلسون فكانت تحيلهم الى الديوان [4] . وهذا الديوان كان يغير طريقته اذا ما رأى نفسه تجاه قضية واقعة بين الموظفين الرسميين والشعب . فالشعب دائماً هو المذنب ، وخلاف ذلك لا يكون ابداً .

وهذه القاعدة كان يعرفها السواد الاعظم من الناس ، حتى ان اصحاب الدعاوى او الذين يحق لهم ان يرفعوا صوتهم بوجه الظالمين القساة كانوا يحجمون عن ادعاءاتهم لانهم على يقين تام بان التجاءهم الى المحاكم لا يعود عليهم إلا برؤية اشباح ممثلي الحقيقة ، وانه يمكنهم عند التلفظ بالحكم ان يقدروا المحاباة .

لم تكن السلطات تعطي الحق صاحبه إلا اذا كانت « واسطته » قوية ، او تعضده احدى القنصليات . والالتجاء الى البرطيل يزيد الخير خيراً . انه مركبة لا يستغنى عنها ، وهي ، بصورة خاصة ، ضرورية « للرؤساء » الذين لا يتمتعون بحماية ما ، ولا يستطيعون ، نظراً لضعف نفوذهم ، ان يديروا دفة هذه الدسائس لتجري الرياح بما يشتهون . وان لم يفعلوا فقضاياهم لا تنتهي ، واذا انتهت فانما يكون ذلك ببطء ، فيصح حينذاك تطبيق المثل الشرقي : يُصطاد الارنب من اعالي المركبة .

انه لا يستطاع في البلدان التي يسود فيها الظلم ان يطرق الموضوع بصراحة دون ان يفسد كل شيء ... ومن هنا جاء تحفظ القناصل ، الشاق بحد نفسه ، وان اكسبهم مظهر اللباقة والكياسة ، مع انهم لم يفطروا عليهما .

[4] نوع من المجلس البلدي ، ولكنه اوسع صلاحية .

ان الاصلاحات°، كما سبق لي فقلت، كانت تُلمس في سير اعمال المؤسسات الحكومية، ولكن طرق العدالة الحقيقية ظلت على ما كانت عليه في الماضي ملطخة ببعض المساوىء، حتى انه لا يمكن الحصول على الحق إلا باللجوء الى اساليب كثيرة اللف والدوران تسهل المماحكات والنتائج للذين يستفيدون منها.

وهنالك ظاهرة اخرى يجب ان تضاف الى سابقاتها، تأييداً للفكرة القائلة: ان الاتراك هم شعب مناقضات، تلك هي وساوس المحكمين والقضاة والائمة. انهم، بعد ان يساوموك في حلّ قضية، او استيداع ملف، يرفضون قبض المبلغ مباشرة، بل يطلبون منك ان تضعه على الارض ليستطيعوا الحلف، فيما بعد، انهم لم يقبضوا شيئاً: لقد وجدوا المال المذكور على الارض فالتقطوه. وهذا لا يمتّ الى الاثم بصلة ما.

وبعد، فأظن ان هذه التدابير والاحتياطات الغريبة لا تؤخذ إلا تجاهنا، وفي نية خداعنا، لان شعار هذه المحاكم هو ان من يدفع اكثر من سواه يربح قضيته الى حين، وان الدعاوى لا نهاية لها.

° ان الذين تفضلوا واطلقوا عليها هذا الاسم لم ينصفوا، اذ ليس لها منه الا الظاهر ... وهذا ما يذكرني بالحقائق التي ابداها لامرتين على اثر عودته من تركيا:

«انهم في اوروبا يجهلون تماماً سياسة الشرق. يظنون الشرق ذا مطامح واهداف ومستقبل، مع انه ليس له سوى اهوائه وشهواته ويومه والغد. اننا لا نرى في وثبة محمد علي الا نتيجة مطامح طويلة متسلسلة عزم على القيام بها. فالثروة المغربية هي التي تقوده من خطوة الى اخرى، فيسير بلا ارادة، حتى الى زعزعة عرش سيده. (رحلة، الجزء الثاني، ص ٢٩٥).

لا ندري كيف نفسر امتداح لافونتين لهذه المبادىء عندما يقول : « عسى ان يبت بجميع الدعاوى على الطريقة التي يتبعها الاتراك . ان الشعور العام البسيط يكون عندذاك شريعتنا . »

صحيح ان مونتسكيو قال بعد ذلك : « لو كان الحكم المستبد عادلاً لكان احسن الاحكام . »

والسيد « توت » كان يعني ، ولا شك ، احد تلك الاراء في هذا المقطع من مذكراته :

« وانت يا من تألمت بحق من كثرة هيئاتنا القضائية ومضارّها ، وتجرأت على القول ، دون ان تتأكد ، ان العدالة عند الاتراك هي افضل من عدالتنا ، تفحص بانتباه هذا المشهد الذي سأقدمه لك ، واذا كنت لبيباً فصف لنا بعض الادوية اللازمة لهذا الفيضان الذي يضرّ بنا . اصلح عدم اعتدالنا ، ولكن لا تنسب الينا الضعف والعوز [6] . »

أريتُ قاضياً ، قام بزيارتي ، غرف مسكني التي تختلف اختلافاً تاماً عن غرفه ، فوجد سكيناً على مكتبي كثيرة الشفار . وعندما لاحظتُ انها اعجبته قدمتها اليه . إلا انه اجابني انه لا يستطيع قبولها دون ان يدفع ثمنها . فاعتقدت ان ذلك ناشىء عن مقت هؤلاء الاشخاص للهدايا . غير ان تمنعه كان يرتكز على سبب لا يقل عن ذلك دقة . فمن تقالبدهم ان لا يتهادى الاصدقاء اشياء جارحة . فقبلت عندذاك واخذت ثمن سكيني اصغر قطعة من النقود التي شاء ان يعطيني اياها : عشرة سنتيات .

٦ الجزء الاول ، ص ٢١٤ .

ان مثل هذا الوهم هو عام عند كل السوريين . فالنساء لا يناول بعضهن بعضاً الابر ، او الدبابيس ، او المقصّات .

ان شيوع الرشوة عند السلطات التركية ، في بلاد يثير فيها التعصب ضروباً من المشاكل بصورة مطردة ، لأمرٌ يمكن الاعتماد عليه . ولقد حُملتُ على الاقتناع بان ذلك تدبير إلهي ، وهو نافع في الغالب للمغلوبين على امرهم . انها انبوب يقي من التسمّم . فبدون هذه الطريقة التي هي خشبة النجاة لا يستطيع مسيحي ان يعيش في ظل السلطنة العثمانية .

لنتصور الحظوظ التي قد نمر بها في بلاد لا قيمة فيها للمستندات والتواقيع والاختام ، ان مصير كل شيء فيها منوط بالشهود المسلمين .

وقع خلاف بين مسيحي وتركي فصفعه المسيحي على خده عندما استفزه بسبابه وشتائمه ، فرفع التركي دعواه الى القاضي ، فاستدعى الى حضرته الاشخاص الذين حضروا المناوشة ليعاقب الوقح . ولو لم يبادر اقرباء المسيحي المهان ، ويراجعوا القاضي ، لحكم عليه .

فقد اقنعته حججهم الصفراء والبيضاء ، فأجّل احضار المدعي الى الغد ، حتى اذا حضر اليه المدعي ثانية أوفد من يفتش عن المتهم ، ولكنهم لم يعثروا عليه لانه كان قد هرب ... فاغتنم القاضي هذه الفرصة ليهدىء من هياج المدعي ، فقال له : ان الجزاء الحق من جنس العمل ، وهو ينحصر في رد الصفعة لفاعلها . ولذلك يقتضي احضار المسيحي الى المحكمة .

ولما ادرك المدعي تحيز القاضي تقدم منه ولطمه بعنف على خده قائلاً له : ان اشغالي لا تسمح لي بالتأخر . ارجوكم ، عندما يأتي

المدعى عليه ، ان تحولوا له هذه الصفعة .

ان شريعة العين بالعين والسن بالسن تطبق دونما تمييز بين الاشخاص . إلا ان القضاة يصدرون احكامهم تبعاً لمذهب المذنب ... فلو لم يرشَ القاضي لما حكم إلا بالسجن الطويل الامد عقوبة لهذه الجريمة . ولا تكون القضية على هذه الخطورة لو ان تركياً لطم مسيحياً .

انهم يحكمون بناء على ادعاء شفوي . يُحضر القاضي المتهم حالاً ، فيحاول هذا الاخير تبرئة نفسه جهده عندما يُبلّغ الجرم المنسوب اليه . وعلى الفريق الذي يريد اثبات مدعاه ان يسمي عند ذاك شهوده . وبعد استماع اقوال الشهود يلفظ القاضي الحكم فيكون مبرماً . والذي يحكم عليه يدفع النفقات .

ان الذين عرفوا اساليب المحاكمة في افريقيا يسهل عليهم ان يتخيلوها في سوريا :

« يستمع القايد الى اقوال الفريقين الجالسين القرفصاء قرب باب القاعة ، بينما يكون هو ممدداً على سجادة وبضع وسائد . ثم يحمي وطيس النقاش . وفي بعض الاحيان يتكلم القائد والمتداعون معاً . ويتعالى الكلام ، وعلى الاصح الصراخ ، دون ان يسمع احدهما الآخر ، فينهال الجنود على المتداعيين بضرب قاس ليلزما الحشمة والادب . وعند ذاك يلفظ القائد حكمه ، فيخرج المتداعيان تحت ضرب الجنود ورفسهم لينفذ الحكم بلا هوادة [٧] . »

ان الوساطات التي تستخدم للتأثير على السلطات هي بلا مراء

٧ علي بك ، رحلة الخ ... ، الجزء الاول ، ص ٢٧ .

تشجيع للاجرام ، فالحالات التي يعفى بها عن المجرم ، بعد الحكم عليه ، تخلق ، كما يستدل ، عدداً كبيراً من الجرائم .

ان القوانين رغم صراحتها لا تخيف في تركيا الا السارقين الضعفاء . اما الاقوياء منهم فانهم يخرقون حرمتهـــا دائماً ولا يعاقبون في اكثر الاحيان .

ان التفكير بالمثول امام محكمة من هذا الطراز ، ولاسيما في بلاد لا محامين فيها ، والقضاء يقول كلمته دونما تنظيم محضر او تدوين كلمة ، لمروع رهيب . انني استطيع ان استشهد هنا باقوال عدة سائحين حول كيفية احقاق الحق في ظل السلطنة العثمانية . غير اني اكتفي الآن بما قاله احد هؤلاء وهو السيد ديجون بعد ان عرف الدولة العلية حق المعرفة ، وشغل فيها خلال ثلاثين سنة منصب ضابط ارتباط قبل نشر كتابه ، قال :

« تنظم الاحكام عادة بسرعة كلية فلا تعوق اعدادهـا صعوبة فهم النزاع . وهكذا فاذا كانت القضية تدرك بعض الشيء فمحاكم الاتراك اسرع الى حلها من محاكم جميع الشعوب . بيد ان الطريقة التي تتبع في احقاق الحق عاجلاً ، كثيراً ما تؤدي الى اخطاء مخيفة . فهنالك اشخاص ، في القسطنطينية على الاخص ، وفي مدن تركيا الكبرى عموماً ، لا عمل لهم الا الشهادة بالزور ، وقد جمعوا من جراء هذا العمل الدنيء السافل ثروة لا يستهان بها . ان طالبي حلف اليمين ليسوا اكثر وساوس منهم . وهكذا فان العدالة تسير مغمضة العينين ، ولا تنطق غالباً الا بالاباطيل [٨] . »

٨ اراء تاريخية ، ص ٢٥ .

والعثمانيون لديهم مجموعات من القوانين ألفهـا مشترعوهم الشهيرون ، وهي مستقـاة من قوانين يوستنيانوس . الا انهم لا يرجعون اليها الا ليسبغوا صباغ الحق على حكم حملتهم الشفاعة والوساطات على النطق به .

# الفصل الرابع عشر

لغة وآداب عربية .

يزعمون ان مصير لغة الامة مرتبط بحالة البلد الذي يتكلمها ، وانها تخضع لما يحدث فيه من انقلابات وتقلبات . وعليه فاذا كانت لغة العرب قد فقدت روعتها بسبب الاضطرابات حتى اصبح شأن من ينطق بها شأن رعايا دولة اجنبية ، فان مدينة بيروت ، التي هُجرت مدة طويلة لانها اقطاعة من الجبل ، ولان الحكومة كانت تحاول توجيه اعمال التجارة الى صيدا ، قد شعرت بابتعاد الاشخاص الذين كان يمكنهم ان يحافظوا على اللغة . ان الاحتكاك بالرجال المثقفين ومذاكرتهم ، في هذا البلد ، هما السبيل الوحيد الذي يؤدي الى معرفة صحة الالفاظ او خطأها ، لان المعاجم نادرة جداً ، وطريقة التفتيش فيها عن الالفاظ شاقة وصعبة جداً .

فالثقافة في الشرق تؤخذ من افواه الرجال لا من بطون الكتب . فبقليل من هذه المعلومات السماعية السطحية التي يقتبسها وجهاء الرجال يتوصلون ، اذا ما استعانوا بدراهمهم ومفعول الحماية ، الى اشغال المراكز الهامة .

ان السلطات هنا تهتم بتنسيق اعمال دوائرها محاولة ان يصلح موظفوها لغايتين : تطلب من واحد ان يعرف جغرافية تركيا ، ومن الثاني ان يعرف تاريخ البلاد ، ومن الثالث ان يفصل في

الدعاوى ، ومن الرابع ان يكون قد درس اصول الحكم ، ومن الخامس ان يلم ، ولو قليلاً ، ببعض المعلومات الاوروبية .

ومتى وجدت هذه المكتبة الحية يعتقد باشاواتنا ان مواقفهم لن تحرج ابداً . فاذا دعت الحاجة الى حل قضيــة عرضت في مباحثة ولم يوضحها المحدثون ، فعوضاً من ان يفتش عن حل لها في هذا المؤلف الخاص مثلاً ، او ذلك المعجم ، فانهم يدعون تلك المكتبة الحية فتجيب حالاً . وهكذا تنتهي المشكلة .

فهمت من قنصل عام ان محمد علي كان يلجأ الى هذه الطريقة حين يُضطر الى الاستيضاح عن معلومات يجهلها . وكان يزعم ، كلما احتاج الى رجل يستشيره ، ان ذلك الرجل كان في خدمته منذ سنوات عديدة ، وهو يعرف صحراء سوريا ادق معرفة ، في حين انه لم يعرف الرجل الا منذ اشهر . وهذا ما يدل على ان نائب السلطان وُهب ذاكرة وقادة ، وبهذه الميزة السامية يتحلى ولده ابرهيم باشا .

ان فولني الذي اقام مدة طويلة في سوريا ، ودرس اللغــة العربية ، قد تحقق ان لهجة سكان بيروت تعد بحق اسوأ اللهجات ، اجتمعت فيها وحدها عيوب البيان الاثنا عشر التي ذكرها النحاة العرب [١] .

ويصف عثماني نُطق اهالي حلب بالميوعــة والرخاوة ، ونطق الدروز بالقساوة والفجاجة ، ويقول ان نطق اهل الشام قوي متساوٍ واضح ، وان نطق الموارنــة مضموم ، وان نطق سكان

١ رحلة الى سوريا ، الطبعة الخامسة ، الجزء الثاني ، ص ٧٦ .

القدس وطبريا والقرى المجاورة مفتوح .

ان الانشاء – اسلوب الكتابة – هو رمزي دائماً في سوريا ، حتى ان لغتها العامية حافلة بالتشابيه والاستعارات والمجاز .

وفي المراسلات ، بوجه خاص ، يدفع هذا الفن الى اعلى قممه ، اذ يصعب هنا ان يرسل الكلام عفو الطبع . فالاشخاص تشبه بكائنات خيالية او وهمية ، وقد تمسخ لان الصور التي تشبه بها لا تنطبق عليها ، وكثيراً ما يأخذون تشابيههم من اشياء لا تألفها عامة البشر ، فيعبرون عن افكارهم بالعطور ، والازهار ، والصبا ، والدرر والاشياء الاخرى من نسيج وغيره .

ان عبارات المجاملة التي قوّلها موليير لكلايانت كانت مستوحاة من عادات الاتراك ، واحدى هذه المجاملات كانت ترمز الى الآية : كونوا حكماء كالحيات ، وودعاء كالحمام [٢] .

ويجب ان نعترف مع ذلك بان ابرز خاصيات اللغة العربية تنحصر بموافقتها التامة للخيال ، وان تبنّي هذه اللغـة الاسلوب الرمزي هو نتيجة حب الناطقين بها للاستعارات .

كتب السيد ف . ج . ماريال العالم الشهير باللغات الشرقية : « ان لغة المديح نشأت عند الدول الشرقية . ففي هذه البلدان ، حيث يعتاد الامراء منذ طفولتهم الاطراء السمج ، لم يرتقوا عروشهم إلا ليمارسوا اعمال الظلم المستبد . لم يكن يجرؤ اي امرىء ان يبدي نصائحه بلا تزلف ومحاباة ، فسيف الامير كان مصلتاً فوق الرؤوس بلا تمييز ، وهو يستطيع في كل ساعة ان يقتل مستشاره

٢ القديس متى ، الفصل العاشر ، ١٦ .

اللبق اذا جرحت اراؤه كبرياء مولاه .

« فهذه الخشية هي التي اضطرت حكماء الشرق وفلاسفته الى لفّ امثالهم بستار من الرموز ، وهي التي حدت بهم الى خلق الاساطير والخرافات . »

وهنا يصدق قول بيفون : ان الاسلوب هو الشخص نفسه . فموقف العربي يقضي عليه ان يكون دقيقاً ، متحفظاً ، لبقاً . ومن هنا جاءته طريقته المتبعة في الافصاح عن افكاره .

اما اليوم فالادب لا يزال حيث تركه الكتّاب السابقون . واذا عُدّ هنا وهنالك بعض مفكرين ، فان هؤلاء جميعهم من الشعراء الصغار . اننا نجد من هؤلاء مسيحيين في الجبل ، هما ناصيف اليازجي وبطرس كرامه . وفي حمص الشيخ حسين الجندي الذي لاقت ازجاله واناشيده رواجاً كبيراً * .

سأل السيد ميشو احد اصحاب المكتبات في القاهرة عما اذا كانت ظهرت مؤلفات جديدة ، فأجابه : « ظهرت بعض الكتب المترجمة عن اللغات الاوروبية . ولا شيء غير ذلك . » ثم قال لي السيد ميشو : « وسألته عما اذا كان هنالك اليوم شعراء في عاصمة مصر ، فأجابني : ليس في مصر اليوم غير ناظمي الاغاني الذين ينظمون مواويلهم للمناسبات [3] وبلغة العوام . »

واذا كانت مصر التي تنعم بحكومة منظمة ترأف بشعبها كما يقولون ، لا تمد الكتاب والشعراء ، فلا يمكن ان يطلب ذلك بحق من سوريا .

* سماه المؤلف حسيناً وهو امين الجندي ، احد شعراء بلاط الامير بشير . – المعرب .
٣ رسائل شرقية ، الجزء السادس ، ص ٣٠١ .

وقال السيد ميشو ، في احدى رسائله ، عندما درى ان الطباعة المصرية لم تهتم إلا باعادة طبع المؤلفات التي نشرت سابقـاً في باريس : « ان الشرق يتلقى كل شيء من وراء البحار حتى التآليف التي صنفها اسلافه ، وهذه الخاصة من مميزاته . انه لفي اشد الحاجـة الى هذه المؤلفات التي تأتيه من الغرب ، فهي التي تشحذ مطالعتها قرائح شعرائه . »

اما في حقل الادب فالعرب لا يكتبون في ايامنا هـذه إلا اناشيد خفيفة ، وما اقل ما يكتب منها باسلوب رفيع ! حاول صاحب مطبعة على الحجر ان يعيد طبع ديوان الفارض عـلى نفقته ، فلم ينفق شيء من تلك الطبعة على الرغم من تدني اسعار النسخ .

وبعد ، فليست الكتب وحدها هي ما يفتقر اليه العرب ليوسعوا ثقافتهم . انهم مفتقرون ايضاً الى الذوق ، والهدوء ، والثقة . تعودوا ان يكونوا ابناء الساعة التي هم فيها ، وهذه العادة اصبحت فيهم سجيـة وخلقاً حتى صاروا لا يخجلون من جهالتهم . انهم يعرفون ما عرفه اباؤهم ، وهم يعتقـدون انه ليس من الضرورة ان يعرف ابناؤهم اكثر مما يعرفون . فلا يجب ان نعزو عدم اطلاعهم عـلى العلوم ، وابتعادهم عن المدارس التي يعتبرونهـا عديمة الفائدة ، الا الى افتقارهم للثقافة . كانوا يقولون اننا نحن – اي الاجانب – الذين نخلق المشاغل لانفسنا . ولما كان لا يعوزهم شيء فيجب ان نعيش مثلهم . لقد احسنوا صنعاً . ومن ذلك نستنتج انهم كانوا سعداء . ولئن حُرم العرب الثقـافة فانه لا ينقصهم ذكاء الفطرة الطبيعية . ولهذا نجد عند من يحسنون التفكير منهم خواطر

وامثلة ومنطقاً صحيحاً .

شغل التلاعب بالكلام والتعابير الرمزية علماء المشرق في كل عصر ، حتى لجأ الحكام والفلاسفة الى اسلوب الكهان ، فكان اسلوبهم العادي .

ويروى انه ، في الازمنة التي كانت فيها بلاد المشرق مقسمة بين عدة ملوك ، تدخل بعض الحكماء في نزاع حصل بين ملكين منهم ليحقنوا الدماء ويتجنبوا المتاعب التي تحدثها الحرب ، ولذلك اقترحوا ان يفض الخلاف بحرب قلمية عوضاً من ان يفض بالسلاح . ثم تقرر ان يوفد الى معسكر العدو رجل من اهل الادب والفكر ، فيطرح ثلاثة اسئلة تحل بالايماء ، حتى اذا ما فهمت او حلت فللدولة الغالبة ان تملي شروطها ، واذا لم تهتد الى الحل فهي التي تخضع لما يملى عليها من شروط .

ولدى وصول السفير حامل الاسئلة الثلاثة دعا الملك مجلس شوراه الى الانعقاد . وبعد مناقشات طويلة احتكت فيها الاراء ، اقروا بالاجماع شجب الاساليب البربرية التي يلجأ اليها الناس ليصونوا حقوقهم ويحافظوا عليها . ووافق المجلس على ان هذا الحل الادبي افضل جداً من الالتجاء الى النار والحديد . وكان قبول الاقتراح ، وكانت هدنة دعي على اثرها جميع العلماء الى القصر في اليوم الذي وصل فيه السفير .

وادرك الشعب خطورة القضية التي كان ينذر بها هذا الحادث الجلل ، فتصاعدت صلوات وابتهالات الرعية الى الله لينصر مليكها . اما البلاط فكان في قلق عنيف .

لم يكن المكان المعد لاستقبال السفير يمتاز بشيء من سواه ،

لان الشرق لم يكن يفقه اهمية المدرجات . كان ذلك المكان يحوي عرشاً للملك ، ودواوين يتربع عليها الوزراء ، وسجادات ينتصب فوقها العلماء . اما الاعيان والمدعوون فكانوا وقوفاً . وهنالك مقعد وحيد وضع في الوسط خصيصاً لطارح الاسئلة .

ولدى دخول الموفد المدينة ، أستقبل بتلك الجلبة التي تحدث عادة عندما ينتصب الشعب مترقباً وصول شخص ما ، او على اثر وقوع حادث جلل .

ومثل الرجل امام الملك فعبر عن تمنياته الخاصة ، ولكن دون ان ينبس ببنت شفة . وبعد الاحتفاء التام المجلس الاعلى وشرع السفير يطرح اسئلته :

السؤال الاول : رفع يده اليمنى مطبقة الاصابع ما عدا المشير ، وقدمها وهو يرخي ذراعه كما لو كان يفعل عندما يريد الاشارة الى مكان ما .

السؤال الثاني : رفع يده اليمنى مفتوحة ، بصورة تدريجية حتى بلغت علو الرأس .

السؤال الثالث : انتزع الرسول بيضة من زناره واراهم اياها .

وبعد هنيهة اشار بحركة ما معلناً انتهاء رسالته ، وانه مستعد ان يعيد طرح الاسئلة اذا أمر بذلك .

كانت دهشة المجلس على اشدها ، واعترفت الرؤوس الضخمة المجتمعة فيه بعجزها عن فهم تلك الرموز ، اي فهم معناها الحقيقي الذي يعنيه السفير ، لاسيما بعد ان رفض عدة تأويلات وتفاسير .

وهكذا انقضى اليوم الاول ولم ينجل الموقف الا عن محاولات عقيمة من قبل مجمع العلماء العربي . غير ان الملك شاء في اليوم

الثاني ان يدعو العلماء الباقين والاشخاص الحائزين على بعض الموهبة او المقدرة على البديهة في الجواب .

وكانت الجلسة التالية فازدحم الناس اكثر من ذي قبل ، وتفتحت العيون ، واعاروا المشكلة انتباهاً دقيقاً ، وفكروا طويلا ، فاجمعوا اخيراً على انهم لم يجدوا في حركات الموفد معنى يدل على فكرة متناسقة ، او موضوعاً يمكن ان يظن انه هو الذي انتقاه .

وذعر البلاط من النتيجة الثانية ، وانتشر هذا الشعور حالاً بين جميع الشعب ، فضجت الرعية .

وبقي يوم واحد . نسيت ان اذكر ان الميثاق جعل المهلة ثلاثة ايام فقط . ولكن بأي امل يمكن تعليل النفس بعد استشارة العلماء والمثقفين ونخبة رجال الامة وعجزهم عن حل اللغز ؟

ومع ذلك ، فقد اراد الملك ان يفتح قصره في اليوم الاخير للجميع . فنودي في الشوارع بان الاهلين جميعاً مدعوون ليحاولوا حل هذا الطلسم ، وان جائزة ضخمة تمنح لمن يجيب على الاسئلة الثلاثة الشهيرة .

وانتصب الرسول الذي لم يعد يخامره اي ريب في فوزه ، واخذ يعيد ببشاشة كبيرة حركاته الاولى ، رغم حرج موقف الذين حضروا ليجيبوا عليها . واستمرت الحالة هكذا حتى الظهر ، واذا باحد كناسي الشوارع يقف على باب السراي يتأمل الجماهير التي تسده . سأل عن سبب هذا الاجتماع ، وما شأن هؤلاء القادمين والذاهبين ، فقال له واحد : ألم تعلم بعد ؟ ان هنالك رسولاً مكلفاً طرح بعض اسئلة صعبة الفهم ، وان الملك دعا رعيته كلها . فعليك انت ان تستفيد من هذه الفرصة وتجرب .

فقال الكنّاس : وماذا يجدي عليّ ذلك ؟
– جائزة ضخمة مثلك . أدخل اذن .
ودخل الكنّاس . ولما صار امام الموفد وجهاً لوجه ، رأى نفسه مجبراً على الجواب ، فقام بحركات مماثلة ، ولكن بلباقة متناهية ونزق . ولو طال التمثيل قليلاً لكان انتهى الامر الى المشاجرة .
في تلك الدقيقة نطق الموفد بعد صمته اياماً ، واعلن انهزامه .
وعند هذه البادرة غير المنتظرة ضجت القاعة ، وتجمهر الحاضرون حول الكنّاس الفرح . ورأى الكنّاس نفسه بين عدة ضباط ، وقد اذهلته الضوضاء والغضب الصاخب . وشاء الملك ان يرى هذا الشخص الرث الثياب ، فأخذه الضباط ليصلحوا من هندامه . وعندما استقروا في احدى الغرف واصبحوا على انفراد ، قال لهم الكنّاس : هل رأيتم في حياتكم رجلاً وقحاً كهذا الرجل ؟
فأجابوه : عمن تتكلم ؟
قال : عن الشخص الذي طُلب اليّ ان اذهب اليه ... فحالما وقفتُ قبالته لم يرد عليّ السلام ، بل هددني باقتلاع عيني ، فأجبته بدوري اني اقتلع له عينيه الثنتين . وتمادى في قحته فقال لي : انه يشنقني ، فأجبته : وانا اقطع رأسك . واراد اخيراً ان يزيد في تحقيري ، وكأنه ظنني جائعاً ، فأراني بيضة . ولكي اثبت له ، والحمد لله ، شبعي ، أريته قطعة من الجبن ، وكسرة من الخبز بقيت من فطوري * .

* تروى هذه الاسطورة عندنا بصور مختلفة، ولكنها متفقة في الجوهر، فشاء المسيوغيز،

وبينا كان الكنّاس يدلي بهذا التفسير الغريب تناول الملك
حل السفير الذي هدمت قصور آماله بعدما كان قد ضمن الظفر ،
فاذا فيه :

يجاب على السؤال الاول بحركة الذراع نفسها فترخى ويمر بها امام الجسم بصورة افقية مع ابقـــاء السبابة والاصبع الوسطى ممتدتين .

ويجاب عن الثاني باليد اليمنى المنبسطة تماماً ، مشاراً بها بحركة قطرية افقية من اليمين الى اليسار .

ويجاب عن الثالث بتقديم قطعة من الجبن .

الذي جمعها كما رواها ، ان يقيم منها دليلا على حبنا للالغاز والرموز . اما التاريخ فيروي ان ملوك ذلك الزمان قد كانوا يتلهون بها ويتحدى بعضهم بعضاً .

جاء في تاريخ المير حيدر : وفي السنة ٤٣ هـ و٦٦٣ م حكى المسعودي في كتابه المكنى بمروج الذهب ان ملك الروم ارسل الى معاوية يسأله قائلا : اخبرني عن شيء ولا شيء . وعن كلمة لا يريد الله غيرها . وعن مفتاح الصلوة . وعن رجل لا اب له . وعن امرأة ولدت من غير ام . وعن رجل لا قوم له . وعن قبر سار بصاحبه . وعـــن ارض طلعت عليها الشمس مرة واحدة . وعن شجرة نبتت من غير اصل . وعن شيء تنفس ولا روح له .

فلما وصلت تلك الرسالة الى معاوية ، وكان عنده ابن عباس الاشعري ، فرد جواباً: اما سؤالك عن شيء ولا شيء فان الله قال : وجعلنا من الماء كل شيء حي . واما كلمة لا يريد الله غيرها فهي قوله : لا اله الا الله . واما مفتاح الصلوة فهو بسم الله. واما الرجل الذي لا أب له فهو المسيح ابن مريم عليه السلام . واما المرأة التي ولدت من غير ام فهي امنا حواء . واما الرجل الذي لا قوم له فهو ابونا آدم عليه السلام . واما قبر سار بصاحبه فهو الحوت الذي ابتلع يونان وسار به . واما الارض التي طلعت عليهـــا الشمس مرة واحدة فهي ارض البحر الذي انشق قدام بني اسرائيل . واما الشجرة التي نبتت من غير اصل فهي العمشقة التي نبتت على رأس يونان . واما الذي تنفس من غير روح فهو الصبح . — المعرب .

ثم قال السفير : ان هذه الاسئلة المقررة مأخوذة عن الكتاب الشريف :

السؤال الاول : لا إله إلا الله .

الجواب الاول : وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين انما هو إله واحد فاياي فارهبون . — سورة النحل ، ٥١ .

السؤال الثاني : الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها .

الجواب الثاني : وهو الذي مدّ الارض ... — سورة الرعد ، ٢ ، ٣ .

السؤال الثالث : يخرج الحي من الميت .

الجواب الثالث : ويخرج الميت من الحي . — سورة الروم ، ١٩ .

ان للشرقيين ميلاً قوياً جداً الى ضروب الاحاجي ، وذلك ما يُلاحظ في اساليبهم . وربما كنا نحن الفرنج قد اقتبسناه منهم لانه كان سائداً عندنا في القرون الوسطى . ان في مقامات الحريري عدداً لا يحصى من الاحاجي والالغاز على اختلاف انواعها . وقد أحب العرب كثيراً ان يفهمهم الناس بالتلميح ، فتراهم يستشهدون بابيات من الشعر ، او مقتطفات من الكلام الجامع ، والاقوال التي يجب ان يكون المخاطب ملمّـاً بها فيدرك معناها مستعيناً بذاكرته وسعة اطلاعه .

# الفصل الخامس عشر

صناعة اهالي بيروت . غباوتهم . عدم تشجيعهم .
تربية التوت للحرير .

ان حالة الصناعة في بيروت تتلاءم وعقلية اهليها وحكامها . ويمكنني القول ان الفنون فيها في غاية السذاجة . فالانوال والدواليب والادوات الاخرى تُصنع جميعها في البلاد وبأسمج شكل يمكن تصوره . ولما كان العرب يجهلون فن تقسية الحديد ( سقايته ) فانهم يُضطرون الى الاستعانة بالمبارد الاوروبية عندما يريدون الحصول على آلات حادة قاطعة .

انهم بوجه عام غير لبقين . واذا استخدموا المقاييس والزوايا والزئبق فانما يكون ذلك الاستعمال سطحياً ، ولكي يظهروا للملأ انهم يحسنون استعمالها . تدلنا على ذلك اعمالهم غير الدقيقة لانهم لم يتوصلوا ، حتى الآن ، الى عمل زوايا مستقيمة ، وخطوط عمودية ، وسطوح متساوية ، واتساعات متعادلة دقيقة الصنع . فقلما نجد في بيروت باباً او نافذة يقومان قياماً مستقيماً على قاعدتهما .

وعندما يُلام العرب على تقصيرهم في اصول فنونهم يجيبون : « وما تأثير ذلك ؟ إنا لسنا مثلكم عبيد هذه الاعتبارات ، ولا نعلق أيّ اهمية على هذا التناسب الهندسي . أفلا تكون النتيجة هي اياها ، سواء أكان الشيء يميل الى الشمال اكثر منه الى اليمين ،

او انه اكثر علواً او اقل وطواً ؟

ان حفي الارجل ينفع العمال كثيراً ، ويساعدهم جداً ، فبالابهام يوقفون خيوط الفتيلة ( الشلة ) التي يبرمونها ، وبها يستعينون على حل الحرير ، ويلتقطون ما يسقط من ايديهم على الارض دون ان ينحنوا . وطاولات النجارين ومقاعدهم هي اقدامهم وليس غيرها .

وهنا بوجه خاص يصح قول مثلنا : يصير الرجل حداداً بممارسة الحدادة ، لان الحِرَف تُتعلم هنا بالتقليد والممارسة . فكل عامل منهم لا يعرف اصولاً لعمله ، ولكنه تعلمها بصورة تقليدية ، وهو يعلمها سواه بالصورة نفسها . فأصحاب المهن الذين نجدهم في هذه البلاد قد خُصوا بمواهب ممتازة لفتت انظار الافرنسيين ففضلوهم على غيرهم واستخدموهم .

اننا نجد في المشرق عدداً من العمال الذين برزوا الى هذا العالم حائزين على اهلية فريدة ، لا بل على عبقرية غريبة ، فبرزوا في فن من الفنون كما يبرز ويتفوق رجال السياسة العظام في اوروبا [1] . الا انهم لا يخلفون أثراً بعدهم ، او يبنون شيئاً . وهكذا

[1] اعتقد انني اخذت فكرتي هذه عن اراء لامرتين الصائبة حين قال: اننا نخطىء عندما نجعل المقارنة بين الشرق والغرب اساساً لتفكيرنا . فعندما يظهر رجل خطير في الغرب ، يكون دائماً ، والى حد ما ، عنوان الامة التي يحكمها ، فهناك رابطة تقوم بينه وبين عصره . فبقدر ما يقوى بنشيء ، وبقدر ما يخلق يوطد ، وبكلمة وجيزة انه يعمل شيئاً يبقى بعده . اما في الشرق حيث لا ثقافات، ولا علوم، ولا انظمة سياسية ، بل هنالك سيد وعبيد ، فالرجل الخطير ليس الا كائناً كبيراً ، او حادثاً او شهاباً يلمع هنيهة في ظلمات بربرية مستقرة . يأتي اعمالا كبيرة في هذه الآلاف من الاذرع التي يتصرف بها ، ولكنه لا يرفع ابداً مستوى امته لتصل اليه ، ولا يبني شيئاً : لا دولة قوية ، ولا

يطويهم الموت ويطوي معهم التقدم الذي احدثوه في مهنهم . ان ظهور هؤلاء العمال الموهوبين لهو اشبه بوميض البرق ، ووجودهم في الاساكل ُيعدّ حدثاً خطيراً ، فيشعر الناس عند موتهم ان فراغاً حدث ، وهيهات ان يسدّ غيرهم ما سدّوا !

والبون الذي يُرى بين الرجال الذين وهبوا بعض النبوغ ، وبين زملائهم الآخرين في الفنون نفسها ، هو في الواقع شاسع جداً . إلا ان العلوم هنا نادرة الوجود وهي لا ُتعضد ولا ُتشجع . فالسلطات الاوروبية التي تشجع الاكتشافات وتحمي المخترعين لا تحرك ساكناً في هذه البلدان ، مع ان عمّالاً اذكياء يبدعون اشياء جديدة بالانتباه . انهم يكتفون باستخدامهم ، وفي اكثر الاحيان يسخرونهم ولا يدفعون لهم اجراً . والعامل الماهر المتفوق في سوريا نكرة فقير لا يترك شيئاً بعده .

نجد في بيروت عدداً وافراً من حاكة الزنانير الحريرية التي تلف حول الخصر او يعصب بها الرأس ( يريد الكوفية ) ، وعدداً آخر لا يقل عنه من صانعي الصناديق . ان صناديق هذه المدينة ذات اللون الاحمر والاخضر قد حازت شهرة واسعة في جميع انحاء سوريا ومصر حتى استوردت منها كميات ضخمة ، اذ لا بد لكل عروس في هذه الديار من ان تتزود بصندوق مرصع بمسامير مذهبة الرأس .

ثقافة ، ولا تشريعاً، حتى انه يمكننا القول ، اذا لم نخش هنا استعمال تعبير شعري ، ان عبقريته ُتطوى بعده كما تطوى خيمته ، تاركاً المكان خالياً خاوياً مقفراً كما كان قبله. هذا هو فعلا الدليل الذي ينبئكم كيف ان الاساليب العربية في الحياة ليست سوى خرافة براقة تخدع جميع مشايعيها . ( من خطبة ألقيت على منبر مجلس النواب ) .

وهنالك صنف اخر ثمين تخرجه مصانع بيروت يسمى « الكلفا » Kalva ، وهذا ايضاً يعد من الجهاز الذي تصطحبه العروس ، وهو عبارة عن عجين يصنع من عصارة مسحوق جذور الكلفا ( ؟ ) والخروب الممزوج بالسيرج .

انشىء في بيروت، يوم كنتُ فيها ، فرع لمصانع مناديل حلب التي اشتهرت بجودتها وجمالها في جميع انحاء سوريا . فكل ما كانت تخرجه هذه المعامل لم يكن يوازي الكمية المستهلكة . والفضل في هذا الاختراع المشهور يعود الى احد اولئك العباقرة الذين يظهرون في الامة العربية من وقت الى آخر . لقد عرف الشرق قديماً هذا الضرب من الصناعة . إلا انه جدد فيه بعد ان أدخل عليه تحسينات ذات شأن . فهذه المناديل كانت تصنع فيما مضى بانكلترة وحدها . وكانت من شاش غليظ جداً . اما علامتها الفارقة اليوم فطابع مستدير ، احمر اللون ، يمثل كفّ اسد . وهذا الرمز وحده يثير خيال العرب السريع الانفعال . ولهذا اقبل الناس على هذه المناديل رجالاً ونساء . تصنع هذه الدمغة من الشمع ، وبالطريقة نفسها تحول الى لون ازرق دون ان يفسد اللون الاصلي ، ومن ثم يأتي الكشكش الغليظ ، وهو احمر ايضاً ، فيحيط بهذه القطعة المربعة الحجم . في هذا وحده ينحصر فنّ هذه المناديل ( الحطّة ) التي يفضلها عرب الصحراء وابناء الجبل على كل المنتوجات من بنات جنسها . انهم يريدون جميعاً التلثم بكف الاسد ، فكأنهم يتفاءلون بانها تولّد فيهم بعض صفات الاسد الذي هو اكثر الحيوانات عتوّاً وشجاعة وقوة .

ومدينة بيروت مشهورة ايضاً بأباريقها . اما المنزلة الاولى في

عمل الاباريق فهي لبغداد ، ثم لمصر . ولكن لاباريق بيروت المصنوعة من الفخار خاصة تبريد المياه لانها كثيرة المسام التي ينفذ منها الهواء .

ان اهم عمل يتعاطاه اهالي بيروت ولبنان هو زراعة شجر التوت الابيض الذي يُربّى على ورقه دود الحرير . ان تربية دود الحرير هي العمل الذي يتعاطاه جميع الاهالي لانها تهم بوقت واحد الرأسماليين واصحاب الصناعة . فالذين لا يستعينون بغيرهم على حراثة التوت وتربية دودة القز يتعهدونها هم بانفسهم ، ولا تقتضيانهم الانقطاع عن اعمالهم ومهنهم الا شهرين ثلاثة .

يظهر ان تربة بيروت الرملية توافق شجر التوت . وهذا لا يعني ان هذه الارض الاقل جفافاً تلائم هذه الاشجار لاننا نجدها اكبر حجماً وانضر ورقاً في الاماكن التي تسقى فيها .

ان العرب لم يستطيعوا حتى اليوم ، نظراً لافتقارهم الى الادوات ، ان يخترعوا دواليب ( فرّاش ) تستطيع سحب المياه الى علو مترين او خمسة امتار . ولذلك نراهم مضطرين دائماً الى غرس هذه الاشجار في اماكن منحدرة كي يحفظوا لها بعض المناعة ، لان المنحدرات تكون دائماً اكثر طراوة ورطوبة . ان اغصان هذه الاشجار تُجمّ في نهاية كل ربيع ، لتنبت من جديد . والدفعة الثانية من اوراق التوت تنتزع في فصل الخريف فتكون علفاً للبقر والمعزى ، ولاسيما الخروف صاحب الالية الضخمة ( المور ) الذي تعلف كلُ عائلة رأساً منه ليكون مؤونتها في اثناء الشتاء ، فيذوّب الشحم ثم يقلى به اللحم . وهكذا يحفظ عدة شهور .

وشجرة التوت تعيش اكثر من مائة عام اذا حرثت وسمّدت .

واذا لم يعتنَ بها فان عمرها لا يتجاوز خمسة وعشرين عاماً . ان دودة بيضاء يبلغ طولها الستة او السبعة سنتيمترات مسلحة بثنيتين تفتك باشجار التوت وتنخر جذوعهـــا . ان الشجرة تهلك اذا لم تساعد عـلى الافلات من عدوها . وبعد القضاء عـلى هذه الدودة يجب ان تغطى جذور الشجر ببعر المعزى .

ان خشب التوت الذي تنتشر فيه عروق عريضة حلوة الاصفرار مرغوبٌ فيه من النجارين ، وكثيراً مـــا يلتمسونه ليجعلوا منه مصنوعاتهم كاقفال الابواب والمسارج وقضبان النوافذ وغيرها . وطمعاً بريع هذه الشجرة الكثير يقتلع الفلاح جميع الاشجار حتى المثمرة التي تنبت على مقربة منها ، اذ يخشى ان تقاسمها عصارة التربة المغذية ، فهو يريد ان تكون لها وحدها .

ان اوقية البزر ، وهي عبارة عن ثلاثة عشر درهماً ، تغلّ عادة اربع او خمس ربطات حرير يراوح وزنها بين عشرة كيلوغرامات واثني عشر كيلوغراماً . واستغلال مثل هذه الكمية يتطلب عمل شخصين واعتنائهما . وقد انتجت خمس اوقيات بزر ، عام ١٨٢٨ ، ثلاثة وثلاثين ربطة ، اي اثنين وثمانين كيلوغراماً من الحرير . وهذا اقبال نادر .

ان اجمل الحرير الابيض هو حرير الضواحي التي تبعد فرسخين عن المدينة ، ويسمى بالحرير البلدي . وهذا يُصدّر كله الى الخارج . اما الحرير الاصفر الذي يعتبر من أحسن الاجناس فهو حرير كسروان والدامور . وهذه الاخيرة تقع في منتصف الطريق بين بيروت وصيدا . يستعمل هذا الحرير في مصانع انسجة مدن سوريا التي توليه الاسبقية نظراً لجمال لونهْ . انه يكسب النسيج لمعانـاً

وتموجات حين ينعكس عليه النور . وهذا ما يقدره ويرغب فيه ذوو الذوق السليم .

وهنالك اختلاف بعيد بين الطريقة السورية والطريقة الاوروبية في استخراج الحرير . وهذا ما يحرم السوريين من المنفعة التي كانوا يستطيعون اجتناءها .

ان الفيالج ( الشرانق ) تلقى بلا نظام في مرجل ( خلقين ) ، اي انها لا تنقى قبل ذلك . والخيوط التي توضع بدون تمييز على دواليب الحلالة ، تسحب بعد ان يقطعها ، على التوالي ، دولاب تقارب دائرة إطاره ثلاثة امتار . وبعد ان يلقي الناظر قضيبه ثانية في الخلقين ، على اثر تحريكه الشرانق ، ينتزعه ، فاذا به قد علق عليه مقدار كبير من القش جمعته يد القدر . وهذا ما يجعل الخيوط ضخمة وغير متساوية الطول .

اتيحت لارباب هذه الصناعة عدة ظروف ادركوا فيها انه بمكنهم ان يحسّنوا عملهم . ورأوا باعينهم ، بادىء ذي بدء ، نماذج من شرانقهم المحلولة في فرنسا ، ثم أجريت هذه التجارب وأكملت على مرأى منهم في مصنعين فرنسيين أسّسا في بيروت والضواحي . الا ان تأثير العادة كان مستحكماً في نفوس هذه الشعوب حتى انها كانت تفضل مساوىء ما اعتادته على اتباع طريقة مضمون نجاحها . امـا اسباب ذلك فتعود الى عدم مبالاتهم ، وقلة تفكيرهم ، وكرههم للتجديد .

# الفصل السادس عشر

تجارة الفرنسيين الاولى في سوريا . تعين القناصل .
قناصل بيروت يحمون المصالح الوطنية من المصريين .
الكراهية التي توحيها مهمة القناصل .

يُعتقد انه ، حوالى القرن الثامن ، كانت الجولة الاولى التي قام بها ابنـــاء بروفانسيا ، ابطال فرنسا ، الى شاطىء سوريا ، حيث التقوا الفينيقيين الذين تبين انهم تفوقوا في آسيا على جميع الشعوب التجارية الاوروبية . والحوادث التاريخية التي تناقلتها عدة كتب تنبئنا بان القناصل الأول الذين عُرفوا في سوريا كانوا ايضاً فينيقيين .

ان اصحاب المراكب وربابنتها كانوا هم الذين ينتقون في البدء القناصل ، وكانوا يختارونهم ، دونما تمييز ، من بين التجار المنتشرين في كل مكان لتعاطي اعمـــالهم التجارية ، شرط ان يساعدوهم بارشاداتهم ومكانتهم ، ويسهلوا لهم بيع بضائعهم ، وشراء ما هم بحاجة اليه عند عودتهم ، وان يحموهم على الاخص من المخاطر التي يتعرضون لها في البلاد ، وبكلمة ادق ان يقوموا بحمايتهم من كل تعدٍّ صادر عن الاجانب او المواطنين . وذلك كله في مقابل جُعْلٍ ما [1] .

[1] فالين ، شرح النظام البحري ، الجزء الاول ، ص ٢١٨ .

وعندما تبين انهم كانوا يضرون اكثر مما ينفعون مواطنيهم وتجارتهم ، أصدرت عدة قوانين لم تمنح بموجبها المراكز الهامة الا للاشخاص الذين هم من اصل شريف ، وعريقي النسب ، ومن رعية الملك ، وذوي نفوذ واقتدار .

كانت زيارة الاماكن المقدسة ، باديء ذي بدء ، الباعث الذي اجتذب الاوروبيين الى هذه البلاد . الا ان حافز الطمع أخذ يمثل دوره فيما بعد ، فهب اسلافنا ، الذين لا يقلون مقدرة عن اهل البلاد ، الى مزاحمتهم في التجارة التي تفردوا بها في ذلك الزمان .

« وحينذاك – وهذا ما نقله السيد دي بوكافيل – شوهد حشد غفير من زائري الاماكن المقدسة ينزلون الى شواطيء فلسطين وقد اتوا مدفوعين بحبهم للتجارة اكثر منهم بالتقوى ، لان الفينيقيين وتجار فردان كانوا يتاجرون بالرقيق الابيض ، فيبيعون مواطنيهم من المغاربة ليستخدموهم في حراسة حريمهم [٢] . »

ومهما تكن الاسباب والدواعي ، فان العلاقات التجارية لم تستقر بصورة منظمة الا في اثناء الحروب الصليبية حينما انشئت لها مؤسسات خاصة . عند ذاك تدخل البابوات ليعاضدوا بسلطتهم الحقوق الممنوحة للتجار . ويروي السيد دي بوكافيل ان غريغوريوس التاسع ايد ببراءة الامتيازات التي منحها جان دي بلين لاهالي مرسيليا ، وكان يومذاك سيد بيروت ايضاً .

اننا لا نزال نجد اليوم في مجموعة نظم مدينة مرسيليا قانوناً خاصاً يتعلق بالقناصل ، صدر عام ١٢٥٣ . وتشير احدى مواد هذا

٢ مذكرات تاريخية وديلوماسية ، ص ١٨ .

القانون الى العهد الذي كان يقطعه القناصل على انفسهم ، حالفين اليمين بانهم لا يصحبون معهم ولا يدخلون احدى بنات الهوى الى البلاد الخاضعة لسلطانهم . وهذا ، طبعاً ، يمت بصلة الى الاتجار بالرقيق الابيض الذي استمر بطريقة سرية .

وكان يلحق بالقناصل ، الذين كان يقتضي ابدالهم كل سنة ، كاتب رسمي يقوم بوظيفة محرر .

على ان مغادرة الصليبيين سوريا كانت ضربة قاضيـــة على المؤسسات التجارية التي لم يُفكر في انعاشها الا بعد انقضاء زمن ما ، فكنا كأننا نبتديء من جديد . ويظهر انه ، بهذه المناسبة نفسها ، قـد تمكنـا من تعاطي التجارة مجدداً في الشرق بواسطة الفينيقيين ايضاً . وهكذا وجّه الافرنسيون خطاهم الاولى نحو مصر . وشعر لويس الحادي عشر بضرورة دعم هـذه الاعمـــال التجارية الحديثـة العهد ، فمنع بضائع الشرق من دخول المملكة الا اذا كانت محمولة على مراكب وطنية .

والمظنون ان تاريخ اعادة قنصليات فرنسا الى طرابلس وسوريا وبيروت وقبرص يرقى الى مطلع القرن السادس عشر . قـــال صاحب المذكرات التاريخية الديبلوماسية : « ان القناصل لم يكونوا يخرجون حتى الى ردّ الزيارة الا تحت مظلات ترفـع بالابهة نفسها التي نشاهدها في احتفالاتنا الدينية . وهذا التقليد ، الذي يبدو لنا اليوم مستهجناً ، كان يراعى يومذاك بدقة ، وقد يكون ذلك حقـــاً لان الشرقيين عبيد يجب ان يبهرهم بهاء جهاز مهيب [٣] . »

٣ - ص ٥٢ .

وهذه العادة هي ، فيما عدا ذلك ، ذات صلة وثيقة بالزمان .
ان موظفي السلطات التركية كانوا انصاف الهة . ولهذا وجب ان يحاط القناصل بكل ما يستطاع من الاجلال .

تمتع الافرنسيون الذين اقاموا في سوريا بسلطان الامتيازات التي اقرتها المعاهدات المختلفة المعقودة مع الباب العالي ، وانهم مدينون بهذا لنشاط القناصل الذين حافظوا عليها ولمقدرتهم ، فلم تمس في اثناء الاحتلال المصري . اراد الذين كانوا يحكمون باسم محمد علي ان يزعموا ان سوريا ستحكم طبقاً للشرائع المتبعة في مصر ، وهي الشرائع التي تلغي الضرائب وغيرها من التقاليد البالية . بيد انها لم تكن غير محاولات جربت فباءت اخيراً بالفشل .

ان هذه الاجراءات الهامة التي رأوها في اوروبا ضرورية ، وهي في الحقيقة نافعة ، لا تنتج الا المساوىء متى كانت في ايدي سلطات تشبه السلطات السورية ، هذه السلطات التي يقف منها الاوروبيون موقفاً شريفاً ، في حين ان السوريين لا يتعاطون معهم الا بكراهية ظاهرة ناتجة عن قلة الثقة .

اما فيما يتعلق بالافرنسيين فان جميع المؤسسات يعهد بها ، في الاساكل ، الى الضباط الذين يوفدهم الملك ليقوموا بادارتها ، وكان السلطان قد منحهم السلطة المطلقة في تولي شؤون مواطنيهم ، فكانوا يمارسونها بحراً وبراً [4] .

وهكذا نتج عن هذا القرار الملكي ان الفرنسيين امسوا خاضعين لشرائعنا في تعاملهم مع بعضهم . وهذا القرار مبني

٤ معلومات عن قانون ١٧٨١ ، القسم الثالث ، النبذة ١٧ .

على المبدإ القائل بوجوب اعتبار المواطنين الفرنسيين الذين يقيمون في الشرق كأنما هم في مستعمرة ، بقطع النظر عن شرائع البلد التي لم يشعرهم بها قنصلهم .

وقد اثبتت التجارب الطويلة ان الضمانة التي يستطيع افرنسيو اساكل المشرق الاعتماد عليها ، والمنافع التي يجنونها من اتجارهم فيها ، كانت ترتكز على حماية نشيطة وسياسة موالية لمبادىء دولة السلطان ، والمعاهدة المعقودة مع هذه الدولة ، وعرف رعاياها وعاداتهم ° .

اما المؤسسات الافرنسية فهي ، بلا شك ، احسن تنظيماً في الشرق من مؤسسات الدول الاخرى . الا انه بعد الانقلابات التي حصلت في فرنسا لم تعد الانظمة المطبقة في مؤسساتنا تتناسب وانظمة وطننا الام . ومن هنا نشأ الميل الى العصيان ، فذهب بعض المواطنين الى انه لا يجب الخضوع لقوانين تقتضينا اكثر مما تنص عليه شرائعنا . وقد ساعد على ذلك تردد القناصل المتواصل في تطبيق القوانين التي اعتبروها تتجاوز حدود سلطتهم بعد وضع نظامنا الجديد .

ان مخالفة الانظمة تعود الى عامل سياسي هو الخطأ في الرأي ، فهو يلعب دوره في بعض الاحيان حتى في هذه البلدان البعيدة . لقد خلق لي موطنيّ عدة متاعب . الا اني لم اشاهد بينهم دعاة سيئي النية يبشرون بمذهب التسامح السامي ، ثم يخوّفون الموظف المتقلقل فيحجم عن استخدام مواهبه ونشاطه لخدمة الامة ، لانهم

° مقدمة قانون ١٧٨١ .

يصورون له صفاته القيمة كأنها من الطبيعة الماكرة ، وواجباته كأنها مشاكل معقدة . وهكذا تعجز السلطة ، التي تعاكس في سيرها ، عن ممارسة حقوقها ، فتنحصر في نطاق ضيق ولا تعمل الا عند الحاجة الملحة . وما هكذا يجب ان يخدم جلالته . ان اوامره مهما تكن تافهة ، يجب ان تكون لها قوة القانون ، ولكي تحترم يجب العمل بها وتنفيذها بلا هوادة .

كانت وزارة الخارجية قد باشرت تحوير انظمتنا عبر البحار وتصحيحها . إلا انها توقفت عام ١٨٣٤ بعد ما نقحت بضعة فصول من احكام قانون عام ١٧٨١ . ثم انها في سنة ١٨٣٦ نشرت القانون الجديد المتعلق بقمع الجرائم وعقوبتها . وهذا العمل الاخير يرغب فيه كثيراً من يميلون الى التقيد بنظام ، ويشعرون ان التقيد بالانظمة المحكمة التنسيق تقيداً دقيقاً ، توطيدٌ لاتحاد الفرنسيين القاطنين في الشرق . وهذا الاتحاد هو الزاوية التي يبنى عليها كيانهم ، وفيه كل قوتهم . فالفوضى التي تسود اليوم اعمالنا في تركيا انما هي دعوة الى نهج مثل ذلك النهج للتملص من عنف قوانيننا . وبما انه لم ينظم شيء في هذه البلدان ، ولو بصورة تقريبية ، فمن الضروري ، اذن ، ان يكون لعلاقات مواطنينا برؤسائهم استقرار شرعي لا يمكن الانحراف عنه مطلقاً .

انني بناءً على هذا الاساس ارى مهمة القنصل توحي ارتياحاً تاماً . انها عادلة جازمة وصلبة . وهذا ما يجعلها مفيدة ومحترمة .

ان قانون عام ١٧٨١ والانظمة الملحقة به قد ادت الى احاطة قناصل الملك بكثير من الاعتبار ، فاحتفظوا دائماً بحق التقدم على جميع قناصل الدول . اما اليوم فأخذ وزراء السلطنة العثمانية

يعاملونهم على قدم المساواة . ان عدم الاستقرار على حال ، في هذه البلاد ، يجعل المهات القنصلية شاقة جداً . فتارة يتوجب على القناصل ان يقاوموا السلطة العليا للحصول على اوامر تعيد الينا ما أنتقص من معاهدتنا ، وطوراً يقتضي عليهم ان يداعوا المرؤوسين الذين يحرّفون مضمون هذه الاوامر . ان الاوامر الاكثر وضوحاً تُنسى في بحر شهر واحد في اغلب الاحوال ، وهنا الطامة الكبرى ، ولاسيا اذا استوجبت المطالبة بها مقاضاة الرئيس[6] .

غير ان العمل في هذه البلدان لا يشبه العمل في اوروبا ، وهو ينقلب رأساً على عقب بين ساعة واخرى . ان الصداقات الخاصة تسهل العمل اكثر من الاوامر الصادرة عن العاصمة . ففي هذه الصداقات تمهيد عظيم لطرق القناصل ، ويمكنني ان اكرر هنا بان ارتشاء رجال السلطات او لين جانبهم امام الصداقات هو الذي يقينا شر تعصبهم وظلمهم . فالخدمات التي التمسها القناصل من ذوي السلطة قد حصلوا عليها في مناسبات شتى . ان رجال الدولة يحتاجون في حل مشاكلهم الى وسطاء غير قابلي الرشوة . ولما كانوا جد حذرين فانهم يتلمسونهم عندنا . ولهذا يتوسط الجهاز القنصلي ، في حالات الثورة على الحكام ، ليعيد الامن الى نصابه .

كانوا يعتبرون القناصل ، فيما مضى ، رهائن في الاساكل ، بيد انهم رهائن لطيفة يجب ان تعامل بلين . فما من عمل أجدى من

٦ ان هذه الملاحظة ، التي كتبت على عهد محمد علي وكان يمثله في دمشق ضابط سوري ، لا تطبق اليوم الا بالنظر الى السلطة المحلية .

مطالبة الدولة بحماية التجارة ، والمحافظة على أمن صحيح في البلدان الخاضعة لاعمال القناصل ، على ان تزورها غالباً سفن جلالة الملك ، فيرى الناس بدهشة هيئتها الفخمة .

كنت على ظهر الباخرة « ايفجيني » التي تقل صاحب السمو الامير ده جوانفيل ، فأعلنوا وصول حاكم بيروت . فتقدمتُ الى جسر السفينة لاقوم بالترجمة ، فرأيت عليه الاستغراب الذي فوجىء به عند وصوله الى الشاطىء . ومع انه شاهد منذ ايام قليلة اجمل بارجة اميركية ، ومثل هذه البارجة لا تنزل الى البحار إلا بعد ان تستكمل زينتها الخاصة ، قال لي : لا وجه للمقابلة ، فهنا الروعة والاناقة بأسمى معانيهما .

ان اكبر مرارة يشعر بها القنصل ، في اثناء قيامه بمهمته ، هي ان يرى نفسه مضطراً الى الابتعاد عن وطنه ، وان يعيش شبه منسيّ . ففي فرنسا ، سواء أكان ذلك في الجيش او في البحرية ، تقدر اعمال كلّ امرىء دون ان يكون للوساطة يد في الدلالة على اعماله المشرفة : ان عدل الرؤساء يأبى ان يبقى واحد منهم منسياً ، فالوزراء هم الذين يقترحون على الملك ترقية الموظفين ومكافأتهم ، والحق يقضي ان يكافأ كل من احسن العمل . إلا انه في بعض الامكنة التي تُزاول فيها وظيفتنا القنصلية ، قد يبدي القنصل المتفرد باستحقاقه دهاء عجيباً فلا يعود عليه ذلك بأقل شهرة . لقد رموه في فم المهالك كخفير مُخاطر به ، ثم نسوه ، فامسى ولا عزاء له سوى راحة ضميره وتهاني مواطنيه المحيطين به في دار غربته . ان هذا كثير بلا ريب ، وهو كاف للافرنسي الذي خلق اقل حباً للفخفخة . اننا نود ان نُحبّ عندما نخدم . فكيف

نثبت اننا نلنا رضا رؤسائنا وحققنا آمالهم اذا لم يبدوا لنا سرورهم على سمع الناس وبصرهم ؟

# الفصل السابع عشر

تفريق بين القناصل ونواب القناصل والوكلاء .
المساوىء التي تنجت في سوريا من جراء تعيين
بعض « الرؤساء » في هذه المراكز .

اعتاد الناس ألا يميزوا بين الدرجات القنصلية فيطلقون اسم القنصل على نائبه وعلى وكيله . فالملاك القنصلي الفرنسي مؤلف من درجتين ، اولى وثانية ، ومن نواب قناصل ووكلاء . وهؤلاء كلهم يعيّنون من المواطنين ، ولا يكونون من « الرؤساء » الاجانب إلا عند الافتقار الى فرنسيين ، ولدواع هامة . والملك هو الذي ينتقي جميع قناصلنا ويصرف لهم رواتبهم . اما النواب والوكلاء فقد تُرك حق اختيارهم للقناصل ليستطيعوا توجيههم في الطريق الامثل والاجدى نفعاً ، ويكسبوا احترامهم . ولما كان هؤلاء القناصل يعرفون ما عليهم وما لهم نحو رعايا الدولة التي يخدمونها ، والبلاد التي يقيمون فيها ، فانه يسهل عليهم ان يسدوا الى نوابهم ووكلائهم النصائح الملائمة عندما يتجاوزون حدود النظام ، او يخالفون التقاليد المتبعة في البلاد .

ليس بين الدول الاجنبية دولة تعين حكومتها القناصل سوى انكلترة وسردينيا . اما الدول الاخرى فتكل هـــذه المهمة الى السفراء الذين قلما يجدون بين رعاياهم أكفاء لهذه المناصب .

ان انظمتنا تحظر على الافرنسيين قبول أية مهمة قنصلية من حاكم اجنبي او من ممثليه . وهذا المنع هو في منتهى الحكمة ، وبه يسود الامتثال التام بين مواطنينا ، ولكن هـذا المنع لا يتعارض مع حماية رعايا الدول التي لا قنصل لها عند الضرورة . ان نظامنا يوصي بهذه الحماية التي اشتهرت بها فرنسا ، وكان لها دائماً فضل حماية الاشخاص الذين التجأوا الى موظفيها اينما وجدوا . قد تكلف هذه الحماية كثيراً من يقوم بها ، وهي دائماً بلا عوض بالنظر للمحميّ . ولكنها مجد وطني لا يقدر شرفه إلا من يذهب الى الشرق ويقف بنفسه تجاه الشدائد وجهاً لوجه . ولو كانت الثقة متبادلة بين الدول لألغت عدداً ضخماً من المراكز القنصلية التي تحط من كرامة دولة انشأتها لتعزيز مركزها ، وتضرّ بها اكثر مما تنفعها . ان ذلك يكون متى ايدت جميع الدول طريقتنا الحازمة في تنظيم مهامها القنصلية .

وعندئـذ لا نبقي في جميع الاساكل إلا قناصل مواطنين . وحيث لا يمكن ايفاد احد منهم ، فالذين يقيمون هناك يحصلون على مساعدة التجار والربابنة والسائحين الاجانب . وهكذا تصبح الخدمات متبادلة . فهنـا مثلاً يوكل امر الحماية الى قناصل فرنسا والنمسا ، وهناك تتعهده قناصل انكلترا وروسيا وسردينيا وبروسيا الخ ...

ان محمد علي ، بعد ان اجاز اسناد هذه المهمة الى « الرؤساء » ، لم يعد يُرى شيء في الاساكل اكثر ابتذالاً من مراكز الوكلاء . انه لم تبق اسكلة معروفة بعض الشيء ، لا ترينا على الاقـل نصف دزينة من الصواري المرفوعة عليها الاعلام . وهكذا كثر

عدد الذين لا يصلحون لهذه الوظيفة ، فأصبح بعض القناصل ينظرون الى ما تدرّ لهم الاجازات الممنوحة من ارباح ، اكثر مما ينظرون الى اهلية ملتمسيها واخلاقهم .

ان اجمل احلام العربي هو ان يكون قنصلاً ، فليس غريباً ان نراه يحشد جميع ما يملك من قوى ووسائل للحصول على هـذا المركز . ولذلك يُعذر المصريون على جعلهم « الرؤساء » قناصل . والسلطنة العثمانية التي ابت دائماً ان تعترف برعاياها المتخذين صفة اجنبية ، اخذت تميل الى التغاضي عن هذه البدعة لتثبت انها اصبحت تعطف على « الرؤساء » .

لا مشاحة في ان هنالك اناساً من العرب الالبـاء لم ينشدوا في مراكز وكلاء القناصـل الا ملجأ منيعاً يحتمون به من تعسفـات السلطات المحلية . الا ان كثيراً منهم ، ويا للاسف ، يعدون اجازتهم هذه براءة تقيهم العقوبة ، فلا يخشون شيئاً بعد ما يحصلون عليها . والقناصل الذين منحوهم هذه الوظيفة مرتشون يحمون ظهورهم حين يسيئون العمل . ان امثال هؤلاء يبصقون في حوض الجهاز القنصلي كلما لاحت لهم منفعة حقيقية او وهمية يجنونها عن طريق الوساطة او الرشوة . ومثل هذا الاتجار يؤدي الى اسوإ العواقب التي تحط من كرامتنا ومصالحنا العامة .

ويجدر بنا ان نقرر هنا بانه لا يليق بـ « الرئيس » مطلقاً ان يقف من السلطة التركية موقف اوروبي بسيط . فاذا كان امثال هؤلاء الموظفين المفتقرين الى مواهب لا يغني عنها النفوذ الشخصي ، لا يستطيعون اثبات وجودهم ، لانه ليس بامكانهم المحافظة عـلى الكرامة او القيام بالتكاليف الثقيلة التي تتطلبهـا صفات القنصل

الممنوحة لهم منحاً ، فكيف يمكنهم التوفيق بينها وبين انغماسهم في تجارتهم او تعاطيهم مهنة ليعيشوا منها ؟

ولسنا نزعم فيما قلنـــا انهم لم يأبهوا للصفة القنصلية الـــتي اكتسبوها ، فالحق يقال انهم افرطوا في تقدير قيمتها حتى تجاوزوا حدود الخيلاء والعظمة ، واحبوا كثيراً الفخفخة التي لا قيمة لها.

فالانانية المفرطة التي يتصف بهـــا هؤلاء القناصل الذين عينهم قناصل آخرون ، استمد الاكثرون منهم سلطتهم مـــن سفراء القسطنطينية ، تذكرني ، ولا شك ، بالفكرة التي ختمتُ بها فصلي السابق . فبينما يجعل هؤلاء الموظفون اكبر اهميـــة لانفسهم نرى انفسنا ، نحن الذين نمثل حكومتنا لا سفراءها ، خفراء دُفع بهم الى مكان قصيّ خطر ، ثم لا نستغرب هذا الضرب من النسيان الذي تقابلنا به دولتنا .

فهل يُظن اني أحقر مهمتي ولا اتعمد إلا المبالغات ؟ اني لم اكتب سطراً واحداً في هذا الكتاب إلا بعد ما اشبعت موضوعه درساً ليكون صحيحاً كل الصحة .

لا انكر ان بـــين قناصلنا في تركيا رجالاً اكفاء يملأون كراسيهم وينعمون باحترام فائق . وقد يكون مقام هؤلاء هو الذي جعل السائحين الجدد منـا يتخيلون قنصليات المشرق أسرّة حرير او مناصب كهنوتية .

فانا الذي يقلقني مصير ابناء وطني ارى لزاماً عليّ ان اقول للذين يفتشون عن مركز يشغلونه في تركيا ، على أمل ان ينعموا بالمسرّات التي وعدهم بها المؤلفون الذين قرأوهم ، ان لا يتسنموا مراكزهم إلا اذا كان لهم حام يستطيع دعمهم اذا مـــا تزعزع

منصبهم الصعب وظهر اخفاقهم .

ان الاكثار – دون اتباع قاعدة او اجتناء نفع ملموس – من القناصل والموظفين الذين يلتمسون هذه المناصب طمعاً بالمنفعة الخاصة ، كان السبب في وقوع مشاكل متواصلة ، ودعاوى مريبة ، سبّبها الحسد وغيرة بعضهم من بعض . وشد ما تضايق قناصل فرنسا من هذه الحالة ، لان مفوضيهم انغمسوا بعض الاحيان في هذه المشاكل ، فاضطروهم الى اتخاذ اقسى التدابير كيلا تسوء سمعتهم ، اذ يصعب التوصل الى نيل حق مـــن محاكم القناصل الاجنبية .

واذا كان لقب قنصل أسمى مـــا يطمح اليـه الشرقيون في الشهرة ، فكثيرون مـن الاوروبيين ينشدونه أمـــلاً بالاستفادة والمنفعة الخاصة . إلا ان هذه الوظيفـة ليست عند الجميع ستاراً للدسائس الدنيئة والاتجار البشع . وقد عرفتُ عدداً كبيراً من القناصل ووكلاء القناصل الافرنسيين جدّ شرفاء ، سواء أكان ذلك بالنظر الى صفاتهم الشخصيـة ام بالنظر الى ممارستهم عملهم الرسمي .

وهنالك ايضاً فئة من الناس لم يطمحوا الى هذا المنصب الا تهرباً من متاعب قنصلهم . واول فائدة يجنونها تكون في وضع الوكيل تحت تصرفهم المطلق ، ومنحه صلاحيـــة تسهيل اعمالهم وقضاء حاجاتهم مع السلطات المحلية .

طُلب مني ، في اثناء قيـامي الطويل بالمهمة الموكولة الي في الشرق ، قضاء حاجات من هذا النوع لقـاء قبضي مبلغاً كبيراً من المال ، بحجةٍ ان وكالة احدى الدول الاكثر نفوذاً في هذا

البلد ، هي تقبض بدورها ايضاً . ولما كان التلميح من خصائصنا فقد احببت ان اجيب ان قوانيننا تحظر علينا تعيين « الرؤساء » وتحرم على الافرنسيين قبول مناصب اجنبية .

الا ان بعض الاجراءات المخالفة للانظمة شجع فريقـاً من المواطنين على تجديد محاولاتهم . ولما احببت ان اعرف لاي سبب يحاولون اكتساب صفة تمنعها قوانيننا ، كما ان الدولة التي يراد تمثيلها ليس لديها في الاسكلة المذكورة بيوت تجارية ولا ملاحة ، أجبت اذ ذاك بانها مفخرة فقط ، فاكتفيت بالقول : « ان الصفة الافرنسية هي مشرّفة في نظري اكثر من جميع الالقاب الاجنبية التي يمكن منحها . واني لأحمرّ خجلاً اذا فكرت في نقيض ذلك .»

# الفصل الثامن عشر

تراجمة . مستشارون ( مهردار ) . مساعدو الترجمة .
سماسرة . موظفون آخرون .

في المشرق فئة اخرى من الموظفين ليست باقل نفعاً . ان التراجمـــة الذين يقومون بمهمة مستشارين ايضاً يجب ان يقسموا طبقتين ليس إلا . فليست آفتهم انهم لا يقومون بالخدمات المجدية وحسب ، بل انهم يسببون اضراراً . كانوا يطرون في عاصمة السلطنة العثمانية مواهب الترجمان الذي هو من الطراز الاول ، حتى قالوا : الدولة هي الترجمان . واذا استعملنا التعبير نفسه امكننا ان نقول : الترجمان ، في بعض الاماكن ، هو القنصل .

اما اليوم بعد ما أخذ السفراء يزورون السلطان ووزراء الدولة بدون وسيط فيتفاهمون ، وابتدأ القناصـــل يراجعون بانفسهم الباشاوات في شؤونهم الهامة ، فان اهمية الترجمان ، وان لم تصبح عديمة الفائدة نظراً للمناسبات التي يعتاض فيها عن الحق بالخديعة ، قد فقدت كثيراً من اهميتها . بيد انه لا يمكن الاستغناء عنها لاضطرار القناصل الى اتباع اساليب غير شرعيـة لكيما يتغلبوا على المصاعب التي يلاقونها في الشريعة الاسلامية . ان تلك الاساليب تستغرق بحثاً طويلا ، وهنا عمل الترجمان . ولكيلا يظن اننـــا تعلمنا ان نعوي مع الذئاب فاني اسأل القاريء : أيفضل ان يرجع

عن ادعائه بسند قديم مات الذين شهدوا بصحته ، ام ان يشتري شهوداً جدداً يصرحون ، لدى مثولهم امـام القاضي ، بانهم كانوا حاضرين لدى توقيع العقد ، على الرغم من ان اسمهم لم يذكر فيه ؟ واذا عولنا على شراء هؤلاء الشهود فلا بد لنـا من تلقين هؤلاء الاشخاص درساً كافيـاً ليحسنوا الاجابة عن الاسئلة التي يمكن ان يطرحها القاضي عليهم . وهنا عمل الترجمان ومقدرته .

قتل خادمُ احد الافرنسيين شاباً . كانوا ثلاثة فتيان يقلبون بندقية بعد ان افلتت منهم الطريدة ، فقتل الشاب قضاء وقدراً . غير ان العدالة لا تسلم مطلقاً بهذه الاسبـاب التخفيفية . فالقاتل يجب ان يُعدم . اهتممت بتمهيد سبيل الفرار للخادم، وسعيت لحمل عائلة القتيل على القبول بالدية . إلا اني لم اوفق الى تهدئة روعها . فصار حضور الافرنسي الشاب امام المحكمة المحمدية واجبـاً . فعمدت الى القيام برشوة القاضي لاربح القضية . وكان لي ما اردت . فبردت همة القاضي ، مع ان اوامر الباشا لا تفسح في مجال التأجيل والتاخير .

عرفتُ تراجمة لا يرون شيئاً مستحيلاً . ولما كانت الامور لا تُعالج كلها على نمط واحد ، لان الاساليب الاكثر لفاً ودوراناً هي التي تؤدي ، بلا ريب ، الى النتائج الطيبة ، كان على التراجمة ، متى كلفوا بحل قضية صعبة ، ان يقوموا بمجهود كبير ، ويدبروا حيلاً ناضجة ، ويبذلوا نشاطاً عظيماً . انها هنـا تظهر مقدرة الترجمان والحاجة اليه .

كنت جد سعيد بمعاونيّ في اثنـاء اقامتي الطويلة في بيروت ، لاني بعد ان فقدت السيد فليكس دابون الذي لم يكن ينقصه

الا عدم معرفته التركية ، حظيت بالسيد ف. جوريل المستشار في الاسكندرية اليوم . اظهر هذا في مواقف كثيرة انه من خير تراجمتنا الألباء . واني اود ان احيي فيه ذكاءه وعرفانه للجميل واخلاقه الطيبة . وها انا اعدّ لهــذا العمل السيد حبيب بباره معاون ترجمان ، وهو على جانب كبير من الذكاء . كانت تعوزه اولاً معرفة ان الحجة الصغيرة هي عادة اجدى نفعاً من الدسائس والادلة التي ليس لها سوى الظاهر .

ان الشرقيين صحيحو التفكير على قلة محصولهم من الثقافة . واذا خدعتهم البراهين فانهم لا يصرون على ما اعتقدوا صحته اذا ما بدت لهم الحقيقة ولمسوها .

ومنذ مدة ليست ببعيدة شرع التراجمة ينزوون في دواوينهم مستسلمين للكراهية التي يشعرون بها ، هذه الكراهية الناتجة عن عدم استطاعتهم القيام بمهمتهم بصورة يحصلون فيها على تعويضات كافية ، لان معرفة لغاتْ الشرق لا تكفي ، فهناك عادات وطرق واساليب تختلف كل الاختلاف عن عاداتنـا وطرقنا واساليبنا . ولهذا تكون الخدمة ناقصة اذا احسنّا هذه ولم نعرف تلك معرفة كافية . وهذا ما يولّد المقت والكره في نفوس تراجمتنا ، فيهلعون لدى مجيئهم فتياناً الى الاساكل ، اذ تتراءى لهم الصعوبات الواجب تذليلها ليستطيعوا خدمة وطنهم . اما فيما عدا ذلك فالمناصب على اختلاف درجاتها شريفة كلها ، يشعر المرء عند ممارستهـا بلذة اداء الواجب واسداء المنفعة في كل المناسبات .

اجل ، ليس بامكان هؤلاء ان يحتلوا جميعاً المقام الاول في مختلف الحالات . بيد ان الكفاءة هي هي ، سواء أكان ذلك

عند القيام بأعباء المناصب الوضيعـــة ، او المناصب الاشد رفعة وخطورة . كان التراجمة الأول من الارمن الشباب الذين أوفدوا الى الاساكل ، وعلى الاخص الى القسطنطينية ، بعد ان تلقنوا دروسهم في باريس . ومن هنا جاء اسم مدرسة الارمن .

امسى معاونو التراجمة حاجة لا يستغنى عنها ، بقطع النظر عما ينتج عن تصرفـــاتهم من عواقب وخيمة ، نظراً لميل الشرقيين القوي الى الاحتيال والدسائس . ولهذا يتوجب السهر عليهم .

اننا نجد بينهم ، ولا شك ، موظفين يمتازون بصفاتهم الطيبة ونبل اخلاقهم على الاخص . غير ان عدداً كبيراً منهم يرتكبون اخطاء كبرى ، حتى انهم يحققون كلمة قالها احد سفرائنا المشهورين[1] : ان التراجمة هم طاعون ثانٍ .

لا يعني سفيرنا بقوله هـذا الا التراجمة الشرقيين الذين عرفهم يومذاك ، ثم تراجمة بقية الدول بوجه عـــام . وانا استثني من كلامي التراجمة الفرنسيين الذين احترمهم كثيراً . اني اقدر مساعداتهم المجدية . وملاحظتي هذه لا تطبق على العرب الذين هم في خدمتنا فحسب ، بل على تراجمة القنصليات الاخرى اذ ان لدى كل واحدة منها ثلاثة منهم او اربعة .

ان مساوىء التراجمة ، ومساوىء التجار والسماسرة والكتبة والمستخدمين الذين حماهم هؤلاء التراجمة ، قد سببت عـدة شكاوى وملاحقات امام السلطات . وهـذا ما كان يرهق خزينة القناصل ويلحق الضرر برعاياهم ، حتى اذا ما مست الحاجة الى المال وجدوا

١ م. سان بريست .

الخزينة فارغة نظراً للخسائر التي تحملها القناصل في المصالح الاجنبية. ان قانون ١٧٨١ المعترف بحكمته شاء ان تكون الحصانة على الوظائف وليس على الاشخاص. وطبقاً لهذا المبدأ فان قناصل فرنسا ابوا دائماً ان يستعينوا برجال يرتشون.

ان الهدف الذي كان يرمي اليه الشرقيون، اذ يرغبون في حماية افرنسية، لم يكن ينحصر فقط في التفتيش عن عضد يحميهم من التعديات، ولكنهم كانوا يرمون ايضاً الى التخلص من جميع التكاليف، لانهم اذا لم يعتبروا من رعايا الذات الشاهانية سقطت عنهم الكلفة، ونعموا بالامتيازات التي يظفر بها الاوروبي. ولهذا كانت السلطنة تعارض الحماية وكل ما يشبهها مما يعصم من التكاليف، ولم تكن تسلم بها الا بشروط معينة. ولكن هنالك قناصل لم يكونوا يقفون عند هذه التخوم، فيتاجرون على حساب مكانتهم بالسلطة الممنوحة لهم، فيوزعون المناصب الوهمية.

ان المحميين ينغمسون، كموظفي دور القنصليات، في تعاطي الاعمال الخطيرة دون ان يعوقهم عائق عن الحصول على المنافع التي تكسبهم اياها الحماية التي نالوها.

اما اليوم فقد عدلت السلطنة العثمانية عن اعطاء الاجازات التي كانت تجعل «الرؤساء» الموظفين في متاجرنا من ذوي الامتيازات، وحجتها ان الظروف قد تغيرت، وانهم اصبحوا في مأمن من التعديات التي كانت تقع قديماً. اما ما ترمي اليه من وراء هذه الحجة فهو الزام الموظفين الرؤساء بدفع الضرائب المترتبة عليهم شخصياً. واذا رضخنا لما تدعيه السلطنة العثمانية فسوف نندم، لانه يستحيل علينا بعد ذلك ان نداعي بحقنا القديم.

# الفصل التاسع عشر

تجارة بيروت . اهميتها . الاساليب التي يجب
ان تتبعها فرنسا في سبيل ازدهارها .

تتمتع مدينة بيروت في الخارج بشهرة تجارية حازتها بحق . فهي اليوم اكثر المدن السورية إنتاجاً للمنتوجات الصالحة للاعمال التجارية . حبتها الطبيعة مرفأ اميناً ، فأصبحت ملتقى سفن اقطار العالم الاربعة . وورثت هذه المدينة الاهمية التي ادركتها عكا ويافا وصيدا وطرابلس واللاذقية في مختلف العصور ، ولم تعقها عن ذلك معارضة الباب العالي الذي ناهض دائماً ، لا بل منع ازدهار التجارة عن طريق بيروت لانها كانت اقطاعة من الجبل .

وعندما اصبحت هذه المدينة تحت حكم السلطان المباشر ، لم يجرؤ الاوروبيون قط على الاقامة فيها ، لانها كانت خاضعة للجزّار المشهور بكرهه للافرنسيين الذين اخرجهم من ولايته .

أنشئت أولى مؤسسات بيروت في اثناء الحرب البحرية ، على عهد سليمان باشا الذي انسى الناس ظلم سلفه ، واعاد الاطمئنان الى سوريا .

فأخلاق هذا الوزير المتناهية في الحلم والوداعة شجعت « الرؤساء » كثيراً ، فلم يجدوا اية صعوبة في الاستقرار بهذه المدينة ، اذ رأوا فيها حصناً اميناً نظراً لقربها من الجبل .

كان هـــذا الباشا يتعاطى التجارة ، وكان التجار يومذاك لا يستطيعون شراء جميع المنتوجات التي كانت في حوزته نظراً لقلة رأس مالهم . ولهذا كانت تعقد صفقات مقايضة بينـه وبين شاحني المراكب الذين كانوا يترددون على سوريا في اثناء الحرب .

كنتُ في بيروت عام ١٨٠٩ عندما وصلت باخرة افرنسية « بطلة جنوى » مدججة بالبضائع ، تنشد الثروة . وكان في ادارة الجمرك مأمور مكلف ، من قبل سيده ، مفاوضة من ينزلون الى الشاطىء ، فأرسل يستقدم القبطان اليــه . واذ كانا محتاجين الى ترجمان ، دعيتُ انا للاهتمام بقضيــة تختص بسليمان باشا صديق الافرنسيين . فعقدت الصفقة على حمولة الباخرة كلها دون اقل عناء . وهذا ما يحدث حيث تكون الصراحة متوافرة والنيـة الحسنة . فمدير الجمرك لا يستطيع ان يكون سمساراً لانه ممثل سليمان باشا ، والمثل في هذه البلاد يقول : الناس على دين ملوكهم .

وقبل ان انتقل من هذا الموضوع لا بد لي من ابداء شعور ازعجني ، شعور اوحته اليّ هذه الفكرة التي اوردتها . لقد شيدوا ضريحاً فخماً للجزّار ، في حين ان ضريح سليمان باشا يكاد يكون مشاراً اليه فقط . وهذه بادرة اخرى يجب ان تدوّن هنـا لتدل على اننا والشرقيين على طرفي نقيض في كل شيء .

ان رفات هـذا الظالم ، احد اولئك الرجال الذين لم يرَ لهم الشرق مثيلاً في تعطشهم الى الدماء ، يوضع في ضريح فخم ، اما اشلاء صديق الانسانيــة الذي كان يسميه المسلمون باباس باشا ، نظراً لتحليه بصفات الراعي الصالح ، او الكاهن الجليل ، حسب التعبير الديني ، فلا يكاد يعرف اين هي . ان هذا يرجع الى عقلية

الشرقيين التي تعزو كل شيء الى مشيئة الله، ولا تعرفه إلا حين يغضب ويضرب ضرباته المخيفة. فعندهم ان الجزّار، الرجل الفاني، لم يكن ليقدر ان يؤدّي رسالة هذا الظلم والجور لو لم يكن الله قد اصطفاه لالقاء تلك الدروس القاسية على العالم. رَويتُ فيما سبق كيف يُحترم المجانين عند هذا الشعب الكثير الاوهام والتخيلات. ان لهذا الوهم عذراً واضحاً لان له على الاقل وجهته الاخلاقية، فالاهتمام بالشخص المهمل المعتوه يستحق فاعله أجراً عليه، اما الاهتمام بقبر طاغية كالجزّار فعلامَ يؤجر بانيه ؟

قلتُ في فصولي الاولى ان العرب هم اول من انشأ المؤسسات التجارية في بيروت. اما اكبر محل اوروبي يتعاطى التجارة مع سوريا في حقلي التوريد والاستيراد فكان اذ ذاك في جزيرة قبرص. فمن هنالك كان يتبضع تجار هذه البلاد مصطحبين الحاجيات التي كانوا يتجرون بها. والذين لا يتمكنون من الذهاب الى الجزيرة كانوا يطلبون كتابةً الحاجيات التي يرغبون فيها. وبعد هذه التجارب، حوّل العرب وجوههم صوب ازمير واسطمبول، فاستوردوا منها بضائعهم لانهم كانوا يجنون من الاتجار بها منافع ملموسة. واستمرت هذه الحال مدة الحرب. وعندما اعاد السلام حرية التجارة البحرية اخذ التجار العرب، مدفوعين بطمعهم الفطري، يقومون بشراء حاجاتهم رأساً من البلاد التي تنتجها. وشاء البعض منهم ان يتعودوا تجشم اخطار الاسفار، فانتقلوا الى اوروبا حيث صادفوا نجاحاً وفلاحاً، فلم يبارحوها.

وظلت الصلة قائمة بينهم وبين اصدقائهم السوريين الذين عهدوا اليهم اذ ذاك بقضاء جميع حاجاتهم. فوجدوا على يدهم منافع لم

يجدوها على يد تجار اوروبا . كانوا يكتبون لهم بلغتهم الخاصة ، وهم موقنون انهم يفهمونهم نظراً لمعرفتهم بواردات البــلاد واحتياجاتهم . ثم جمعتهم المصلحة ووحدت بينهم ، فاحتكروا جميع اعمال تجارة سوريا . فارتأت بيوت مرسيليـــا التجارية وجنوى وليفورنا ، ان يكون لها عملاء من العرب ليتفاهموا والذين لا يحسنون سوى هذه اللغة . ثم ان الاغريقيين ما لبثوا ان تمركزوا في الاماكن الهامة ليتفاوضوا مع ابناء امتهم المنتشرين في جميع انحاء الشرق ، لان اليونان هم بطبيعتهم بعيدو الهمة ، جسورون ، والتجارة تلائم نشاطهم الطبيعي كل الملائمة .

ذلك كان سبب الانقلاب الذي شعرت به تجارة هــذا البلد ، وهو الانقلاب الذي تبين منه ، بادىء ذي بدء ، انه لم يكن له من مفعول سوى نقل التجارة من اياد الى اخرى ، لان الذي كانت تخرجه مصانع فرنسا لمؤسساتها الوطنية كانت تخرجه بمقدار واحد للافرنسيين والشرقيين . بيد انه لما كانت اهميــة الابتياعات تنشأ عادة عن الذين يقومون بها ، فان التجار الشرقيين يعقدون صفقاتهم بتردد وخشية . انهم يقومون دائماً بتجارب وينقادون بسهولة لآراء عملائهم الذين يتملقونهم كثيراً ويزينون لهم اجتناء ارباح لا تكون في الغالب الا وهمية . ولهذا انحصرت في موانىء تريستا ، وجنوى ، وليفورنا ، ومرسيليـا ، وعلى الاخص موانىء انكلترا التي بلغت تجارتها مع سوريا ، بالنظر الى ازدهارها ، ما لم تبلغه في جميع البلدان مجتمعة .

كانت محلات سوريا التجارية في الزمن القديم فروعاً مــن محلات مرسيليا . والتجار الذين سبق لهم ان اقاموا في المشرق

كانوا يديرون مؤسساتهم بوجه يتفق مع حاجات المكان واذواق اهاليه . اما الوكيل فلم يكن يهتم الا بتنسيق البضائع التي كان يتسلمها ، واعداد شحنات العودة . كانت التجارة يومذاك على قدم وساق . وكان يمارسها من يتعاطونها باستقامة عظيمة . فمن كان يجرؤ ان يظهر سوء النية او اقل ميل الى الغش ؟

كان القنصل يدعو محكمته للالتئام لدى ظهور اي عمل شائن ويحكم بحجر المذنب الذي كان يسمونه « بطّال » .

هذا عُرْفٌ حملتنا على اتباعه اتصالاتنا الطويلة بسوريا ، وهو ذو اثر فعال يجعل « الرؤساء » وناقلي البضائع وجميع رعايا السلطان الذين تربطهم علاقات بالاوروبيين حذرين في تصرفاتهم ، لانه اذا ما قدر ولفظت هذه الكلمة المحترمة – بطّال – يصبح الشخص غير اهل لخدمة الامة . وهذا العرف أدخل فيما بعد في قانون قنصلية حلب الذي نقل منه السيد دي بوكافيل، في مذكراته [1]، مادته الرابعة .

١ عندما كان المغاربة والتجار الاتراك او المسيحيون من رعايا السلطان يجورون او يظلمون او يوقعون ضرراً بالغاً بالتجار الفرنسيين، اثناء ممارستهم اعمال التجارة ، كان يستطيع هؤلاء ان يقاضوهم عند قنصلهم . واذا وجد القنصل ان التاجر الاجنبي مذنب ، سواء احضر الفريقان ام لم يحضرا ، فانه كان يصدر عليه وعلى بضائعه حكماً يسمى « التبطيل » وهو حجر مدني . وبموجب هذا الحكم يحظر على جميع الافرنسيين والذين يتعاطون التجارة معهم ان يكون لهم علاقة مباشرة او غير مباشرة مع المحجور عليه ، ومن يخالف يغرم من ٢٠٠ قرش فصاعداً ، حسب اهمية القضية . ان هذا الحكم كان يبلغ على اثر ذلك الى قناصل الدول الاخرى ، وكان هؤلاء يطلعون عليه رعاياهم ، وهكذا كانت تمنع كل علاقة مع هذا التاجر . اما بضائعه فكان يحجر عليها الى ان يرفع الحجر بصورة قانونية . ( المذكرات المذكورة آنفاً ، ص ٥٠ ) .

ان السوريين الذين يتعاطون اعمال تجارتهم مع اوروبا لم يوفقوا دائماً في صفقاتهم رغم التسهيلات الجمة التي توافرت لهم، ورجحت كفتهم على التجار الفرنسيين، مزاحميهم في الاساكل، مما جعلهم يرجعون الى اسلوب تعودوه وفهموه، وهو اكثر انطباقاً على عقليتهم وذهنهم.

وأرى انه لمن الاصح – وفي ذلك مصلحة متبادلة – ان يقوم الافرنسيون وحدهم بتجارة فرنسا، وان تبقى التجارة المحلية او تجارة سوريا في يد العرب. ان هؤلاء هم الوسطاء الطبيعيون بين الفرنسيين الذين يبيعون جملة واصحاب الحوانيت الذين يبيعون تفاريق، كما هي حالة هؤلاء الاخرين بين التجار الوطنيين والمستهلكين. وعندما تتبع هذه القاعدة في سير الاعمال يصبح كل شيء طبيعياً. اني لم اجد تاجراً فرنسياً او بائعاً عربياً لم يقر بان الاستمرار على الطرق القديمة هو افضل من اتباع الطرق الحديثة. انهم كانوا يرغبون جميعاً في هذا الانقلاب. ومع ذلك فان احداً منهم لم يكن يهتم بالمطالبة به. ان مثل هذا الانقلاب يجب ان تكون النكبات مركبته.

فالافرنسي يجيد معرفة انتاج بلده. ولما كان هذان البلدان مضطرين للمقايضة بمنتوجاتها، فمعلومات هؤلاء التجار، اذا ما اجتمعت، تحملهم على توسيع نطاق اعمالهم وتجارة بلدهم، فتتضاعف ارباحهم.

ان العرب، وهم لا يميلون الى التجديد، لا يمكنهم طلب اشياء يجهلون وجودها. فلو كان لدى المؤسسات الفرنسية في الاساكل ممثلون في مرسيليا لكان بامكانها ان تفاوض مصانع

المملكة . وهكذا فانها تقوّي نفوذها بفتحها منفذاً لاصحاب المصانع الغاصة محلاتهم بالبضائع ، لانه لا يمكنهم توريدهـا على حسابهم ، نظراً لعدم وجود ضمانة اخلاقية توحي الثقة .

ان مزاحمة الاوروبيين للعرب هي في غاية الصعوبة ، لاسيما وان هؤلاء يتمتعون بامتيازات كبيرة لم تتوافر لاولئك : انهم لا يدفعون اجور المحلات او المخازن او رواتب المستخدمين . وهم بغنى عن المصارفات الاخرى التي تتطلبها التجارة ، ناهيك بانهم يقومون بنوع من الاعمال لا يجارون فيه ألا وهو انهم يمدون ويدينون ابناء الجبل من امراء ورجال دين ، وخواص وعوام ، مالاً بربى فاحش تسليفاً على موسم الحرير ، او يقدمون لهم ملابس وحبوباً بثمن باهظ .

ان السوريين يحبون هذا النوع من الضروب التجارية لانه لا يتطلب تداول جميع الاموال في وقت واحد ، وهو لا يمنع من يقوم به من مزاولة اعمال تجارته الخاصة التي تدر عليه ، وينصرف الى سائر اعماله بما تبقى له من رأس مال .

ان الاعتمادات التي يمكن تجارة اوروبا ان تمدّ بها هي التي تشجع التاجر العربي . انه يعتبرها بمثابة بنك يمكنه ان يستدين منه ما يعوزه من مال . ومن ثم فانه يمكننا ان نجعل مضرب المثل قولنا : ان الاعتماد هو قلب التجارة عند شعوب هـذه البلدان هنـا . ذلك لان العرب لا يتاجرون الا بالمبالغ التي يقرضونهم اياها . ان المبالغ المسلفة التي يدينهم اياها تجار اوروبا تكون بفائدة ستة بالمائة ، مع ان الفائدة التي يطلبها ابناء سوريا هي عشرون بالمائة . اما الذين يقرضون بفائدة تراوح بين ٣٦ و٤٠

بالمائة عن كل سنة ، فعددهم كبير جداً . فاذا أتخذت مثل هذه التدابير التي تلائم العرب فسوف لا يفكرون الا ببيع البضائع التي قدمها لهم عملاؤهم وترويجها وقبض اثمانها .

ان العربي لدى تسلمه البضائع يفكر بما يحتاج اليه من المال في اعماله التجارية ، اكثر مما ينظر الى الظروف الملائمة للبيع . ان كل شيء هنا يُعمل حسب مقتضيات الحال . وعندما تبدو هذه الضرورة ، لا يهتم تاجر هذا البلد بالخسارة التي ستلحق به . وهذا احد الاسباب الهامة التي تجعل مزاحمة العرب شؤماً على الاوروبيين .

ان هؤلاء يجدون ربحهم في الواردات ، بينما ان ما يقدمونه للشرقيين هو الصادرات التي يستطيعون الحصول عليها بقيمة تنقص عن ٢٥ بالمئة عما يحصل به عليها الاجانب .

وهذه ليست سوى صورة مصغرة عن نتائج المزاحمة السيئة التي لاقتها تجارتنا وجعلت الكثيرين من تجارنا يملون ويقنطون . وقد أضطروا الى الاحجام عن دفع نفقات مؤسساتهم بعد ان خدعهم سماسرتهم ، وسرقهم مشتروهم ، واستذلهم رجال الجمرك ، شركاء التجار المواطنين .

والذين لم يتخلوا عن مركزهم استسلموا للتيار وماشوا الظروف ، وعرفوا ان يستعيدوا مكانتهم . ان هنالك قسماً قد آثر ان يتعاطى العمولة ، وآخر اكتفى بقبض جعالة زهيدة [٢] .

٢ انها وظيفة من نسميه نحن عميلاً . فهؤلاء مكلفون في بيروت تسلم البضائع التي تخص تجار دمشق ومدن الشاطىء الاخرى التي لا تدخلها السفن ، وتسفيرها .

اما المحلات التجارية الراسخة القدم فلم تخفها المزاحمة وان ضايقتها كثيراً . حولت نظرها الى تعاطي التجارة المحلية فكفل لها تفوقها ، في العدة ، عجز العرب عن تقليدها . وهذا ما بحثته حين تكلمتُ عن طريقة حل الحرير الغليظة في هذه البلاد . ان المقدرة التي يتصف بها التاجر الاوروبي تساعده ولا شك في المهمة التي يتعاطاها . فعليه قبل مباشرة عمله ان يظفر بثلاثة اشياء : معرفة البلاد ، لغتها ، سمسار قدير . فلا بد اذن من معرفة بعض نقاط تصلح لان تكون قاعدة ومقياساً لاعمالنا ، وتمكننا من مفاوضة المشترين مباشرة . إلا انه لا ينتظر ان نتفوق على رجل هو تاجر وسمسار في وقت معاً ، ولا سيما اذا كان يتحلى بشيء من المقدرة وبكثير من الثقة . انها قضية حياة او موت لكل مؤسسة تجارية . ولقد توافرت لديّ عدة شواهد على هذه النقطة تمكنني من ابداء رأي هو غاية في المتانة : ان تاجراً عنده سمسار قدير ، يمكنه ان يجمع بين المقدرة الاوروبية والحيلة الشرقية . وقد ثبت ان مهمة السماسرة كانت جد مجدية وضرورية ، حتى ان الحكومات سعت لدى السلطات لتمتع هذه الطبقة من الموظفين بالامتيازات والحصانة الشخصية التي يتمتع بها التراجمة ، فمن فور دخولهم في خدمة التاجر تفارقهم رعوية جلالته ويصبحون من رعايا قنصل الدولة التي يخدمونها .

كثيراً ما كان التجار الاوروبيون ، قبل ان يمنحوا هذا الامتياز ، هدفاً للتعديات البالغة الحد ، لان السلطات التركية كانت تحرج الى ابعد مدى موقف « الرؤساء » الذين عرفت ان فرنسا تدعمهم مدفوعة بحبها للانسانية . انه ، والحقيقة تقال ، ما من تضحية

أسمى من التي يقوم بها تاجر بدافع الشفقة او المصلحة لانقاذ من هو موضع ثقته واعماله ... وهكذا فانه كان يبذل ماله لينجي عميله المعرض لسيف العدالة الغادرة في هذه البلاد .

لاقيتُ بعض المشقات عندما دعوت الى احترام مبدإ حماية السماسرة في بيروت ، هذه الاسكلة الجديدة التي يجب ان نخلق فيها كل شيء . ولكم تألمت عندما رأيت هذا المبدأ ينهار لدى الذين اعتقدوا انه يجب عليهم ان يكونوا اقل تسامحاً مما هم عليه العثمانيون تجاهنا ، اذ لم يظنوا مطلقاً اننا نتطلب منهم اكثر مما تطلبنا من الاخرين [٣] .

فهمت بعد محادثة طويلة جرت بيني وبين ابرهيم باشا ان هنالك خطة مدبرة لكيفية معاملتنا في سوريا ، فهو يعتبر : « ان موقف الاوروبيين في مصر كان اقوى مما هو عليه في سوريا . الا ان موقف اهالي سوريا كان افضل من موقف شعوب البلد الآخر . » وهذا ما أكد لي ، وكثيراً ما دلت عليه تصرفات السلطة ، ان نائب السلطان كان ينوي التخفيف عن السوريين والانتقاص من امتيازات الاوروبيين الذين توسعوا كثيراً ، حسب رأيه ، في مصر بعد ان أثقل كثيراً عاتق المصريين التعساء .

ان التدابير الحليمة التي اختطها محمد علي لم تتبع في هذا الحقل كما اتبعت في كثير من الحقول الاخرى . فافضل وسيلة لترويج

٣ بينما كنت اكتب ذلك ( ١٨٤٣ ) كانت هذه القضية مطروحة على بساط البحث . ورغم تمتعنا بالامتيازات زمناً طويلاً في سوريا ، رجعت الدولة العثمانية عن بعضها، لاننا لم نكن قد تصرفنا بها بعد . جيل ان نجابها بهذه الحجة : ان مجموعة الشواهد لها في تركيا مفعول القانون .

منتوجات مصانعنا تكون في انشاء مستودع ضخم ( عنبر ) يمكنه ان يقدم لتجار دمشق ، في الداخل والاسكلة ، الحاجيات اللازمة باسعار معتدلة ، وان يهتم بامر بضائع المقايضة التي يمكن هؤلاء التجار ان يقدموها ، بشرط ان يسترجعوا الحاجيات التي يتبين انها لا توافق بلداننا في المملكة العثمانية حيث تعود هؤلاء التجار ان يأتوا بانفسهم اليها . ووفقاً لهذه الطريقة يجب ان تورد المنتوجات الى فرنسا ، حتى اذا لم تتناسب وحاجيات البلاد أعيدت كتلك .

ان مؤسسة تجارية كهذه يجب ان تقوم بانشاء مدينة صناعية . وعندما يساهم فيها جميع اصحاب المعامل فسوف يقوونها وينشطونها لانها لن تفتقر الى بضائع اهتم اصحابها بترويجها عن هذه الطريقة .

وهنالك قاعدة يجب ان يتبعها تجارنا : انها تنحصر في ان لا يقرضوا شيئاً السلطات المحلية والا يبيعوها شيئاً ، مهما تكن قيمته متدنية ، لقاء دفع مؤجّل ، ما لم يقدم الشاري كفيلاً مالياً يقدم بدوره ضمانة وافية . ومن يعمل خلاف هذا ، في بلاد تكثر فيها ، ويا للاسف ، الحوادث الاستثنائية ، يعرض مصالح العملاء للخطر . وقد بُحثت هذه الفكرة باسهاب في مذكرة هي بين يدي [٤] ، وهاكم ما جاء فيها :

« اتبعت هذه القاعدة اتباعاً دقيقاً في وقت ما . فتجارنا لم يكونوا يبيعون الا في محلاتهم ، كما انهم لم يوردوا قط على حسابهم الخاص . اما تجار دمشق والمحلات الاخرى في سوريا

٤ مذكرة السيد شابوسو الذي سنتكلم عنه فيما بعد .

فكانوا يعطون الاساكل ليقوموا بابتياعاتهم ، او انهم كانوا يشترونها بواسطة اناس يتقاضون عليها عمولة . ولهذا لم يكن خطر في الدفع ، ولا مشادات حول الاسعار ، ولا مخاطر في التوريد .

« الا ان كلب الجشع ، والحسدة البغيضة ، والرغبة الملحة في القبض سلفاً ، واخيراً الفوضى في النظام أنست ، لبضع سنوات خلت ، هذه الطريقة الحكيمة . وهكذا سارع كل واحد ليقوم بالعرض ، فالاغراء على القبول ، فالتوريد . اخذ الشرقي ، بادىء ذي بدء ، وهو داهية دقيق متمسك بتجارته ، يجس باحتراس مثل هذه العروض . واخيراً حملهم على ان يرجوه ، ثم انتهى بفرض اسعار البضائع وشروط الدفع . فنتجت عن مثل هذه التصرفات المغفلة خسائر جسيمة لحقت بالامة . كان من المتوجب على تجارنا ان لا يخطئوا الاعتقاد بان منتوجاتهم ، وهي اهم ما يحتاج اليها هذا البلد ، يمكن ان تطلب وتنفق دائماً ° . »

كان الاتجار مع انكلترا عن طريق ازمير وليفورنا . فكان العرب يستوردون منها المنسوجات والقطن المغزول الذي يحتاجون اليه في قليل من الاعمال . غير ان تجارة هـــذا الصنف ازدادت بمعدل ١/١٠ عندما خصها التجار الانكليز عام ١٨٣١ بكل النشاط الذي كانت تتطلبه . وهكذا بلغت قيمة القطن الانكليزي المغزول المورد الى سوريا ، ابتداء من عام ١٨٣٣ ، مبلغاً ضخماً قدره ٦،٢٧٤،٧٠٠ فرنك .

° انا نلاحظ ان هذه المذكرة كتبت قبل ان زاحم العرب الفرنسيين في تجارة اوروبا .

ان الانسجة البيضاء ، المصبوغة والموشّاة ظلت تتمتع برواج عظيم . واظن ان السبب الاساسي في ذلك يعود الى البؤس العام وغلاء الحرير واليد العاملة . وهذه العوامل مجتمعة جعلت الانسجة الاجنبية في متناول جميع الطبقات غنية كانت او فقيرة . اضف الى ذلك الزيّ ( الموضة ) ، فقد ساعد على رواج الاقمشة التي هي اكثر زركشة وألواناً لماعة من غيرها كالتي يحبها الشرقيون .

هذا فيما يتعلق بالانسجة المنقّشة والانسجة القطنية والكوفيات . اما فيما يتعلق بالاقطان المغزولة والخام والانسجة البيضاء القطنية فأسبابها ليست كتلك .

كانوا يغزلون قديماً في البلاد كمية وافرة من القطن لحياكة الخام [٦] . اما الانسجة البيضاء وخيط الغزل الدقيق فكانا يردان من الهند لتحاك منها الاجواخ التي كانت لحمتها من قطن البلاد . اذن ، فالى ادخال مثل هذه البضائع وليدة المصانع ، والى الميزة التي كانت تتفوق بها على شبيهاتها المعروفة من قبل ، يجب ان نعزو الرواج الكبير الذي لاقته مصنوعات انكلترا في سوريا .

ان سويسرا تقدم ايضاً النسيج الموشّى ، وميلهوزن تمدنا من حين الى آخر بكمية من النسيج المنقش . اننا نعجب لاول وهلة كيف ان تجارنا لا يستثمرون مثل هذا النوع الهام من التجارة .

٦ اني اتحدث عن فترة تأتي بعد الفترة التي كانت تنتج فيها سوريا كميات كبيرة من البضائع التي تنقلها السفن عند عودتها الى فرنسا . ان الانسجة القطنية والمنقشة كانت احدى مواد هذه الوسقات .

ثم لا نلبث ان ندرك ان احجامهم يعود الى عملاء مرسيليا الذين لا يمكنهم ان يوردوا لممثليهم العرب الا الاشياء التي يطلبونها منهم .

اجل ، اننا متى اتقنا الصنع اكثر مما يتقنه الانكليز ، لا يلائمنا ان نبيع بالثمن نفسه . الا ان التفوق في الحياكة وعلى الاخص في الصباغ يساويان ولا شك الزيادة في الثمن . فالمناديل والاجواخ الربيعية المصنوعة في « روان » تتمتع اليوم بافضلية ملموسة ، مع ان ثمنها اكثر ارتفاعاً من ثمن شبيهاتها في البلدان الاخرى .

ان مصر تقدم ايضـــاً الى اسواق سوريا كميـة كبيرة من المنسوجات والقطن المغزول . وهذا ما يسمح لها ان تصدر الحاجيات التي تتوافر لديها من صناعة اهليها . ولو ظلت سوريا في يد محمد علي لشاهدنا الاهتمام بتنفيذ مشروعه الرامي الى نقل المصانع القطنية اليها لتعمل على اوسع مدى فيهـــا ، بعد ان حال مناخ مصر دون ذلك .

ان عزل كل منتوج انكليزي عن اسواق هذه البلدان نتج عن طبيعة الامور نفسها . فالخيوط والانسجة المصنوعة في هـذا البلد من قطنه ، وباياد تقاضت اجراً ضئيلاً ، او على حساب السلطة العامة ، امست تباع بأسعار ضئيلة ادت الى العدول عن الاتيان بها من الخارج .

فالتجار الانكليز لا يوحون عادة الارتياح الذي يوحيــه الفرنسيون . انهم يتطلبون من العرب دقة ليست من طبيعتهم ، ولا من عاداتهم ، ولا يمكنها ان تكون الا صنيعة الايام . ان استقامة التجار ترتبط باستقامة اصحاب الحوانيت الذين هم بحاجة الى ان يقبضوا مالهم كاملاً من المستهلكين .

وهنالك عدة دواع أخر تعاضدنا ويمكننا ان نستخلص منها انه اذا كان مقدم التجار الانكليز قد ساهم في ترويج موارد انكلترا ، فان حلول الاشخاص الموفدين من فرنسا يحدث المفعول نفسه بالنسبة للحاجيات المصنوعة في وطننا . فلا بد ، اذن ، من ان يزود المحل الذي يُنوى انشاؤه برأسمال كبير ، ويُفضل كثيراً ان يكون المساهمون فيه من اصحاب المصانع في مختلف المدن الصناعية .

وهنالك نصيحة اخرى اسمح لنفسي أن اسديها الى الذين يقدمون من مواطني الى بيروت ، وهي ان يهتموا بان يعيدوا الى التجارة الفرنسية تراثها القديم في الاستقامة ، او على الاقل ان يحافظوا على ما ظلت تحتفظ به من شهرة قديمة . لقد عرفتُ اشخاصاً انقادوا لاغراءات مقيتة ، في مخادعات زعزعت ثقة تجار هذه البلاد ، فوافقوا على الاكثار من عدد التيجان المذهبة المطبوعة في اعلى الاقمشة دون ان ينظروا الى جودتها التي كانت تدل عليها تلك التيجان . فنتج على اثر كل صفقة مشادات طويلة ، مع ان المشترين كانوا ، قبل هذه الخدعة ، يثقون باستقامة اصحاب المصانع ، ولا يخامرهم اقل شك بعدد التيجان وبيان ( قائمة ) مستورد هذه البضائع . ولكن الخدعة الآنفة فتحت الاعين وايقظت الافكار . فاصبحوا يتذمرون من نقص في طول « الاثواب » الذي كان لا ينقص .

ثم ان هنالك عيوباً اخرى فتحت في مجال الملاحقة على اثر اكتشافها .

ان اسم الصانع لم يعد موجوداً على هذه الاقمشة ، كما انه لم

يُر عليها اثر اي خاتم ما . والالوان، وبصورة خاصة الثالثة منها، أصبحت باهتة معتمة ، ولعلها غير منسقة ايضاً .

ان وزم البضائع كانت مرسلة بدون نموذج ، او ان هـذا النموذج او هذه الرزم كانت مقلدة .

لقد استبدلوا نماذج المصانع المشهورة بنماذج ليست مـن عملها وصنعها .

وهذه الخدع اضرت بنا ، بل ساعدت الاقمشة الاجنبيـة على ان تحل محل اقمشة مصانعنا .

كانت المراكب تتردد كثيراً الى بيروت . الا انها كانت تعود كلها فارغة تقريباً ، لان انتاج سوريا ، حتى في الحالة التي تكون فيها اسعار الحرير ملائمة ، لا يكاد يشحن باخرتين او ثلاثاً .

كانوا يدفعون ثمن البضائع المستوردة ذهباً وفضـة . ولولا الحرير الذي تحتاج اليه كثيراً مصر وانحاء سوريا الاخرى ، لخلت البلاد من النقود .

ان استهلاك كميات كبيرة من الحرير في اوروبا قـد اساء جداً الى اعمال التجارة ، اذ تجاوز الحدود التي فرضتها التجارب لتبقى الاسعار ثابتة . كان يتوجب على التجار الاوروبيين ان يحسنوا فهم هذه النظريات والحسابات لان العرب يفتقرون الى بعد في النظر سواء اكان في اعمالهم البيتية ام في اعمالهم التجارية . انهم اناس يفسدون الحرفة ، والاهتمام البالغ الحد في عرفهم كفر بالعناية الالهية . استقى المسلمون مثل هذا الاعتقاد مـن القرآن ، والمسيحيون الذين هم قرود المحمديين يجدون مبرراً لهذا التوهم عندما يتمسكون بحرفية بعض آيات الكتب المقدسة .

واری لزاماً عليّ ان اقول هنا ان الاختلاف البين الذي يلاحظ بين الواردات والصادرات ناتج : اولاً – عن ان سفاتج النقد والاشياء الثمينة التي جرى التداول بها بصورة خفية لم تفضح او تعلن ، ثانياً – ان المرتجعات كانت تعقد في مقابل سندات لحاملها، وهكذا كان يقتطع تجار البلاد لانفسهم جزءاً من السفاتج التي يرسلونها على اثر توقيع بولصة الشحن .

وخلال السنوات الثلاث التي تيسرت لي فيها مراقبة جميع اعمال مرفأ بيروت مراقبة دقيقة ، يوم كانت التجارة لا تمارس بسبب الاغريقيين ، الا على سفن اوروبية ، استطعتُ ان ألاحظ بانه أستورد في الاعوام :

**١٨٢٥**

| | | |
|---|---|---|
| لآلىء | ١٩٠٠٠ | فرنك |
| ريش نعام | ٤٠٠٠ | فرنك |
| شالات | ٢٨٠٠٠ | فرنك |
| حاجيات مختلفة | ٩٧٠٩٢٠ | فرنك |
| المجموع | ١٠٢١٩٢٠ | فرنك |

**١٨٢٦**

| | | |
|---|---|---|
| لآلىء | ٩٨٠٠٠ | فرنك |
| شالات | ٣٠٠٠ | فرنك |
| حاجيات مختلفة على سفن تجارية | ٤٦٩٠٠٠ | فرنك |
| حاجيات مختلفة على سفن حربية | ١٥٠٠٠٠ | فرنك |
| المجموع | ٧٢٠٠٠٠ | فرنك |

**١٨٢٧**

| | | |
|---|---|---|
| لآلىء | ٣٩٠٠٠ | فرنك |
| شالات | ٢٠٠٠٠ | فرنك |
| حاجيات مختلفة | ١٠٢٩١٠٠ | فرنك |
| المجموع | ١٠٨٨١٠٠ | فرنك |

وهكذا يمكننا ان نعتمد معدل هذه السنوات الثلاث لنقيس عليه البضائع المصدّرة الاخرى التي لم نعرف عنها شيئاً . ومن هنا نتج ان المدفوع كان اكثر من المقبوض .

ان البضائع المصدرة التي كانت تنقلها كل شهر المراكب الهوائية او البخارية لا تنقص قيمتها عن الستماية او السبعماية الف فرنك .

ففي ازمير والاسكندرية ومالطة ومرسيليا كانت تحول السفاتج الى سندات لحاملها لترسل من ثم الى المراكز التي يجب ان تدفع فيها .

# الفصل العشرون

بيروت ودمشق ايهما احرى بان تكون مركزاً
للمؤسسات الاوروبية . الحجج التي تؤيد بيروت .

في سوريا اليوم مشكلة لم تحل حلاً يرتاح اليه رجال التجارة . وهذه المشكلة تدور حول معرفة اي المدينتين ، بيروت ودمشق ، احرى بان تكون مركزاً للتجارة الاوروبية . ولكي يستطيع القارىء الحكم ، فسأقدم له اولاً حججي الخاصة ، المخالفة للقائلين بافضلية دمشق ، ثم اتبع ارائي بملاحظات ابداها احد مؤيدي هذه الفكرة ، وهو من الذين عرفت فيهم دمشق اكثر الناس اندفاعاً لتأييدها .

ارادوا ان تصبح بيروت اسكلة مرور ( ترانزيت ) فتصير من دمشق كالاسكندرونة من حلب . ثم ينقل القنصل منها ليقيم في دمشق ، مجارين في ذلك انكلترا التي قررت ان تجعل دمشق مقر ممثلها الاكبر .

ان بين حلب ودمشق اختلافاً كبيراً ، والفرق اشد واقوى بين الاسكندرونة وبيروت . فحلب ، نظراً لموقعها الجغرافي ، هي اهم نقطة للاتجار مع ولايات الكرمان ، وديار بكر ، وارمينيا وكردستان الغنية ، في حين ان دمشق تقع على طرف الصحراء وليس لها الا علاقات قليلة الاهمية مع بغداد ومكة ، لان حلب

والقاهرة تزاحمانها فيهما .

فالاسكندرونة هي قرية يسكنها حوالى ٢٠٠ شخص تقريباً .
اما بيروت فعدد سكانها يراوح بين ١٥ و١٦ الف شخص ، ناهيك بان موقع الاسكندرونة غير موافق من جميع نواحيه ، فهواها اكثر الهواء فساداً ، ومجاورتها لباباس وجبل الجياور تجعلها خطرة جداً ، فضلاً عن انه لا يستطاع نقل البضائع الكثيرة اليها اذ لا مستودعات فيها ولا مخازن . وهي تكاد تكون بلداً قفراً لان ضواحيها غير مأهولة .

اما بيروت فتتمتع بمناخ صحي جداً ، ومركزها اكثر المراكز هدوءاً وأمناً . وهي تقع في نقطة مـأهولة ، من لبنان ، كثيرة الاستهلاك ، حتى ان البعض من اهاليها الميسورين يتعاطون اعمال التجارة في مرسيليا . ولا ننس قربها من البلد الذي ينتج الكثير من الحرير الممتاز .

ولبيروت اسبقية على حلب في القيام ببيوعات ذات آجال معينة، فحلول موسم الحرير هو الوقت الذي تستحق فيه جميع الاموال . ان من يبيعون تفاريق ( بالمفرق ) يقبضون المبالغ التي اسلفوها ، ويدفعونها الى من ابتاعوا حاجياتهم منهم ، وهؤلاء بدورهم يولفون من هذه المبالغ ، المضافة الى منتوجات موسمهم ، الكميات التي تعهدوا بها للتجار .

اما في حلب او الشام فكثيراً ما يتجاوز وقت الدفع آجاله المضروبة ، كما ان القوافل لا تصل في مواقيت دقيقـة ، وهي معرضة الى اخطار قلما تنجو منها . والذين يقطنون حلب يعرفون ان اثمان المبيعات لا تقبض كاملة الا بعد انقضاء عشرين او ثلاثين

شهراً. اما في بيروت فالسندات تدفع حين الاستحقاق .

وبيروت تنتج من الحرير ما يبلغ ثمنه مليوني فرنك ، بينما دمشق لا تنتج الا قليلاً من الازارات .

حاول الانكليز مراراً ان يستقروا في دمشق ، ثم أضطروا الى العدول عن ذلك . نعم ، ان دار قنصليتهم لا تزال قائمة فيها حتى اليوم ، ولكنها لم تعد قنصلية عامة بعد ما تمت المواصلات مع الهند عن هذه الطريق . فلو كان الامر ذا اهمية ، كما يزعم انصار دمشق ، لما بخل الانكليز عليها بقنصل ذي درجة عالية . ولقد انشأت فرنسا ايضاً في دمشق قنصلية من الطراز الاول املاً باجتذاب التجارة الفرنسية اليها . الا ان هذا العمل لم يسفر عن نتيجة طيبة ، مع ان موفدنا هناك كان السيد م . بودان . فليس اذن عدم الحماية هو الذي كان يحول دون استقرار مواطنينا في دمشق .

استخفت الانكليز خطة تقوم على اساس واهٍ ، فاخفقوا في تحقيقها . فاذا ما طالعنا بيان غرفة التجارة في مرسيليا[1] ، نقرأ في الباب المتعلق بصيدا وتوابعها :

«ان عكا وصور وصيدا ويافا والرامة تؤلف جزءاً من هذه الاسلكة .»

ثم نطالع في محل آخر :

«انه يمكن تخمين قيمة الاعمال التجارية الداخلة اليها بمبلغ ١,٥٠٠,٠٠٠ فرنك ، والقيمة العائدة بمبلغ ١٨٠٠,٠٠٠ فرنك .»

١ ٢٨ كانون الثاني ١٨٠٢ .

واذا قابلنا بين اليوم والماضي، نجد ان الحالة لم تتغير الا قليلاً، فالتجارة ما زالت تقريباً هي هي[2]، ولكنها انتقلت من أياد الى اخرى. وهكذا نرى ان بيروت احتلت المركز الذي كانت تحتله صيدا في الاساكل الجنوبية.

وبعد انطلاق تجارنا لاستئناف اعمالهم على اثر الحرب التي تلت غزو مصر، اصبح من المتوجب عليهم ان يختاروا الاسكلة التي يرغبون فيها. وطبيعي ان تنتقل التجارة، التي اصبحت حرة، الى المكان الذي يوافقها اكثر من سواه. واذا كانت الاساكل الاخرى تضم بعض تجارنا فبيروت تضم منهم عدداً اكبر واوفر ثروة.

ان مجاورتها للجبل جعلت الذين تهافتوا اليها في مأمن من بلص السلطة التركية واختلاسها. ففي استطاعة بيروت ان تكفي سوريا بكاملها، ابتداء من طرابلس حتى حدود مصر. ان العادة، وهي مستحكمة عند شعوب هذه البلاد، تحملهم على تفضيل التموّن منها بدلاً من ان يبتاعوا حاجياتهم من اقرب الاماكن اليهم. ولذلك كانوا يقولون ان البضائع التي تشترى من بيروت تكون مملوءة حياة، ولكنها تصبح كالميتة عندما تستورد من الداخل.

أحدث تهافت تجار بغداد والشام والمدن الاخرى في سوريا

٢ ان قيمة استيراد بيروت من فرنسا بلغت ٣،٠٠٧٨،٣٤٨ فرنكاً، والصادرات ٢،٠٧٣٧،٣٩٠ فرنكا، وقد يكون هذا ناتجاً عن خطورة الحوادث التي منعت، في فترة ما، المواصلات.

تزاحماً قوياً بين البضائع المصدرة . وهذه المزاحمة يستفيد البائع منها دائماً ، ولا يمكن ان تحصل اذا ما انحصرت علاقاته بالمشترين المحليين فحسب . فمن الضروري ان يقوم وسطاء بين البائع بالجملة ، والبائع بالمفرّق ، والمستهلك . وحيث لا تجار يدفعون نقداً ، او يقدمون بضائع ، نُضطر الى فتح الاعتمادات . ولا يوافق التعامل هكذا الا مع من يقدمون بعض الضمانة ، سواء اكانوا ملاّكين او رأسماليين .

كانت عقود التأمين تكفل سلامة البضائع حتى دخولها بيروت . اما المخاطر التي تلحق بها برّاً فكانت على عهدة المصدرين . وهذه المخاطر ، اي أخطار النقل ومصارفات المرور ، تضاعف ثمن الحاجيات وتقف حجر عثرة في سبيل نفود البضاعة الزهيدة الثمن ، ولاسيما اذا كان متوجباً على تجار يافا ونابلس والقدس ان يتبضعوا من دمشق كما يتبضعون من بيروت . انهم يُجبرون حينذاك على دفع مصارفات نقل باهظة ، ورسوم جمارك جديدة ، كما انهم يتعرضون لكثير من المخاطر ، وعلى الاخص في فصل الشتاء ، لان البلدان التي يقطعونها تخترقها الانهر ، واكثر هذه الانهار لا جسور لها . اما من بيروت فتشحن البضائع باقل نفقة الى مرافىء الشاطىء . ثم ترسل ، من هناك ، الى الداخل ، وبطريقة ابراز « التذكرة » توفر رسوم جمرك ثان .

ان وصول قوافل بغداد هو حدث خطير في دمشق ، يعيد اليها مرةً ، في السنة ، نشاط محلاتها التجارية بعد ان يكون قد اعتراها خمول حياة على وتيرة واحدة . ان قدوم هذه القوافل موسم يحفل بالصفقات التجارية ، ولكن هذه القوافل اصبحت

نادرة جداً [٣] بعد ان كانت منذ عهد بعيد لا تقل عن خمس كل عام .

دونكم الآن تقويماً عن احدى هذه القوافل التي تتألف من ٢٤٠٠ جمل :

١٢١٤ جملاً تنقل التنباك ، ٢٠٣ تنقل المنسوجات ، ١١٧ تنقل الغدد النباتية ، ١٢٠ الزعفران ، ٣٨٠ الجلود ، ٩ النيل ، ٥ شعر الماعز ، ٦٠ قصب الكرز الذي تُعمل منه مواسير الغلايين ، ٨٣ البن ، ٨٠ خشب الصباغ ، ٢٥ المغرة ، ٢٠ الصموغ ، ٤ مواد الذهب والفضة ، ٤ رزم الشالات ، ١٥ الخزف . اما الخمسة والخمسون جملاً الباقية فتحمل امتعة ومؤن المسافرين والقافلة .

والسيد شابوسو ، وهو الذي أسأله ان يجيبني ، نظراً لتفضيله دمشق بصراحة ظاهرة ، لا ينكر البتة اهمية موقع بيروت ، ومع اعترافه باننا لم نحسن اختيار مركز مؤسساتنا على الشاطىء ، قد كان يرى ان تجارتنا بالمصنوعات ، التي استوردناها وصدرناها من سوريا واليها ، كانت اكثر أرباحاً لو عرضت من نقطة متوسطة كبيروت .

ان هذا الطبيب الافرنسي قد جار في حكمه على مؤسستنا في طرابلس التي سماها « مدفن الاوروبيين » ، وادهشه اننا ما زلنا نحافظ عليها حتى يومنا هذا ، فقال :

٣ نعلم ان ذلك ناشىء عن قوى العشائر الهائلة . ففي عام ١٨٤٣ نهبوا قافلة بين الشام وبغداد ، وقدر المبلغ بـ ٧٠٠٠٠٠ فرنك ، ومنذ ذاك الوقت اضطرت القوافل في رجوعها ان تطوف حول المدن وتأتي عن طريق حلب وحماة وحمص .

« ولكن هي قوة العادة ، وتأثيرها . انهم لا يلاحظون إلا كثرة المساوىء . والاسهل من ذلك ، هو القول انه لا يمكن ان تتغير الحالة ما لم تتخذ تدابير حكيمة نعالجها بها . فكم يحسنون لو نقلوا هذه المؤسسات الى بيروت . فهذه المدينة المنيعة بسبب مجاورتها للجبل ، ونظراً لمركزها الهام الذي يفضل بلا مراء جميع المراكز التجارية في سوريا السفلى ، تستطيع ان تقدم لها كثيراً من المنافع ، لا بل اجرؤ ان اقول كثيراً من الملذات ايضاً .

« مفهوم ان انتاج طرابلس ينحصر في الحرير ليس إلا ، وعلى الرغم من انه دون حرير سوريا قيمة ، فكثيراً ما يُطلب لاستعماله في صناعة مكايلنا ، وفي بضع مقايضات تقوم بها مرسيليا مع افريقيا الشمالية .

« انه يمكن ، اذن ، ان يواصل هذا النوع من التجارة لان قرب الامكنة يسهل مثل هذه الاعمال ، سواء اكان ذلك عن طريق البحر ام البر . فالقوافل تبقى على طريقها بين بيروت وطرابلس يومين كاملين ، بينما تذهب المراكب الشراعية عادة من اسكلة الى اخرى في ست ساعات او سبع . ان رياح الجبل التي تهب على الشاطىء بصورة منظمة ، في اثناء الليل ، تساعدها في الذهاب والاياب . وفيما عدا ذلك ، هل يباع اليوم[4] حرير طرابلس ولبنان ، بعد ان اصبحت الامة المثقلة بالديون عاجزة عن الشراء ، في غير بيروت ، او الزوق التي هي مركز تجارة كسروان ولا تبعد إلا اربعة فراسخ عن بيروت ؟

٤ كتب هذا البيان عام ١٧٩٥ .

« ان المؤسسات الفرنسية في بيروت لا تلحق بنا من الاضرار الصحية الجسيمة ما يلحقه بمواطنينا مناخ طرابلس . ان هواء بيروت نقي ، وطبيعة تربتها تدل على انها جافة ، ومنحدرة ، والمياه التي تتدافع في السواقي مسرعة الى البحر لا تستقر ولا تمكث لتكوّن المستنقعات .

« ان بنية الرجال فيها اقوى بكثير مما هي عليه في طرابلس ، ومنتوجات اراضيها هامة جداً : فحريرها اكثر ملاءمة لما نصنعه نحن من اشرطة وضفائر .

« وبعد هذه المقابلة نرى ان الافضلية هي لبيروت . وهي ايضاً ذات خصائص اخرى لانها تقع في وسط شاطىء سوريا . انها اسكلة كسروان ودمشق ، وفيها تستقبل بضائعنا القادمة من مصر والقسطنطينية وازمير وسالونيك وبقية انحاء المملكة [٥] . ومنها نورد بضائعنا ومقادير هائلة تطلب من بغداد وبلاد العجم والهند . ان قربها ، وأمن طرقاتها ، وهدوء خليجها المسمى بالساقية ، قد أولتها هذه الافضلية ، وأيّ منفعة لا تجنيها مؤسساتنا من هذا المركز ؟ انا لا يهمني غير عاملين هامين : توسيع التجارة والارتباط المباشر مع دمشق .

« اما فيما يتعلق بملذات الحياة ورفاهيتها فما من شك في انه ان لم تفق بيروت طرابلس في هذا المضمار فانها توازيها . اننا نعلم ان هذه المدينة كانت قديماً نعيم الرومان ، ويمكنها

٥ في تلك الايام كانت تجارة سوريا مع اوروبا عن طريق اساكل تركيا التي ذكرناها ، كما سبق لي ان قلت .

ان تكون في جميع الاوقات نعيم رجل ميسرر ، يتحلى بشيء من الذوق . »

# الفصل الحادى والعشرون

تجارة دمشق . الحجج المؤيدة للمؤسسات
التي تنشأ في هذه البلاد .

« اني اقيم في دمشق منذ اثنتي عشرة سنة . هذا ما كتبه السيد شابوسو[1]. ان هذه المدينة تقع في اوسط سوريا ، وهي كما نعلم عاصمتها . وبوصفي طبيباً ونظراً للعلاقات التجارية التي ربطتني بالافرنسيين ومواطني في هذه النواحي على اختلافها ، توصلتُ الى معرفة هذا البلد معرفة جيدة . عرفت منتوجاته واعمال تجارته وشعبه واخلاق اهليه ، واخيراً المنافع التي يمكن فرنسا ان تجنيها . فدمشق تستورد الاقمشة والطرابيش والقرمز والنيل ، والسكر والبهار والورق والحديد وما اشبه ، وكلها تباع باسعار مرتفعة . ويمكنها ان تورد المواد التي لا يستغنى عنها كالحبوب والزيت والحرير والقطن التي يزخر بها هذا البلد الخصب .

« نستطيع القول ان كل شيء في هذه المنطقة حتى صحراؤها يكاد يكون مادة تصلح للتجارة . فمن تلك البقعة المترامية الاطراف نحصل على اصواف من نوع ممتاز ، وفيها نجد الكثير من الاملاح

[1] ان هذه الرسالة مقتطفة من بيـــان وجهه السيد شابوسو الى سفارة فرنسا في القسطنطينية ، وقد بعث الى والدي ، القنصل في طرابلس عام ١٨٠٤ ، نسخة عنـــه . كادت العلاقات التجارية ان تستأنف مع تركيا ، وكلٌ ، كما يقال ، يبشر بكنيسته .

والعروق الحمراء ، وكل هذه يُحتاج اليها في عمل الصابون والصباغ . وهناك اكتشافات هامة يستطيع ان يقوم بها تاجر دقيق الملاحظة . ان تجارة الشرق ، بوجه عام ، لا تدر كسباً إلا مما تستورده من بضائع . اما اعمال التصدير فانها ، اينما كانت ، تكلف الشيء الكثير : ان سوريا وحدها يمكنها ان توفـّق دائماً ، على الاقل ، بين هاتين المنفعتين .

« ان الفائدة التي يمكن تجارتنا ان تجنيها في سوريا مسلـّم بها بصورة لا تقبل الجدل . فما عليّ إلا ان اتكلم عن الوسائل الآيلة لتحسينها . فاذا ما سمحت الظروف للفرنسيين بان ينشئوا في دمشق مؤسسات تجارية ، فبوسعي التأكيد انها ستكون الاكثر مغنماً في الشرق . ان هذه المدينة هي ، بلا منازع ، اذا استثنينا استانبول والقاهرة ، اهم مدن هذه السلطنة الشاسعة . ان مركزها الموافق ، وعدد سكانها الضخم ، وذكاء اهليها المتجه بكليته الى التجارة ، وتهافت الاجانب عليها في جميع الاوقات ، وعلى الاخص على اثر عودة القوافل الكبيرة من بغداد ومكة ، ووفرة بضائعها المشتملة على جميع الاصناف ، ان كل ذلك يبشر بازدهار تام .

« لست أنكر ان هذا المشروع تعترضه لاول وهلة صعوبات جمة . بيد اني اجرؤ على التأكيد انه ليس مستحيلاً . لاحظت ان الباب العالي يرفض بكراهية متناهية منح الاجانب حق انشاء مؤسسات تجارية جديدة . اني اعلم ان كل تجديد يستلزم نفقات باهظة ، كما اني عرفت اكثر من سواي اخلاق اهالي دمشق ، فهم بوجه عام مداجون ، جسورون ، متعصبون . إلا انهم في حقيقة

امرهم مرنون هلعون، وهم يتمدنون يوماً بعد يوم . اما فيما يتعلق بالصعوبات التي تنتج عن الباب العالي فعلى فرنسا ، اذا شاءت ، ان تقوم بتذليلها .

« ولولا اني لم اشاهد بنفسي ، خلال سنوات ، تلاقي الحجاج الذين يجتمعون هنا للذهاب الى مكة ، لان دمشق هي ملتقى جميع مسلمي اوروبا وآسيا ، ما عدا مسلمي افريقيا الذين يذهبون الى القاهرة ، لكنتُ شعرتُ بصعوبة كبيرة في تصديق ذلك . وقد قفز عددهم في بعض السنوات الى ما يقارب الاربعين الفاً .

« ان اسواق دمشق، في اثناء اقامة الحجاج فيها، وهذه الاقامة تكون عادة حوالى شهر واحد في ذهابهم وعند ايابهم ، تشبه اسواق ليبسيك ، وفرانكفورت وبوكير الخ... الخ. اننا نجد فيها جميع المواد والادوات التي يمكن ان تقدمها تجارة واسعة جداً . ان الجميع يعرفون غاية المسلم من هذه الرحلة الدينية : انها عبادة وتجارة . فقلما نجد حاجاً واحداً لا يتعاطى هذه الاعمال . كلٌ يعمل جهده . واننا نفهم ، دون ان نقيم الادلة على ذلك هنا ، ان هذه الفرص المؤاتية فريدة في نوعها للتاجر الغني برأس ماله .

« ان الحاج الذي يذهب الى مكة لا يحجم عن التزود بالحاجيات الهامة التي يمكنه بيعها ليسد بها نفقات رحلته . ولدى ذهاب القافلة نجد ما لا يقل عن الفي جمل تحمل بضائع لتباع او ليقايض بها . واذا ما عادت القافلة فانها تأتينا بالبن العدني ، والسنا ، والصموغ ، والابازير ، والانسجة ، والاواني الصينية ، وعيدان الند ، والعنبر ، وكل منتوجات البحر الجنوبي التي تعرض

آنذاك بكثرة في مكة واردة اليها عن طريق البحر الاحمر .
كنا نستقبل كل عام من بغداد قافلتين او ثلاث قوافل كبيرة يراوح عدد الصغيرة منها بين الف والف ومائتي جمل . كانت تنقل من الجزيرة البارود الابيض ، والغدد النباتية ، وجلد المعزى ، والقطن المغزول المصبوغ جيداً بالقرمز ، واقمشة بغداد وضواحيها .

« وتأتينا هذه القوافل ايضاً من بلاد العجم بجلود الخرفان والسجاجيد على اختلاف انواعها ، والكوفيات وبكل المنتوجات الجميلة التي تنتجها بكثرة هذه المملكة الشاسعة الاطراف .

« وهذه القوافل نفسها تحمل الينا ايضاً منتوجات البنغال وشواطىء كورماندل ومالابار منقولة الى البصرة وبغداد عن طريق خليج فارس . ان اهم المنتوجات التي تأتينا من هذه البلدان الغنية هي : الحرائر الجميلة ، والقطن المغزول الناعم ، والشاش على اختلاف اصنافه ، والكرموت الزاهي ، والكوفيات الفاخرة ، والاواني الصينية المدهشة التي تفد من الصين واليابان ، والجواهر ، والحجارة الكريمة ، واخيراً كل مادة تتجر بها الهند .

« وبعد هذا العرض الذي لا مشاحة في صحته نرى بدون اي مشقة ان دمشق يجب ان تعتبر كأنها مخزن عام للتجارة ( عنبر ) ، لا بل اكثر مخازن العالم غنى . فاذا كانت لنا مؤسسات مبنية على اساس متين تستطيع ان تجني ارباحاً ضخمة .

« واحدى المنافع التي لا ننتبه اليها عادة هي ان التاجر المقيم في هذا البلد لا تسري اليه عدوى الترف والقيام بنفقات باهظة كانت سبب انهيار عدة محلات في استانبول وازمير وحلب وعدة اماكن اخرى . فكل شيء في دمشق بسيط غير مركب ،

والفخفخة لم تدخل اليها بعد . ان اهليها غرباء عن البذل الطائش ، ولا يعرفون لذة غير لذة العمل والتنزه ، والاجتماعات الشريفة . فالقمار والملاهي والرقص والمآدب الفخمة والسهرات متهمة جميعها عندهم بانها منافية للحشمة ، هذا ان لم ينظروا اليها كأعمال اثيمة .

« ان اهم المصاعب التي تلاقيها بعض المؤسسات الفرنسية تنتج عن منافسة خمسة او ستة بيوت تجارية لها . ولما كانت جميع الوسائل متوافرة لديها بمقدار كبير فلم تكن تتأخر عن استعمالها. ومن المحتمل انها كانت تجد لمناهضتنا مبرراً دينياً ، واي انسان لا تسيره عصبيته وانانيته نحو الغاية التي يرمي اليها ؟ فهنالك طريقتان للحد من هذه المنافسة المؤذية : خط شريف ( فرمان ) يرد هذا الكيد ، او حاكم حازم ينتصر لمؤسساتنا ويحميها .

« اننا لا نضام إلا في هذه المضاربة التجارية . اما فيما عدا ذلك فقلما نجد بلداً من بلدان تركيا يستطيع الفرنسي ان يتمتع فيه بحرية حقيقيــة كما في دمشق . انني اعني الحرية في مختلف وجوهها . فبقطع النظر عن ممارسة الديانة بصورة علنية ، والتي يُقام برتبتها في كنائسنا كما يُحتفل بها جهاراً في القسطنطينيـة ، نرى آباء الارض المقدسة والكبوشيين الذين يحافظون ، كما حافظوا اينما كانوا ، على لباس جمعياتهم ، يتنقلون كل يوم في مختلف الاحياء دون ان يزعجهم شخص ما .

« انهم يتنزهون ويذهبون الى الحدائق آخذين معهم زادهم ، حتى ان كل عائلة لا بل كل شخص يمكنه ان يعمل مثلهم دون ان يرى عيباً في ذلك . ولست اذكر ان افرنسياً ما ، سواء اكان عابر سبيل او مقيماً ، وجهت اليه اهانة مهما تكن ضئيلة . ان

الشبيبة في تركيا هي ، كما نعلم ، على جانب كبير من القحة . اما في دمشق فأؤكد انها ذات اخلاق دمثة ، توحي ارتياحاً تاماً . اننا نجد هنا اصولاً للياقة . ويعتبر مغفلاً او عديم الفطنة كل من لا يتقيد بها .

« اننا مدينون ، ولا شك ، بقسم كبير من هذه الراحة ، الى اهتمام قوى الامن الواعية . فالحالة ليست كذلك في جميع انحاء الشرق . ان الجزّار هو نسيج وحده في هذا المضمار . ولو لم يكن حكمه اكثر الاحكام ظلماً وقساوة وبربرية ، لكان بوسعنا ان يهنيء بعضنا البعض الآخر لاقامتنا في اسعد نقطة من اراضي المملكة العثمانية الواسعة . »

لن أدل القارىء على ما في هذه الرسالة من مبالغة ، ولكنني الفت نظره الى ان موقع دمشق التجاري فقد كثيراً من اهميته حينما ترددت التجارة بين اتباع طريق رأس الرجاء الصالح وطريق تريبزوند .

# الفصل الثاني والعشرون

آثار بيروت وضواحيها . منبع نهر بيروت .
اطلال بعل مرقد ( دير القلعة ) .

قلت في الفصل الاول ان اسم بيروت مأخوذ من اسم بروتس المشتق من بروا التي قامت بتشييدها عندما اختار اوجيكاس ، زوجها الملكي ، هذا المكان من شاطيء سوريا ليرتاح فيه بعد غزواته العديدة . وبناء على ذلك تكون هذه المدينة ، بلا ريب ، أولى مدن العالم ، ويعود تاريخ تخطيطها الى اقدم القرون . ومهما يكن من امر فلا يمكن ان يعود تاريخها الاول الى ما قبل عام ١٧٤٨.

قال اريستيب دي سيران في تاريخه عن ليبيا : ان اوجيكاس بعد ان استراح في هذه البلاد الجميلة من متاعب كثيرة سمي « نوى » Noas التي تعني في لغة البحار الغفوة والراحة[١] .

وهذا المعنى الذي يتوافق ايضاً واللغة العربيـة حدا بي الى التفتيش عن مشابهات اخرى بين هاتين اللغتين . ولقد وجدت ، في القليل مما تمكنت من مراجعته ، الكلمات التالية :

١ خطبة القاها السيد فورتيا دوربان في الجمعية الاسيوية بتاريخ ٤ شباط سنة ١٨٢٨ .

| الفينيقية | العربية |
| --- | --- |
| قدموس | قديم ، قديمون |
| تيابا | طيب ، طيبة |
| غديروس | غديري |
| هورام | حَرَم |
| داب | دابّة |
| لاهام | لحم |
| ديران | دري ، يدري |
| لابان | لَبَان |

وينبئنا الكتاب الاقدمون ان الفينيقيين قد اتوا الى شواطىء سوريا من خليج فارس وبحر القلزم . فاذا كان هذا الشعب هو الذي اخترع الحروف الابجدية وعلّمها الاغريق ، فمن الطبيعي ان نعتقد انه علّمها ، اولاً ، اهالي سوريا الذين استقر عندهم .

ان قدموس ، كما رأى بلين [٢] ، هو الذي حمل الابجدية الفينيقية الى اليونان . كانت ستة عشر حرفاً ، فاضاف اليها « بالاميد » اربعة تؤلف الالفباء اليونانية الحالية .

وهكذا ، فاذا حذفتُ الحروف التي تتشابه في اللفظ مثل : ت ، ط ، ض ، ظ ، س ، ص ، ز ، ذ ، والتي تجعل عدد الحروف العربية ٢٨ حرفاً ، اكونُ قد اعدتها الى العدد نفسه الذي هي عليه الفباء اليونان . واذا شئنا ان نعيدها الى الفينيقية فيجب حذف العين والغين والهاء والكاف والشين ، هذه الحروف التي دعت

٢ التاريخ الطبيعي ، الكتاب السابع ، الفصل ٥٦ .

الضرورة الى اختراعها ، واختراع الثانيـــة الاخرى المذكورة سابقاً لتكسب اللغة العربية طلاوة .

يقول السيد كور دي كابلين [3] « ان التلفظ بالكلمات كان نتيجة طبيعية لتركيب الجهاز الصوتي ، وانه منذ البدء تلفظ الناس بكل الكلمات الاولى التي تصور بطبيعتها الاشياء ، وتعبر عن احساسات وتفكيرات . »

لقد فتشت في جميع انحاء سوريا عن مكان يطابق اسمه التقليدي « أرجو » - اسم البارجة التي ركبها اوجيكاس - فلم اجد سوى عرجس قرب طرابلس .

ويحدثنا التاريخ « انها حفظت في هيكل شيّد خصيصاً لهذه الغاية في جبل لبنان تذكاراً لقدوم اوجيكاس ، وان هذا الهيكل سمي أرجو . »

اننا ندهش اذ لا نشاهد في بيروت اثراً خليقاً بعظمة هـــذه المدينة . فما يجده الرحالة اليوم تافه جداً بالنظر لما كان ينتظر ان يراه فيها . فبقليل من الخيال، والاستعانة بالاعمدة الباقية، نجد، اذا ما اتجهنا صوب الشرق ، ابتداء من الاعمدة التي مـــا تزال منتصبة في المسجد المحمدي الصغير المسمى بـ « الرجال الاربعين » ، آثار هيكل قد تكون هذه الصفوف من الاعمدة تؤلف اروقته . واذا حكمنا، بالقياس ، على صف الاعمدة القائمة وحدها ، وعلى الكثير المرمي على مقربة منها ، نستنتج ولا ريب ان هذا الهيكل كان فسيحاً جداً . واني اقول ، وهذا رأيي الخاص ، ان الاعمـــدة

٣ فكرة عن العالم الاولي ، الجزء الاول ، ص ١٠ .

الباقية هي اعمدة الجهة الشمالية ، اذ لا نزال نجد عدة اعمدة من الصوان ، من الحجم نفسه ، في ناحية تحمل على الافتراض ان الرواق الجنوبي كان يبتدىء بها . ان الاعمدة الموجودة على طريق باب الدركة وبرج الكشاف تتخللها مساحات صحيحة القياس تحملنا على الاعتقاد بانها لا تزال في المكان نفسه الذي احتلته في هذه البنية .

ان باب الدركة يعلوه حجر ضخم مزين بالوسوم وقد حفرت عليه مخطوطة العمود . وهو فيما عدا ذلك يصلح مقياساً لمساحة الهيكل . اما المخطوطة فقد أخذت صورة عنها ، إلا انها غير واضحة .

وعلى مقربة من المكان الذي يسمونه المرفأ الصغير نجد بناء في شكل نصف دائرة لم يبق منه سوى اساساته ، ويُظن انه كان ملهى يرتادونه في النهار .

ونرى هنا وهنالك نواويس صنعت من مواد مختلفة وصخوراً اقتلعت من ضواحي بيروت وحفرت ، كما قلت ، لتستعمل مدافن .

اما بقايا البناية القديمة التي تقع على مقربة من المكان الذي يزعمون انه المكان الذي صرع فيه مار جرجس التنين ، فهي تحوي ايضاً مدافن صغيرة : اثنان منها للجهة الشمالية في الاسفل ، والثالث محفور تحتها ويقطعها طولاً . وهذه البناية ذات شكل غريب ، يُظن لاول وهلة انها مهيأة لعمل مائي . فانابيب الفخار التي وضعت فيها تدل على انها كانت معدة لجر المياه . الا انه يُفهم ، عند رؤية المجاري عن كثب ، انها لم توضع هنالك الا للزينة ، لان عمقها يراوح بين ١٨ و٢٠ سنتيمتراً ، وهي مسدودة

من الداخل . وهناك قسم باق من حائط سور بيروت بُني بحجارة يدل شكلها ولونها على قدمها .

ان بلاطة جميلة من الفسيفساء أكتشفت هنالك عام ١٨٣٦ . ثم عثر على بلاطات بلغت من الفن غايته ، ولكن التنقيب حطم قسماً منها . اما انا فكان نصيبي رأس رجل مسنّ ، وقور الملامح . وظلت الفسيفساء التي لم يُتمكن من نزعها عالقة بكمية من الطين ، فاضطررت الى ترك اللوحة في حديقتي . ثم كان زلزال اول كانون الثاني سنة ١٨٣٧ ، ففرق بين هذين المراكبين وحول الفسيفساء الى الف قطعة وقطعة .

عثر الباحثون على نواويس عديدة في بيروت اهمها اثنان ينفردان بشكلها ، وبالنقوش التي عليها . غير انه لا يحق لنا ان نحكم عليها تبعاً لالمامنا الفني وذوقنا الحاضر . فاحدها نقشت عليه هذه الحروف IVLIA MAMMEA . وهذه الآثار اشتراهـا اميركيو الولايات المتحدة ونقلوها الى بلادهم .

ووجدت في ضواحي بيروت نقوداً كان يتداولهـا محاربونا الصليبيون ، وقطعاً نقدية اخرى بقيمة فرنك ، باسم لويس التاسع ، وهذه النقود نقشت على وجهها السلاسل . فان الملك لويس ، كما يرى السيد ده لاسيناجري ، قطع عهداً لسجّانه بان ينقش على النقود التي تضرب باسمه رسم سلاسل العبيد علامة القبض عليه .

« ولما كان الملك لم ينس تعاسته ، بل كان يذكر بها دائماً ، يقول السيد ميشو ، فقـد امر لدى رجوعه بتبديل العملة ، ووفى بوعده . وقد جاء في احد التواريخ انهم ضربوا نقوداً صغيرة من الفضة ( بازيسيس Parisis ) ، ونقوداً كبيرة تحمل رسم

السلاسل والاصفاد لتذكر باسره[٤] . »

واول طرفة نجدها حين نبتعد قليلاً عن المدينة هي القنـــاة القديمة التي تمدّ بيروت بالمياه . يذهب اليها في طريق ظريفة جداً . وفي السهل نجد آثار المجرى الذي كان ينقل هذه الميـاه . كان بالامكان ، لو كنا في ظل دولة اخرى ، ان نرممها ونجريها الماء الى المدينة التي هي بحاجة ماسة اليه . ان مجرى المياه هـذا قائم على سطح الارض ، فهو بيّن تارة ، وحيناً يختفي تحت التراب ليظل محافظاً عــلى معدل استوائه الذي يقضي كثيراً او قليلاً من العمق . ويمكننا الحكم نظراً لطريقة بنـاء القناة بان الزلازل ، وحدها ، لا تستطيع ان تهدمها . فهي ، والحق يقال ، صنع الرومان ، وربما كان هؤلاء قد قاموا ببنائها على طريقة الاغريق . فالمجرى الذي كان ينقل مياه النبـع باقٍ حتى اليوم في سفح الجبل ، لجهة الشمال . ولما كان لا يفوت الاقدمين شيء لبعـد نظرهم المتناهي ، فقد غطوه ببلاط جميل متراص على اكمل وجه . ان هذا المجرى يُستخدم اليوم لجر المياه الى طاحونة ، وهذه هي المنفعة كلها التي جناها العرب منه ، وهم يحسبون انها كافية .

وقبل وصولنا الى النبع بربع ساعـة نجد الى الشمال مغارة سماها العرب الكنيسة ، ومغارة اخرى تسمى مغارة القصير ، كان يقيم فيها المكلف حراسة المجرى وصيانته ، هذا ان لم تكن صومعة ناسك ما . انها غرفة صغيرة مربعة الحجم ، علوها يزيد قليـلاً على المترين ونصف المتر ، اما عرضها فثلاثة امتار و١٥ سنتمتراً . امـا

٤ تاريخ الحروب الصليبية ، الجزء الرابع ، ص ٤٤٥ .

فسحة الباب فهي متر وثمانية سنتمترات طولاً ، ومتر وخمسة وثلاثون سنتمتراً عرضاً . وفي هذه الغرفة ، عند السقف لجهة اليسار ، ست طاقات مربعة ، وللجهة اليمنى خمس .

واحدى هذه الطاقات تتصل بالخارج بطاقة ضيقة طويلة . وعلى مسافة عشرين قدماً الى اليمين تقوم النوافذ . وفي هذا الوادي تقوم قرية تسمّى زيرة معن ، وقد كانت موطن فخر الدين الشهير .

أتفق ان اقتربتُ من الساقية لأتنشق قليلاً من الهواء الرطب ، فاذا بي امام عدة اشخاص يعدّون نوعاً من العجين . ولما سألتهم عن الوجه الذي يستخدمونه فيه اجابوني : لصيد السمك ... لقد جهزوا لهذه الغاية محقناً كبيراً ، او شبه ملجأ ، تاركين فيه منفذاً واحداً تعبر منه المياه .

يتألف ذلك المعجون الذي يعدونه من غدد النبتة المسماة « آذان الارنب » ، ومن ثمرة شجرة اللبنى ، ومن الرماد . تمزج جميعاً وتدق ، ثم توضع في سلال وتغمس عدة مرات في المياه حتى يذوب هذا الخليط بكامله . ان ثمر اللبنى اسمه « حوز » في لغة العوام .

ان هنالك فريقاً من الاوروبيين الذين يستخدمون حوز القيء لصيد الاسماك ، وعلى الاخص عند مجاري الانهار ، فعندما يبلغ هذا الدواء القاتل خياشيم السمكة تصعد الى وجه المياه فاقدة الوعي ، فيطلق عليها الصياد اليقظ النار ( توويبل ) ، اذ لا يمكنه تصيدها بغير ذلك ، لانها لا تلبث ان تغوص فوراً .

وفوق ينبوع نهر بيروت يقوم دير القلعة ، وقد سمي كذلك

لانه شيد والكنيسة على اطلال هيكل قديم . والعرب يطلقون اسم القلعة او الحصن على جميع انقاض العصور القديمة الضخمة .

وهذا الدير الماروني الواقع على قمة جبل تبعد مسافة ثلاث ساعات من بيروت ، والذي يتسع لما يقارب العشرين راهباً ، يتمتع بأنقى هواء . لا شيء يحول دون رؤيته ، فهو يرى من مكان بعيد جداً . والكنيسة شيدت منذ خمس وسبعين سنة في فسحة تقارب ثلثي الفسحة التي قام عليها الهيكل القديم المكرّس ، حسبما أنبأتنا المخطوطات العديدة ، لجوبيتر بعل مرقد .

وفي الجهة الشمالية لهذا الهيكل قامت قديماً مدينة صغيرة اطلق عليها هذا الاسم ، والقرية التي تقابل هذا الدير تسمى بيت مري . ان منازلها مشيدة بانقاض المدينة لاننا نجد في بعضها حجارة ضخمة وحطام المنحوتات والنقوش . ان اساسات هيكل جوبيتر القديمة شيدت على قطعة من صخور منحدرة ومقطوعة باتقان ، يبلغ طولها اثنين وثلاثين متراً وستة عشر سنتيمتراً ، اما عرضها فثلاثة عشر متراً وثلاثة وسبعون سنتيمتراً . كان الرواق يتألف من ثمانية اعمدة ضخمة من الصوان الابيض تقوم على صفين . لا تزال اربعة منها قائمة ، ويبلغ اطار الواحد منها نحو ستة امتار . واذا حكمنا وفقاً لما تدل عليه قواعدها فيمكننا القول ان تاريخها يرقى الى العصر الذهبي . وهنالك بعض اعمدة صغيرة مبعثرة أستخدمت وتيجانها لبناء الدير وملحقاته ، وهي كذلك عتقاً .

ليست الانقاض نادرة في هذا المكان ، فعلى مسافة مائة قدم من الدير نجد ، في الجهة الشمالية ، اطلالاً عديدة تدل على آثار هيكلين يرجعان الى عهد قديم جداً ، يدلان على انهما اندثرا قبل

عهد جوبيتر . ان احدهما مربع الحجم ويرتفع عن الارض متراً واحداً ، ويُصعد اليه في درج يبلغ عرضه ستة امتار . وفي وسطه صخرة قامت ، ولا شك ، قاعدة عليها ، وهو مكرس على اسم جينون . يبلغ ارتفاع الباب ثلاثة امتار و ٢٢ سنتيمتراً . اما الجدران فمبنية بحجارة حجم الواحد منها متر مربع . ومع ذلك نجد بينها حجارة طولها ثلاثة امتار وثلاثين سنتيمتراً ، وعرضها اربعة امتار . ان الاعمدة التي نجدها بين هذه الانقاض يبلغ حجمها ثلاثة امتار واربعة وسبعين سنتمتراً ، وقطرها ٤٧ سنتمتراً .

ونجد ايضاً قاعدة يزينها في وسطها اكليل من الاوراق في نصفه وردة . وبين هذه الانقاض نرى ارحاء للطحن يبلغ قطرها متراً وخمسة وستين سنتيمتراً . ونجد هنا وهنالك حجارة واجّانات تستخدم اليوم أجراناً .

وبين هذه الاطلال وفقتُ الى اكتشاف بعض الرسوم التي حفرت لتجميل بناء الهيكل . وعلى يمين هذه الانقاض ويسارها ، نجد عدداً لا يستهان به من النواويس المنحوتة في الصخور ، وهي ذات اتساعات مختلفة .

وفي منحنى الجبل للجهة الغربية ، ابتداء من القمة حتى قعر الوادي ، كتلٌ ضخمة من الصخور مختلفة الاشكال . واغلب الظن ان المقلع الذي أقتطعت منه الاعمدة وحجارة الهيكل وابنية بعل مرقد الجميلة كان هناك .

ان مياه هذه المدينة والهيكل كانت تأتي من ينبوع يبعد عنها مسافة ثلاث ساعات بواسطة مجرى حجري ، لا نزال نرى آثاره ممتدة على طول الطريق في حالة زرية ، وسيبقى هكذا الى

الابد بفضل تغافل القرويين .

وبين المخطوطات التي عثرتُ عليها بين الانقاض اثنتان منها باللغة الاغريقية تمتان بصلة الى تاريخ انشاء هذه القناة . لقد شاء مؤسسها ان يخلد ذكر حسن صنيعه ، هذا الصنيع الذي هو بحق قيم جليل ، لان وزراء الاله جوبيتر الكبير الذي كانوا ينعمون بمناظر جميلة ، وهواء ممتاز ، لم يكونوا يرغبون الا بالماء العذب . انه الشيء الوحيد الذي كان ينقصهم .

وبين بيروت ونهر الكلب يقوم دير مار الياس الصغير الذي خلف ولا شك احد الهياكل . ان العرف القديم المتبع وعادة الذهاب الى هــذا الدير لحلف اليمين ، عندما يطلبها القاضي من فريق ما ، او يتوقف عليها حل خلاف في احد المنازعات ، ذكرانا بهذا النوع من الاختصاص الديني القديم . ان المسلمين والدروز يؤمنون ايضاً ببطش مار الياس وفتكه . وقد اكدوا لي انه لايوجد في البلد واحد يجرؤ ان يحلف به زوراً . ودون ان اناقش صحة هذا الزعم ، استطيع ان اؤكد ان ذلك البلد يزخر بالكذابين ، لان الكذب هو عند الشرقيين طريقة مجدية ، او خدعة بريئة ، او نوع من المهارة .

# الفصل الثالث والعشرون

اثار نهر الكلب .

ان آثار نهر الكلب اصبحت معروفة تماماً في ايامنا هذه ، ولا سيما بعد ان سبك السيد بونومي قوالب لها من الجص . لا مجال للتحدث عنها ههنا ، لانهم كتبوا عنها كثيراً . غير اني احسب ان القارىء سيقرأ بشغف الرسائل التي بعث بها اليّ السيد لاجار العضو في المجمع العلمي ، وجوابي عليها ، فهي ، كما اظن ، احسن طريقة تمكنه من ادراك اهمية هذه الآثار نظراً لقدمها غير المنازع عليه .

## الرسالة الاولى

باريس، ٢٥ حزيران ١٨٣٤.

« عندما تشرفت بمقابلتكم في باريس ، لسنوات خلت ، تفضلتم واطلعتموني على صورة نقلت عن احد الآثار المنقوشة في واجهة الصخور بضواحي بيروت . ربما تذكرون ان هذه الصورة التي تهمني جداً قد فسحت لي في المجال لاخبركم ان رحالة انكليزياً هو السيد بانك قد اخذ بنفسه ، او بواسطة غيره ، من المحلة نفسها ، نسخة عن مخطوطة كتبت بلغتين : القسم الاول كتب بالحروف الهيروغليفية ، والثاني بالحروف المسمارية . وبهذه المناسبة دللتكم

آنذاك على الذكر المقتضب لهذا الاكتشاف الذي ادخله السيد شامبوليون في طبعته الثانية ( ١٨٢٨ ) من كتابه الموجز في الخطوط الهيروغليفية ، الصفحة ٢٧٢ ، تحت هذه العبارة : « اننا نجد ايضاً هذه المخطوطة الملكية نفسها ( مخطوطة رعمسيس التي ايدها كري ) في مخطوطة كتبت باللغتين الهيروغليفية والمسمارية . ان هذا الاثر الثمين موجود في نهر الكلب بسوريا وهو ( بالطبع نهر الاقدمين المدعو ليكيس ) قرب بروتوس القديمة ( اي بيروت التي تقع بين بيبلوس وصيدون ) . »

« ان رعمسيس ، كما اذكر ، لم يكن يحتوي على مخطوطة هيروغليفية . انما هنالك اشارة غامضة الى مخطوطة كتبت بالحروف المسمارية محفورة على صخر رملي الى جانب شخص لم البث ان عرفت به ملكاً عجمياً من سلالة الاشمونيين Achéminides . اظن اننا نجد في المكان نفسه ، حيث عثر على هذا الاثر الطريف ، عدة آثار اخرى لا نزال نتبين منها بضعة رسوم وجوه ومخطوطات هيروغليفية ، اكل معظمها هواء البحر وغيره .

« وهناك نبأ آخر ، نشر حديثاً في مجموعة تقوم بطبعها جمعية علوم المراسلات الاثرية ، المؤسسة عام ١٨٢٩ ، وهي جد محترمة ومتداولة ، قد استفز انتباه العلماء وفضولهم اذ قال ان جوالة انكليزياً آخر ، هو السيد ليريك ، وصل حديثاً الى نابولي بعد ان وجد المخطوطات الهيروغليفية والمسمارية التي اكتشفت منذ عدة سنوات في نهر الكلب . إلا ان هذا الرحالة لم يأخذ رسم الوجوه ولا نسخة المخطوطات . ان حديثه يختلف في نقطة هامة عن حديث السيد بانك ويتفق مع ما قلتموه ، فانه يزعم « ان

المخطوطات الهيروغليفية ممحوة عمداً ، في حين ان المسمارية لا تزال محفوظة على احسن وجه . »

« ان السيد لافين الذي قام ، بناء على رغبة السيد وليم جيل ، العالم الشهير بالآثار ، بزيارة نقوش نهر الكلب ، يعتقد ان هذه المخطوطة حفرت بامر من قمبيز ، وان هذا الملك محا المخطوطة التي كتب عليها بالحروف المصرية اسم رعمسيس او سيسوستريس كيلا يترك دليلاً تاريخياً كهذا ينبىء عن غزوة الملك المصري لاسيا الغربية .

« وألاحظ بدوري ان هذا الافتراض ، لو كان يرتكز على اساس صحيح ، لاصبح من الصعب تفسير تمكن السيد بانك من نسخ او استنساخ اسطورة مصرية ، في المكان نفسه ، يقرأ عليها اسم رعمسيس او سيسوستريس . وبما ان هذا الرحالة او موفده قد زار نهر الكلب قبلكم على ما اظن ، وقبل السيد لافين بعدة سنوات ، فيجب ان تسلم ، توصلاً للتوفيق بين هذه الادلة الثلاثة ، بانه : اما ان تكون المخطوطة المصرية ، التي اخذها السيد بانك او موفده من نهر الكلب ، قد أتلفت بعد سفره او سفر موفده الى سوريا ، واما ان تكون محفورة في مكان غير نائىء ، فلم تنتبهوا اليها ، لا انتم ولا السيد لافين ، ولا الذين كلفوا تنفيذ اوامر الهدم للقيام باعمال التنقيب التي امرهم بها الملك العجمي الذي اريتموني رسمه .

« وبعد ، فأرى ان ملاحظة المرحوم شامبوليون التي ذكرت ودونت ، على الارجح ، بناء على المعلومات المعطاة من السيد بانك ، لا تشير البتة الى وجود هذا الرسم المشار اليه ، او وجود اي

رسم آخر في نهر الكلب . ويظهر ان السيد لاقين هـذا ، اذا حكمنا بناء على احاديثه الموجودة بين يدي ، لم يتحدث عنها اكثر من ذلك . واني آسف جداً لعدم مواصلتكم العمل الذي شئتم ان تجعلوه في متناول الجميع بحفركم هـذا الرسم ليكون في عداد مشاهدات رحلاتكم . اني اجهل اذا كنتم عدلتم عن نشر هـذه المشاهدات . وفي حالة الايجاب ارجوكم ان لا تعتبروا طلبي نسخة عن الرسم المشار اليه ، وعن معلوماتكم المتعلقة بنقوش نهر الكلب الاخرى ، افشاء للسر . انه لمن الجائز بعد رجوعكم الى بيروت ان تتاح لكم فرصة العودة الى تلك الامكنة كما فعل صديقي العالم المرحوم سان مرتان . ومن المحتمل ايضاً ان تنجزوا عند ذاك رسم الاثر الذي يمثل ملكا عجمياً وتنقلوا بدقة المخطوطات المسمارية المتعلقة به ، هذه المخطوطات التي تبين منها ، وفقاً لما جاء في رسمكم ، انها تمت الى طريقتين مختلفتين في الكتابة ، وانها تتضمن اسم الملك الفارسي والقابه . ان الاسم والالقاب مكتوبة ولا شك باللغتين العجمية والسريانية او بابة لغة اخرى آرامية كما نرى شبيهاتها الاخرى في برسيبوليس ( المدائن ) وهمدان وفان Van, Hamadan, Persepolis .

« فسواء أنقبتم مرة ثانية في ضواحي نهر الكلب او كنتم لا تملكون سوى الملخص والمعلومات التي حصلتم عليها في زيارتكم الاولى ، فاني اعلق اهمية كبرى على الطلب الذي التمسته منكم . ويجب ان تتيقنوا ، اذا لبيتم طلبي ، وسمحتم لي بالتصرف بهـذه المستندات القيّمة ، باني اجد لذة كبرى في ان انسب الى احد مواطني فخر الاكتشاف الذي يدور حولها .

« انه لمن الطبيعي ، في وقت اتجهت فيه بنوع خاص انظار

جميع علماء الآثار الى القضايا التاريخية والمذاهب الدينية ، وآثار آسيا ومصر المصورة ، ان تستقبل الادارة العامة لمجمع علم المراسلات الاثرية ، المؤسسة في وقت واحد بروما وباريس ولندرة وبرلين ، نبأ وصول السيد لافين الى نابولي ، لتدل الطبقة الراقية على اهمية آثار نهر الكلب وتدعو السائحين المثقفين الى التنقيب في هذه الامكنة باكثر ما يستطاع من اهتمام حتى يومنا هذا ، يساعدهم في ذلك رسام ماهر هو السيد بونسون ، وزير بروسيا في روما ، ورئيس الادارة وكاتب المقال المنشور في المجموعة الاثرية . انه كان يجهل تماماً انكم ذهبتم وشاهدتم بام العين تلك الامكنة ، وانكم اتيتم برسم الملك العجمي الذي لم يُشر اليه في مشاهدة ما . وقد كتبت اليه اعلمه بذلك .

« ان ادارة المجمع تعلق اهمية كبرى على نجاح هذه المهمة ، ولا سيما ان السيد بانك يصر على عدم نشر مخطوطة نهر الكلب المكتوبة باللغتين او اطلاع احد عليها ، كما يصر على ان لا يعطي او يتنازل عن واحدة من الكثيرات التي اتى بها من رحلاته الاخرى .

« هل تأملتم طبيعة الصخرة التي نقشت عليها هذه الآثار في نهر الكلب ؟ ان البعض يقولون انها من الحجر الرملي الطري ، والسيد لافين يقول انها حجر اشهب صلب . »

## رسالة السيد لاجار الثانية

باريس ، اول ايلول ١٨٣٤ .

« اني ، خوفاً من ضياع الكتاب الذي تشرفت بارساله اليكم في الخامس والعشرين من شهر حزيران المنصرم ، ابعث اليكم

بنسخة ثانية عنه ، واستميحكم عذراً بان اضيف بعض معلومات استقيتها من العدد الاخير لصحيفة مجمع علم المراسلات الاثرية الصادرة عن روما .

« ان هذه الصحيفة تتضمن كتاباً للسيد وليم جيل يدل ، كما دل المقال الاخير الذي نشره السيد بونسون ، على الاهمية التي تعلقها الطبقة الراقية على مخطوطات نهر الكلب ونقوشه .

« ان السيد وليم جيل يصحح في هذه الرسالة بضعة اخطاء فاتت السيد بونسون ، ثم يحاول ان يثأر لمواطنيه مما اخذه عليهم السيد روزيليني ، حول هذه الآثار في مشاهداته التي نشرها في بيز بعد سفره الى مصر ، ذلك السفر الذي قام به ، كما تعلمون ، بالاشتراك مع المرحوم شامبوليون الشاب . ان السيد روزيليني يستغرب ويشكو اهمال انكلترا في عدم نشرها ومعاينتها ، في الامكنة نفسها ، كل ما يتعلق بأثر يهم التاريخ كآثار نهر الكلب حيث ترى مخطوطة محفورة بلغتين يقرأ فيها اسم رعمسيس وسيسوستريس بحروف هيروغليفية . والسيد روزيليني يدرك افراطه في الاهمال حتى انه لم يعلم هو ولا المرحوم شامبوليون لمن نحن مدينون بفكرة اكتشاف هذا الاثر الثمين .

« ان السيد وليم جيل يصرح في هذه المناسبة بان صاحب الاكتشاف هو سائح ايرلندي : السيد وايز ، وقد اعطاه ، بعد عودته من سوريا ، نسخة عن مخطوطة نهر الكلب الهيروغليفية ، وهذه النسخة نقلها حالاً السيد وليم جيل للدكتور يونغ الذي تكلم عنها في الصفحة ٥٢ من خطبة حول المخطوطات الهيروغليفية .

« الا ان رسالة السيد وليم لم تنبيء عن الفترة التي زار في

اثنائها « وايز » نهر الكلب . اننا نلاحظ فقط انها قبل الرحلة التي قام بها السيد لافين الى سوريا بسنوات عديدة . ان السيد لافين هذا قد سمي لفيك خطأ في مقال السيد بونسون .

« وانه لم يؤت في هذه الرسالة على ذكر السيد بانك ، كما انها لم تنبئنا شيئاً عما اذا كان هذا الرحالة شاهد او نقل صورة ملك مصري او صورة اي وجه آخر . وعلى الرغم من انها تشير الى قمبيز فاني لا ازال اصر على الاعتقــاد الذي راودني دائماً بان اكتشاف صورة ملك العجم في نهر الكلب ، عائد بالطبع الينا ، وان كانت تعترضنا هنا عدة اسئلة :

« ١ – المخطوطة باللغتين ( التي يحوزها السيد بانك سواء أكان نقلها له السيد وايز او رحــالة آخر ، او كان ذهب هو بنفسه وشاهد هذه المخطوطة التي لم تنشر بعد ) ، هل حفرت الى جانب الملك العجمي الذي اريتموني رسمه ام على صخر آخر في المحلة نفسها ؟

٢ – لنفرض انها لم تحفر الى جانب الملك الفارسي فهل نجد على مقربة منها آثار حفر تحملنا على الاعتقاد بانها تلاصق صورة ملك مصري ربما امحت بأمر من فاتح عجمي او بسبب آخر ؟

٣ – كيف هو نسق القسم الهيروغليفي من هذه المخطوطة بالنسبة الى القسم المكتوب بالحروف المسمارية ؟ هل هـذا القسم الاخير مقسوم عمودين او ثلاثة طبقــاً للاسلوب الذي كنــا نلاحظه في آثار المدائن وهمدان وفان ؟

٤ – واخيراً هل ان آثار النقش والحفر ، التي تُرى على واجهات الصخر في نهر الكلب ، هي غير التي رأيتموهــا ونقلتم عنها

صورة ملك عجمي ؟ ألا تزال هذه الآثار ظاهرة اليوم فيمكننا ان نحكم حين نراها اذا كانت هذه الآثار ترجع الى فن او تاريخ المصريين او الى ملوك العجم ؟ وفي الحالة الاخيرة هل يمكن الظن ان ملوك العجم قد محوا التصاوير المصرية او المخطوطات الهيروغليفية ليستبدلوها بصورهم الخاصة ومخطوطات مسمارية ؟

ان جميع هذه الاسئلة تؤكد لكم مرة أخرى جهلنا الكبير في اوروبا ما يمتّ الى آثار نهر الكلب بصلة ، وباي جزع تنتظر الطبقة المثقفة المعلومات الحديثة عنها التي استقيتموها استقاء لم تسبقوا اليه او عرفتموها بعد معاينتكم تلك الامكنة .

## جواب

بيروت ، في ٥ كانون الاول ١٨٣٤ .

اني لم اتسلم الا منذ حوالى عشرين يوماً الرسالتين اللتين شرفتموني بكتابتهما الي بتاريخ ٢٥ حزيران واول ايلول .

اني اجهل السبب الذي أخر وصول الرسالة الاولى في حينها ، وآسف كل الاسف ان يحول هذا التأخير دون اشباع رغبتكم باسرع ما يمكن . ان هذا التأخير قد اضرّ بي ايضاً فحال دون اتمام معلوماتي التي كان يستطاع اكمالها بسهولة في فصل الصيف الجميل ومعونة السيد بونومي الذي كان عندنا .

ولما كنت قد وهبت الرسم الذي تشرفت باطلاعكم عليه ، وكانت اشغالي لا تسمح لي بعد عودتي ان اهتم بغير مشاغل وظيفتي ، فقد اضطررت للقيام خصيصاً برحلة الى نهر الكلب

لامدكم بالمعلومات التي اجد بعض اللذة في نقلها اليكم .

ولما كانت رسائلكم تشتمل على طائفة من الاسئلة ، فقد فكرت في ان اجيب عليها بعد استعراضها ثانية ، لاني اذا لم أروِ غليلكم في كل شيء فستعتقدون اني تعمدت ذلك .

اظن اني لم اكن المكتشف الاول لآثار نهر الكلب التي هي على مرأى من المارة ، وقد اكون المكتشف الاول للتي فوق الطريق بمعزل عن الناس . والذي يثبت ذلك هو ان السائحين لم يتحدثوا عنها الا بعد ان ارشدتهم اليها . لقد اخذت صورة عنها عام ١٨٠٨ قدمتها الى والدي فاعطاها هو الى الذين جاؤوا الى زيارتها ورؤيتها . ان غيابي الذي استغرق فترة ثلاث سنوات لم يسمح لي ان اعرف اسماء السياح الذين مروا بطرابلس حتى عام ١٨١٢ معرفة دقيقة .

نقلت حينذاك قسماً كبيراً من المخطوطة المسمارية . واما اللوحة رقم ٦ فقد ظننت انها اغريقية ، وهذا تقدير بحث اوحاه الي الشكل المربع الذي حافظت عليه الحروف حتى يومنا هذا ، وان لم يكن يستطاع تمييزها او معرفة واحد منها . فهل تكون صفة اللغة المزدوجة التي اطلقت على مخطوطات نهر الكلب عائدة الى نوعي حروف المخطوطات ؟ يجب ان اعتقد ذلك . الا انها تصير غير قابلة التصديق بالنظر الى المخطوطتين المسمارية والهيروغليفية . هذا اذا لم يكن تلازم هذين الاثرين ( رقم ٨ و ٩ ) قد حمل على اعتبارهما اثراً واحداً .

من الممكن ان يكون بعض العارفين قد اكتشفوا آثاراً للحروف المسمارية في اسفل وجوه اللوحة المصرية . اما انا فلا

يمكنني ان اجازف بأية فكرة من هذا النوع . اني اقول فقط ان هذه الافتراضات يمكن ان تفسر وتوضح من السيدين بونومي وكاترفود اللذين اصطحبا الى انكلترا رسوماً جد صحيحة عن آثار نهر الكلب ، لا بل الطبعة نفسها عن الاثر ذي الرقم ٩ .

والسيد بونومي ، وهو نحات ومهندس مشهور متخصص بدراسة الحروف الهيروغليفية ، لم يدخر ، ولا ريب ، بعد ان نقل طائفة كبيرة منها اثناء تجواله والسيد شامبوليون ، شيئاً من وسعه ليقرأ كل ما تستطاع قراءته في نهر الكلب .

ونظراً للمعلومات الوثيقة التي ادليا بها لم تبق لي فائدة تذكر من نقل بقايا هذه المخطوطات ، ولهذا اكتفيت بنقل صور الوجوه التي لم اتمكن من الحصول عليها ، الا اثناء الليل ، بعد ان استعنت بمشعال اراني خطوطها ناتئة لانها تكاد تكون ممحوّة .

ان اللوحات المصرية مقعرة دون ان تكون مجوفة كثيراً . اما رأي السيد لافين حول محو الآثار المصرية فلا يرتكز كما اظن على دعامة .

اولاً – لان عملية المحو تعرف من آثار الادوات التي أستخدمت لهذه الغاية . ثم لو كان المحو متعمداً لما بقي مـــا نراه الآن من مخطوطات هيروغليفية لا تزال محفوظة . اما الذي اظنـه انا فهو ان المحو ناشيء عن طبيعـة الصخرة ، فهي اشد صلابة في ناحيـة منها في الناحية الاخرى .

ثانياً – لان الاطار لا يزال في حالة حسنة .

ثالثاً – لان تلف اللوحات العجمية في تناسب تام مـع تلف الالواح المصرية ، واذا ما وجدنا بين الاولى لوحـة رقم ٩ في حالة

اقل تلفاً من الباقية ، فذلك لانها استفادت من عرق اكثر صلابة من بقية اجزاء الصخرة ، ثم لان هذه اللوحات تقع في مكان منحدر وفي مأمن من الشتاء .

ان افتراض عملية المحو لا يمكن التسليم به ، اذ يقدر كل رحالة مطلع على علم الحروف الهيروغليفية ، ولو قليلاً ، ان يرى لاول التفاتة وجه واسم سيسوستريس في القسم الباقي من خطوط النقوش المصرية وحروفها . ما كاد الدكتور باريزه ، الذي توجه معي الى نهر الكلب ، يرى اللوحة ذات الرقم ٨ ، حتى قال لي وهو يشير الى الوجه : انه رعمسيس . والسيد بونومي كان من هذا الرأي ، وقد قال لي انه ادرك ما ترمز اليه هذه الآثار المختلفة . وقد رسم لي صورة رأس اتأسف لعدم حفظي اياها .

ان المنحوتات لم تتعرض لاي تلف منذ زمن ما . ولقد احبط سعي انتزاع اللوحة العجمية ذات الرقم ٩ ، ما لاقيته من مشاق عند مباشرة تنفيذه .

والصعوبة الكبرى التي تلمسونها انتم في التوفيق بين الادلة المختلفة المأخوذة عن آثار نهر الكلب ، ناتجة عن تقلقل اراء السيد بانك ولافين . ذلك لان الاول لا يتكلم مطلقاً عن الوجوه الفارسية مع انها تبلغ الستة ، واثنان منها ملتصقان بالآثار المصرية ، ثم لانكم قد تحملون على اعتناق فكرة السيد لافين القائلة بمحو المخطوطة المصرية بامر من قمبيز ، وهي المخطوطة الهيروغليفية التي اطلع عليها السيد بانك .

ان الادلة التي تشرفت بتقديمها لكم ورسم الاثر رقم ٩ الذي سبكه السيد بونومي تغنيني عن المخطوطة المسهاربة .

ان الصخور التي حفرت عليها آثار نهر الكلب هي مــن حجر قاس كلسي ابيض اللون في الداخل ، امـا سمرته الخارجية فناتجة عن تفاعل الهواء والماء .

ان الرسوم التي اجد لذة في ارسالها اليكم تجيب عـلى الاسئلة المدونة في رسالتكم الاخيرة . واكرر هنا اني لا اظن مطلقاً ان ملوك العجم قاموا بمحو المخطوطات المصرية او الهيروغليفية ، وان التلف الذي تعرضت له آثار نهر الكلب هو وليد الازمنة .

ان المخطوطة اللاتينية الموجودة في جوف الصخرة نفسها نجد فيها سطراً امحى . وهذه المخطوطة تنبئنا ان العرب سموا ليكيس ، نهر الكلب ، لمشابهة الكلب للذئب المحفورة صورته عند الممر فوق الحاجز . ولما كان هذا التمثال اجوف فارغ يعوي عند هبوب نوع من الرياح ، فقد اعتقد العرب انه كان مسكوناً ، وعزوا اليه تهدّم الجسر الذي شاءت اياد غير لبقة ان تستبدله بالجسر الذي بناه الرومان فحملته مياه شتاء قاس . وعنـد ذاك تقرر التخلص من هذا الكلب المشؤوم ، فدهور الى قاع البحر .

واضيف هنا نبذة من رسالة بعث بها والدي الى السيد ستزن تتعلق بالمخطوطة اللاتينية التي لم تفهم بعد :

« علامَ التفريق بين اوريل وانطونان التقي وكلاهما من حاشية امبراطور واحد ؟ فمن الجائز ان يكون لقب البريطاني لم يمنح لانطونان ولا لخلفه . ان كاركلاّ هو الذي ادعاه لانه رافق اباه في حملته الى بريطانيا . وهذا الملك اتى بعد ذلك الى سوريا ، واضطر لان يعبر هذه الطريق في الجبل سنة ٩٦ قبل المسيح ، وكان يقصد الاسكندرية لينزّه ، حسب تعبير مونتسكيو ، صولته وبطشه

متلذذاً بمشهد عدد كبير من الرجال ذبحوا في احد الاعياد . ولذلك رممت الطريق ووسعت اما بامر من الامبراطور ، واما لاكتساب رضاه عندما كان في انطاكية . »

حاولت مخطوطات اغريقية وعربية ان تخلد ذكرى الفاتحين الذين مرّوا في هذا المكان ، إلا ان الايام قست على تلك الآثار التي ارادوا ان يتركوها لنعرفهم بها اليوم .

لقد امليت بضعة اسطر من مخطوطة اغريقية وانا ممسك بالصخرة باحدى يدي ، حاملاً بالاخرى مشعالاً لاتمكن من قراءتها . ان الكاتب الذي رافقني لا يحسن اللغة الاغريقية إلا قليلاً ، ولهذا لم يستطع القيام بمهمته على وجه صحيح . واني اشك في استفادتنا من نقل هذه المخطوطة .

# الفصل الرابع والعشرون

وصف لبنان المسمى الجبل الدرزي . تقسيمه الى مقاطعات .
ارتقاء بيت شهاب كرسي الحكم . الميثاق .

من مقدمة كتابي هذا يعرف القارىء طريقة السياحة في سوريا . فليتصور اذن مؤلف هذه المشاهدات حاملاً عدة السفر وعتاده ، متسلقاً الجبال ، هابطاً الاودية ، باحثاً عن كل مكان خرب ذي اهمية اثرية ... قمت بعدة رحلات في لبنان ، وفي جهات جد مختلفة . ولو شئت ان اصف جميع ما رأيت وشاهدت ، لأهلكت نفسي بتكليفها ما لا تستطيع . فها انا ذا اعفيها ولا احملها فوق طاقتها من قص حوادث ذهابي وايابي ، واكلي ونومي ، وما اعترضني من شؤون وشجون ، اذ يستحيل الطواف في هذه البلاد دون مقاساة آلام الاخطار التي تواجهنا كل يوم تقريباً . فلا يُستغرب اذن تهافت عدد كبير من الزائرين على كل قادم من سفر ليهنئوه بالعودة منه سالماً معافى .

تعرضتُ لأخطار لا تحصى عندما أقتدتُ بين اللجج وسرت في معابر المعزى لابلغ خرائب زعموا لي انها موجودة ، او ادرك آثاراً اصبحت عافية ، وكم من مرة عدت اتعثر باذيال خيبة مرّة . ألزمت نفسي معرفة ما في الجبل اللبناني من آثار هامة ، وكنت مضطراً ، قبل ان اغادر المكان الذي اكون فيه ، ان اطرح عدة

اسئلة على نفسي ، وعلى السكان لأتيقن من اني لم اخلف شيئاً ورائي فيه بعض الفائدة . انه يمكنني ان اطنب في مديح نفسي لاني لم ادخر خطوة في سبيل السعي ركضاً وراء الآثار . واذا كنت قد وفقت الى بعض الاكتشافات فيحق لي القول اني قد دفعت ثمنها كثيراً من التعب والمشقة .

اني ارجع الى ما قاله من تقدموني عن طبيعة هذه الجبال الخشنة الغليظة ، القلقة المجاز ، الصعبة المرتقى ، ذات الطرقات الرديئة ، هذا اذا كان يمكننا ان نطلق اسم الطرقات على المعابر والمضايق القليلة او الكثيرة الاتساع ، والتي كثيراً ما تكون معوجة صخرية ، غير ممهدة ، يمشي عليها الناس بقوة العادة والاستمرار بل الاضطرار لان لا طرق غيرها . شغل وصف هذه الطرقات ومتاعبها من تقدموني فكتبوا كثيراً من الملاحظات . اما انا فسوف ادعها ولا اهتم الا بوصف سيماء هذا الجبل الاخلاقية . عرفت هذا الجبل في مختلف وجوهه ونواحيه اثناء اقامتي فيه خمس عشرة سنة .

ولكي احسن درسه على اتم وجه ، كما وعدت في مطلع هذه المشاهدات ، اراني مضطراً لحصر موضوع كتابي في نطاق محدود . سوف لا اتناول بالوصف الا الناحية الواقعة بين نهر المعاملتين من جهة الشمال ، ونهر الدامور لجهة الجنوب . اما في الجهة الشرقية فأقف عند الحدود الطبيعية ، اي بكليك ولاية دمشق وولاية صيدا ، تلك التخوم التي تخترق سهل البقاع طولاً . ان نهر الليطاني الذي يسمونه ايضاً نهر القاسمية هو الذي يرسم تلك الحدود .

يقسم هذا الجزء من البلاد الى ثماني مقاطعات تمتد سلطة

الامير على ٢٤ اقطاعة منها . فحدود امارته تبتدىء من جبة بشري فوق طرابلس وتنتهي في جزين قرب صيدا بطول ١٤ ميريامتر (الميريامتر عشرة كيلومترات) وعرض ستة في المكان الاكثر اتساعاً .

اننا لا ندري كم كان عدد سكان لبنان قبل عهدنا الحاضر ، فلا شك في ان ذلك العدد كان ضئيلاً . ولسنا نعرف شيئاً صحيحاً عن هذا لان التاريخ العربي ينبئنا فقط ان اثنتي عشرة عائلة نزحت من معرّة النعمان عندما كانت حكومة دمشق خاضعة لامبراطرة الروم ، اي قبل ظهور الاسلام ، واستقرت في الجبل وشيّدت فيه القرى . اما زعيم هؤلاء النازحين فهو الامير تنوخ ابن ملك النعمان ، ملك الحيرة .

واول مكان استقر به كان يدعى تيروخ Tirouch في مقاطعة المتن . ثم انتقل الى الجهة الغربية ، فاضطره ازدياد عدد عائلته لبناء قرية عبيه التي عرفت آنذاك باسم دار تنوخ . وقد فصّل المؤرخون تاريخ هذه الاسرة العريقة تفصيلاً مسهباً حتى اعتناقها الاسلام .

حكمت هذه الاسرة الجهة الغربية والجرد الاعلى من نهر الكلب حتى الدامور ، من انبساط الموج الى مرمى الثلج . اما آل بيت معن فهم اكراد الاصل ومن سلالة صلاح الدين الايوبي . قدم جدهم الاعلى الى لبنان واستقر في مقاطعة الشوف . وظل هذا البيت ينعم بالسلطة حتى ارتقاء فخر الدين كرسي الحكم .

ان عدد سكان الجبل هو حوالى ٣٠٠،٠٠٠ نفس ، ثلثا سكانه مسيحيون ، والبقية من الدروز والمسلمين والمتاولة .

زعموا ، ولا ادري على اي حساب استندوا ، ان لبنان يمكنه

إعداد ١٠٠،٠٠٠ مقاتل ، اذا ما ُجنِّد اهلوه ابتداء من عمر ١٥ الى عمر ٧٠ . اما المعقول فهو ان نتزل عدد محاربيه الى ستين الفاً . وبناءً على هذا التقدير يكون عددهم هكذا : ٣٥،٠٠٠ ماروني ، ١٥،٠٠٠ درزي ومسلم ومتوالي ، ٦٠٠٠ روم ، و ٣٥٠٠ كاثوليكي .

ظهر ، بناء على احصاء قاموا به عام ١٨٤٣ ، ان الرجال الذين يمكنهم ان يحملوا السلاح في ست عشرة مقاطعة ، ابتداء من الشوف حتى جبيل ، كانوا ٤٥،٠٥٠ ، منهم ٣٤،٠٠٠ مسيحي ، و ١٠،٠٥٠ درزياً .

اما الاحصاء الذي وقع في يدي فلا يزيد فيه عدد سكان لبنان عن ١٩٣،٨٣٥ شخصاً موزعة على مقاطعات لبنان الاربع والعشرين كما يلي : ٢٩٠ يهودياً ، ٥٣٩٥ متوالياً ، ٨٧٧٥ مسلماً ، ٢٦٤٤٥ درزياً ، ١٥٣،٠٥٠ مسيحياً .

انه يستحيل ، وتلك هي الحالة في جميع انحاء تركيا ، ان نحصل على معلومات صادقة تمكّننا من معرفة عدد السكان معرفة صحيحة . وليس ما يذكر في هذا الباب إلا تخمين مبنيّ على تحرّيات وحسابات قائمة على افتراضات غامضة . اما احصائي الذي قدّمته عن سوريا فهو نتيجة عدّة معلومات مستقاة من مصادر صحيحة ُمحّصت طويلاً .

اخذ عدد السكان يزداد زيادة مطردة في الجبل على اثر تطبيق عملية التلقيح . فالطاعون الذي كانت تظهر دلائله في الاماكن البعيدة كان يوقف كل مرة بسرعة فائقة ، لان الامير كان يطبق في بلاده الانظمة الصحية بكل دقة ، وذلك قبل ان يفكر نائب

ملك مصر والسلطان في انشاء المحاجر الصحية .

عرفت هذه البلاد باسم الجبل الدرزي لان مشايخ آل تلحوق الدروز حكموها قبل عائلتي معن وشهاب في مقابل جزية ضئيلة كانوا يدفعونها للباشاوات . فالمسيحيون ، على الرغم من انهم ابناء هذه البلاد ، لم يجرؤوا علـى الظهور ، وكانوا يفضلون الخضوع لهؤلاء النزلاءِ الذين أتوا من مصر ، وتمكنوا بوصفهم مسلمين ، ولو ظاهراً ، ان يطمحوا الى الحكم .

تمتد المنطقـة الدرزية من نهر الكلب حتى جزين حيث تنتهي الحدود الجنوبيـة لحكومة الامير بشير . لسنا نجد دروزاً قرب نهر الكلب ، ولكنني جعلت هذا النهر تخماً للمنطقة الدرزية لانه يقع ضمن نطاق المتن ، ولئلا يُظن ان هذه المنطقة تمتد الى ابعد من هنالك . فمن اعالي هـذا الجبل الذي يشرف على طرابلس ممتداً حتى ولاية عكار ، لا نجد درزياً واحداً . فجلّ سكان هذه الناحية هم تقريباً من الموارنة والروم . والاكثرية الساحقة من الروم في لبنان تقيم في مقاطعات الكوره والبترون .

ان هذه الطوائف كانت في منازعات دائمة مع المتاولة ، حكام هذه المقاطعة القدماء ومالكيها . ومـا استطاع الموارنة ان يجلوهم عن كسروان الا بعد ما شجعهم الامير يوسف ومشايخ بشري وعائلتا حبيش والخازن الذين كانوا يقطنون آنذاك ضواحي بيروت . عند ذاك اندحر المتاولة وانكفأوا متراجعين عن هذه الناحية بعد ان تناقص عددهم الى الالف عائلة ، فاقاموا جميعاً في اعالي قرى جرود جبيل والبترون .

كان امير الجبل في ذلك الزمان يتلقى من باشا طرابلس امر

توليته على البلاد التي تبتدىء في الزاوية ، وتمتد الى مقاطعة جبيل لتنتهي عند نهر المعاملتين . وكان باشا صيدا هو الذي يولي من يشاء على بقية انحاء الجبل التي تمتد حتى جزين .

حدث في وقت من الاوقـــات ان كان على رأس كل من المقاطعتين امير . ولما ارتقى الامير بشير الى كرسي الحكم انتقى الناحية التي كانت عاصمتها دير القمر ، ومنح اخاه الامـير حسناً المقاطعة التي كانت عاصمتها جبيل . فاتخذ الامير حسن بلدة غزير ، مسقط رأسه ، عاصمة لحكومته بحجة انها بلد طيب . اما الواقع فهو ان وجوده في جبيل ، مركز هذه المقاطعـة ، كان يجعله اكثر تعرضاً لوطأة السلطة التركية . فلا عجب اذن ان فعـــل ذلك امير كان يرتقي كرسي الحكم بحذر واحتراس بالغي الحد لان آلاف المخاطر تتهدده .

كانت مقاطعة كسروان اوفر جميع اقطاعـات الجبـل ثروة واكثرها عدد سكان .

وهاكم بياناً عن تنظيم حكومة لبنان قبل الحوادث الأخيرة .

| المقاطعات | الحكام |
| --- | --- |
| جبة بشري | الشيخ جرجس بوناد (?) |
| الزاوية | بيت الضاهر |
| الكوره | ابن الامير الكبير البكر |
| البترون | الامير امين |
| جبيل | الامير الكبير |

ان هـذه المقاطعات الخمس المسماة بلاد جبيل تخضع لباشا طرابلس . واخيراً ولـي عليها الامير بشير من قبل عبدالله باشـا وشريف باشا ، كما ولي في الوقت نفسه على الناحيـة المنوط امرها بعكا .

| | | |
|---|---|---|
| كسروان | الامير عبدالله شهاب | ان مشايخ هذه المقاطعة هم من آل حبيش الذين يمثلون مع مشايخ آل الخازن اكبر اقطاعيي الجبل والقوى المسلحة فيه. |
| المتن<br>العرقوب | امراء بللمع ومراد<br>الامير قاسم وبيت عماد الدرزي | احفاد قايد بيه .<br>ان اهالي هذه المقاطعة هم من اتباع الشيخ الدرزي . |
| الجرد<br>الغرب الفوقاني | الشيخ عبد الملك<br>الشيخ تلحوق | ان الاهالي هم اتباع هذين الشيخين . |
| الغرب التحتاني<br>الشوف | اسرة شهاب وبيت ارسلان الدرزي<br>الامير خليل وبيت جنبلاط الدرزي | ان هذه المقاطعة تقسم الى عدة نواح واهاليها اتباع مشايخ الدروز . |
| اقليم البلان<br>اقليم الخروب<br>اقليم التفاح<br>جبل الريحان<br>اقليم الشحار | | ان هذه المقاطعات كانت تخص المتاولة، الا ان الامراء استولوا عليها بتشجيع من الجزّار الذي ضايقه موقف المتاولة التهديدي لهذه الناحية |

من البلاد التي كانوا يعيشون
بها فساداً كلما نشب خلاف
بينه وبين الطائفة .

وهنالك بعض المقاطعات المقسومة قسمين ، كما هي الحالة في مقاطعتي البترون ، وجبيل التي سميت جرود جبالها بلاد المناولة والفتوح . ولما كان نهر الكلب يخترق بلاد كسروان اطلقوا على الجهة الجنوبية منها اسم القاطع . اما الناحية التابعة للجبل من البقاع فتدعى الهرمل .

والشوف قسمان يؤلف احدهما دير القمر وحدها ، كما تؤلف ضواحي بيروت مقاطعة صغيرة تدعى الساحل ، وامر هذه المقاطعة منوط بالامير الكبير .

اما سهل البقاع ، الذي يؤلف اليوم جزءاً من حكومة الجبل ، فهو جزء من الاملاك السلطانية ( البكليك او الجفتلك ) . كان يستأجر هذه الارض الشديدة الخصب باشوات دمشق واغواتها ، ويستثمرونها لحسابهم الخاص . ولما كان تموين اهالي لبنان لا يستطاع بدونها ، فقد اخذ امراء الجبل الطامحون في الحاقها بامارتهم يثيرون فيها الخلافات والفتن ، منذ اربعين سنة ، بين مزارعي القرى المجاورة لها ، وشركاء اقطاعيي دمشق . وكثيراً ما كان هؤلاء الامراء ينجدون اهالي القرى ويساعدونهم مساعدة فعالة . اما عاقبة هذه الاعتداءات فكانت دائماً حرق الاغلال . وهكذا كانت تبقى الارض التي أحرقت غلالها بوراً مدة سنتين او ثلاث سنوات دون ان تزرع . ان هذه الاعتداءات المتوالية لم تكن تمنع الاتراك من ان

يؤجروها ثانية ، ثم يُطرد مستأجروهـا بعد ان يمنوا بالقليل او الكثير من الخسائر[1] حتى اذا ما سئموا اخيراً هذه الغزوات والهجمات المتتابعة ولم يظفروا بطائل رجعوا عن استئجارها . لم يعد في استطاعة قوى الباشاوات ان تثبت في وجه قوات امير الجبل ، هذه القوى التي كانوا يشعرون بثقل وطأتها في جميع انحاء سوريا . ولهذه الاسباب استطاع الامراء الدروز وعدة مشايخ آخرين ان يضمنوا البقاع ويستأجروه لقاء بدل ضئيل . ثم اخذ هذا البدل يزداد عاماً بعد عام حتى بلغت قيمته مئتي كيس .

وهذه الملكية التي طالما اشتهاها امير الجبل كان يحافظ على دوامها له بدهاء ومكر : كان يدلع النيران في البقاع بواسطة التركمان والمتاولة ، ثم يظهر انه يتعقبهم الى ما وراء بعلبك . ولكن هذه الطريقة المؤسفة التي زادتها الحوادث الدامية هولاً لم تعد تخيف الشركاء القدماء الذين كانوا يشعرون بانهم جدّ سعداء اذا ما ظفروا بدخل معين ، فهو ، مهما يكن ضئيلاً ، خير من

[1] وما كاد الباشا يغيب حتى ظهر شر آخر هو نتيجة الاضطهاد والظلم .
هبت القرى المجتاحة وهاجم بعضها البعض الاخر تطالب بثأر ورائي ، وهكذا قطعت جميع المواصلات .
تلاشت اعمال الزراعة ، فكان الفلاح ينسل تحت جنح الظلام ليتلف الكرمة ويقطع زيتون خصمه . ولما عاد الباشا في السنة التالية فرض الجزية والضرائب نفسها في بلاد قل عدد سكانها . وقد اضطر لمضاعفة ضغطه وافناء شعوب كاملة . ان الاماكن اصبحت خاوية شيئاً فشيئاً ، لم يكن يرى في القرى سوى بقايا بيوت مهدمة ، وفي مدخلها قبور تزداد يوماً بعد يوم . ففي كل سنة كانت تشهد انقراض كوخ وعائلة . ثم كان ان بقيت المقبرة وحدها تشير الى المكان الذي كانت تقوم فيه القرية . ( شاتوبريان ، قصة رحلة ، الجزء الثالث ، ص ٤٦ )

انتظار ريع اكبر محفوف بالكثير من المخاطر .

وما ادرك ابراهيم باشا سر هذا النظام العقاري المخصص ريعه لنفقات زعماء القصور ( التيمار )[2] حتى استولى على تلك الاراضي واستثمرها . فلو كان غرس الاشجار في ذلك السهل لكانت تستطيع وحدها ان تجعل من هذا الوادي ، العاري اليوم تماماً ، جنة فسيحة تعطي أضعاف اضعاف منتوجاتها . ولكن ... انها لامبالاة السوريين المفرطة ، فهم يدرجون على ما درج عليه اباؤهم من قبل ، ولا يعملون الا مثلما عملوا . واذا ظلت هذه القاعدة مقود هذا الشعب الميكانيكي فلا يمكننا ان نترجى لسوريا الا حياة تعسة ومحدودة جداً . واراني مجبراً على القول ان الثقة مفقودة تماماً ، وهذا هو اهم اسباب تعاسة الولايات الخاضعة للحكم العثماني وضعفها . ففقدان الثقة بالمصير جمّد رؤوس المال وشل حركة الاخذ والعطاء .

« ان تزعزع الثقة وارتياب كل شخص في مستقبل مصيره كان يحمل جميع الناس على اختلاف طبقاتهم ، من الباشا الى الفلاح ، على اخفاء قسم من الغلال ومواراتها عن انظار السلطة الجشعة[3] . »

بعد انقراض آل معن دعي آل شهاب ( وكانوا آنذاك في حوران ) الى تولي الحكم في الجبل ، وفقاً لرغبة الاهلين ، وطبقاً

٢ ان الزيم والتيمار يؤلفون قوة ترقى الى ما قبل السلطنة نفسها . ان السلاطين منحوهم ، منذ الغزوات الاولى ، حق ولاية قسم كبير من القرى والاراضي لكي يتمكنوا باستيفائهم العشر وضرائب اخرى من حمل السلاح وحماية ولاياتهم اذا ما هوجمت . ( ديجون ، اراء تاريخية في السلطنة العثمانية ، ص ٧٣ ) .

٣ ساي ، بحث في علم الاقتصاد العام ، الجزء الاول ، ص ١١٥ .

لعهد وميثاق ، مدفوعين بما يقوم بين آل معن أسياد الجبل وبين آل شهاب من اواصر قربى .

ان الاسرة الشهابيـة حصلت على عدة امتيـازات يوم تولت الحكم ، فأيدتها هذه الامتيازات ودعمت سلطتها التي تداولها احفادها. تعهدت هذه الاسرة المالكة ، لقاء ما منحها الشعب من امتيازات ، ألا تزيد ابداً ضريبــة الاملاك والضرائب الاخرى الا بالمقدار المعين ، كما انها تعهدت بعدم تملك اراضي لا تستدعي حاجتها الضرورية الخاصة ملكيتها .

ولهذه الغاية خُصص لآل شهاب دخل سبع قرى في ضواحي دير القمر ، عاصمة الجبل ، حيث يقيم الامير الكبير الذي صار مقره بعد حين ملكاً خاصاً به .

ان عائلة شهاب التي لا تملك ، لانها غريبـة الدار ، املاكاً واقطاعات ، لم يكن في مستطاعها تملك اقطاعــات جديدة او الانفاق من مالها على تجهيز قوة مسلحة غير محدودة تصلح للخدمة العامة والخاصة بكل امير . وهي لا تستطيع تجنيد الاهلين لان هذا التجنيد لا يمكن فرضه الا اذا رضي به او امر ، مباشرة ، امراء الولايات ومشايخها ، والاقطاعيون ومدبرو اقطاعاتهم الخاصة .

ان هؤلاء الزعماء ( المناصب ) كانوا يجبون بانفسهم مال الاعناق في اقطاعاتهم ، ويوزعون الضرائب ويقبضونها ليحوزوا على صفو خاطر الامير الكبير بما يقدمونه له منها . وكان هو يعيـد اليهم قسماً من هـذه الضرائب اذا كان راضياً . اما اذا كان غاضباً فلا يمنحهم اقــل مهلة ، بل يرهقهم بجميع الاساليب حتى يدفعوا المال المفروض عليهم كاملاً .

لم تكن هذه الطريقة هي الوحيدة التي ابتدعها الامير ليوطد نفوذه ، بل نسي رويداً رويداً جميع ما يفرضه عليه الميثـــاق الصريح الذي سبقت الاشارة اليه ، والذي لم اعلم بوجوده إلا من ألسنة الناس .

خُرقت بنود هذا الميثاق الاساسية ، والضرائب والمكوس لم تحافظ على اساسها القديم ، وهو الفـــا كيس ، إلا ظاهراً ، ثم ضوعفت ، وحُصّل فيما بعد اضعاف اضعافها . ثم ظل هذا الازدياد في اطراد تبعاً للظروف . وكانت هنالك ضرائب تجبى ست عشرة مرة تحت ستار اسماء مختلفـــة : بزرية ، وطرح ، وشاشية الخ .

وهكذا أنمى الامير املاكه الثابتة ومداخيله : انمى عقاره اذ أقام نفسه وارثـاً للعائلات المنقرضة ، وانمى المداخيل بطريقـــة التخليات الطوعية والاكتسابات الشرعية ، واخيراً بما كان يغتصبه بلباقة من جيرانه الذين اثقلت كواهلهم الديون ، او اذلتهم اسرة شهاب بسلطانها . فأملاك الشهابيين وفلاحوهم معفون من الضرائب فلا يؤدّون منها شيئاً . وهكذا اصبحت هذه الاسرة الحاكمة اكثر بيوت الجبل ثروةً وغنى ، وأشدها قوةً وبأساً .

سوف احاول ، فيما بعد ، ان اصف بمقدار تصرفات الامير بشير بالقائي نظرة عابرة على حياته ، ابتـداء من ارتقائه كرسي الحكم حتى سقوطه . واني ارى ان عودة هذا الامير ، او عودة احد افراد أسرته ، حاجة ماسة لا يستغنى عنها لاعادة النظام وتوطيد دعامته في الجبل ، فالامراء الآخرون ، الذين اعترف لهم بمقدرة تسلم زمام الحكم ، اثبتوا بتصرفاتهم الكلمة المـــأثورة عندنا :

« ان ما يسطع في الصف الثاني هو الذي ينكسف اولاً . »

ولكي اتحاشى كل حكم متهور والاتهام بالمحاباة ، ها انا ذا اصرح ، في اول هذه اللمحة المقتضبة ، اني لم اكن قط شخصياً ممن يطريهم الامير بشير ويتودد اليهم ، واني رغم العلاقات العديدة التي تربطني به وبعائلته كنت ابعد الناس عن الحصول على انعاماته .

كان ينكر عليّ دائماً حقوق مواطني ، حتى اني لم اتمكن من الوصول الى حق ، في الجبل ، الا بجهود لا تعرف الكلل ، وبالمثابرة او الالتجاء الى توسط السلطات التي كان يخضع لها الامير .

عرفت دائماً في هذا الامير شعوراً مسيطراً يمتلك جميع عواطفه وعقله ألا وهو حب المحافظة على سلطانه . وقد حمله هذا الشعور على التضحية بكل شيء . ولهذه الغاية ظن انه بخلقه العراقيل واقامة المصاعب في وجهي يرضي باشوات عكا ومصر .

انهم كانوا يعزون هذه العراقيل الى نصائح وزيره المخطئة ، ذلك الرجل الذي ثبت انه كان يجاهر ببغض شديد للاوروبيين . ومع اني لا اريد ان اتهم هذا الرجل ، او اعزو اليه شيئاً ، فقد كفاه عقاباً ما آلت اليه حاله بسبب سياسته الحمقاء ، فلا يسعني الا الاعتقاد بان عودة المعلم بطرس كرامة الى لبنان تكون في غير اوانها ، الا اذا كان شقاء سيده ، الذي هو شقاؤه ايضاً ، قد علّمه درساً مفيداً .

# الفصل الخامس والعشرون

## تاريخ لبنان الطبيعي وضواحي بيروت.

المراعي في اعالي لبنان صالحة . الا انها غير وافرة . وهذا ما جعل الحيوانات الداجنة قليلة في البلاد . وهـــذه القلة اضطرت الحكومة لمنح ملاكي بلاد ما بين النهرين ورعاتها حق ادخال ثلاثين او اربعين الف رأس من الغنم الى سهول بعلبك .

ان الاكراد والتركمان يفعلون ذلك ايضاً ، كما ان عـدداً غير قليل مـن سادة العجم الاغنياء كانوا يتعاطون هـــذه التجارة . والرعاة على اختلاف انواعهم يجلبون قطعان الغنم العديدة يتّجرون بها مع اهالي لبنان واهالي مدن الساحل . وهم يدفعون لقاءَ حرية هذه التجارة ضريبةً ضئيلةً تجعلهم في حماية امراء ضواحي البقاع ، فينعمون حينذاك بأمانٍ تام ، وتكون ديونهم غير هالكة اذا ما باعوا مواشيهم بثمن مؤجل تسهيلاً لتجارتهم .

واغنامهم هذه ذات ألْيات ضخمة قد يبلغ وزن الواحدة منها خمسة عشر كيلوغراماً . يعلفها الاهالي علفاً عنيفاً ، واذا ما ملّتِ الاكل اقبلوا عليهــا يحشونها حشواً باوراق التوت والنخالة ، ويغسلونها يومياً بالمياه النقية فتبلغ أقصى حدود السمن . فكل عائلة لبنانية تعلف واحداً من هذه الكباش لتدّخر لحمه مؤونـــةً للشتاءِ ، فيقلى ويحفظ في شحمه المذوّب . ومتى اقبل الشتاء تهبط

القطعان التي تصيف في الجرود الى الساحل حيث يكون قد أعدّ كل ملاّك محلاً ملائماً لبيانها عنده طمعاً في سمادها الذي لا بد منه للزراعة على اختلاف انواعها ، وخصوصاً زراعة اشجار التوت . ان هذه الحيوانات اللبونة هي التي تمدّ البلاد بالحليب والزبدة والجبن واللبنة .

وفي الجبل جمال يبتاعها أهلوه من عرب الصحراء . اما البقر والمعزى فمن انتاج البلاد نفسها . ومن جزيرة قبرص تُستقدم الحمير والبغال والخيول العادية . والبقر الممتازة ترد الى الجبل من ضواحي دمشق .

لا ينتج لبنان وملحقاته من الحبوب ( القمح ، الشعير ، الذرة ، العدس ، الكرسنّة ) إلا ثلث الكمية التي يستهلكها الاهالي ، واذا اصابت البلاد خصباً كبيراً فقد تستريح من اللجوء الى الخارج ، في طلب المواد الغذائية ، مدة اربعة اشهر او خمسة فقط .

ينتج كل مكيال من البذار من الـ ١٢ الى الـ ١٤ مكيالاً . وفي السهول والارض الجبلية الجيدة يغلّ المكيال عشرين مكيالاً .

اما سهل البقاع فالمدّ الذي يبذَر في تربته فتراوح غلّته بين خمسة وعشرين وثلاثين مدّاً .

ان تربة لبنان صالحة جداً لزراعة البطاطس ، ومع ذلك فقلما يعرفها اهلوه . واذا زرعت في بعض الضواحي فلكي تباع من الافرنسيين . ان الشعب هنا ، كما هي الحالة في جميع انحاء تركيا ، غير ميال الى التجديد ، ومن شريعتهم : القديم على قدمه . ولهذا يفضلون على البطاطس ذات الغذاء الصحي النافع ، خرّوب قبرس

وفول مصر الذي قد يصنعون منه خبزاً كريهاً .

تنتج القرى الساحلية ، وعلى الاخص القرى الواقعة بين بيروت وصيدا ، كثيراً من الزيت . اما الحاصلات الاخرى التي تكثر في الجبل وضواحي بيروت ، فهي العنب والتين والصنوبر واللوز والجوز . قد تنتج البلاد ما يكفيها من جوز ولوز . اما العنب والتين والصنوبر فيصدّر بعضها الى الخارج .

الاشجار المثمرة نادرة جداً في قرى الساحل بسبب الحرارة القوية والجفاف . وهي قليلة ايضاً في الجرود العالية بسبب البرد القارس اثناء الشتاء ، ناهيك بان الشرقيين لا يقدرون الثمار حق قدرها . ولما كانوا لا يصبرون عليها حتى تنضج ، فانهم لا يجدون فيها الا طعماً مزاً يشبه تماماً طعم الاصناف البرية من هذه الانواع . اننا لا نجد في الجبل ثمراً لذيذ الطعم حقاً الا العنب والمشمش اللوزي ذي النواة الحلوة [1]. وقد تمتع تين بيروت بشهرة حُقّ له معها ان يشبّه بتين مرسيليا .

ان عدم استطابة الشرقيين الثمار هو ، بلا ريب ، السبب الاول في ندرة الجيد منها . اما السبب الثاني فقلة اكتراثهم بها . فهم لا يهتمون باتلاف الحشرات التي تفسد عليهم اعمالهم

١ دهش احد سكان الجرود العليا الذي لا يعرف الا الشيء القليل عن هذه الثمار ، اذ رأى ثمار المشمش الجميلة معروضة في اسواق بيروت . ولما علم ان الرطل لا يباع باكثر من قرش – خمسة وسبعين سنتيماً – ابتاع لنفسه رطلاً منها بهذا الثمن . وما كاد البائع ينتهي من الوزن حتى اخذ هذا الفلاح المغفل يلقي الواحدة تلو الاخرى في حلقه . ولما كان البائع يشك في ان الجبلي يعرف ان النواة حلوة ، رأى من المناسب ان ينبهه الى ذلك . الا انه فهم حينذاك ان الرجل لا يدري اذا كانت الثمرة تحوي نواة .

الزراعيـــة ، ولو فعلوا لاضافوا الى محاصيلهم منتوجاً جديداً يستفيدون منه في تغيير الوان معيشتهم ، او يبيعونه فيتضاعف ريع عقارهم ، ولكنها اللامبالاة التي يتصفون بها في جميع شؤونهم .

ومن حيوانات هـذه البلاد الخفافيش ذات الحجم الكبير ، المنتشرة انتشاراً ذريعاً في ضواحي بيروت . انها تهاجم المدينة كل ليلة ، وتغشى المزارع والحقول لتعيث فيها فساداً حتى الصباح ، محدثة اجسم الاضرار . ويا لتعاسة التاجر الذي لم يؤشب نوافذ دكانه بشريط حديدي !

تطوف الخفافيش هنا وهنالك ، وتدخل حيث تجد شيئاً لذيذ الطعم . انها تأخذ كل ما يمكنها حمله لتأكله ، تحت اروقة [2] المدينة الكثيرة ، او في جنائنها ، او في أوكارها اذا كانت ذات صغار . اما البساتين فانها تختطف منها جميع الثمار التي تستطيب طعمها .

واثباتاً لما قلت عن وفرة هذه الحيوانات اسرد هذه الحادثة التي وقعت في بيروت ، وقد رواها لي عدة اشخاص مؤكدين وقوعها .

اشترى تاجر كمية كبيرة من الزبيب وتركها مكومـة في مخزنه ، وذهب الى دمشق لاستيراد المشمش المجفف الذي تصدره هذه المدينة بكثرة . وطالت مدة اقامته اكثر مما تقتضي صفقته التجارية ، فدهش أشد دهشة عندما دخل حانوته بعـــد عودته ووجده خالياً خاوياً . فتبادر الى ذهنه ، طبعاً ، ان احداً قد

[2] شبه غرفة مفتوحة احدى نواحيها بشكل رواق : ان العرب يجعلونها ديوانهم اثنـاء شطر كبير من السنة .

سرق الزبيب . فرفع شكواه الى الوالي ، فأمر بالبحث والتدقيق والكشف الحسي ، فلم يسفر ذلك عن نتيجة . لم يهتدوا الى اي كسر ، فالقفل لا يزال كما كان ، وشبابيك المخزن لا تزال قضبانها الحديدية مشتبكة لم تمس . فلم يبق اذن سوى القيام بتحريات في المدينة . وهذا ما وعد الحاكم بان يهتم به كل الاهتمام .

يصعب جداً ان تطمس آثار جريمة كهذه في مدينة صغيرة كبيروت . ومع ذلك لم يعثر على اثر ما لهذه الصفقة الكبرى من الزبيب .

وبعد مرور شهر واكثر على الحادث الذي لم يظفر التحقيق بجلاء غامضه ، ولو بعض الشيء ، دخل بعضهم عرضاً احدى المغاور العميقة الواقعة في طرف المدينة الغربي ، فرأى فيها بزور العنب كوماً كوماً . ولما توغل في المغارة وجد اكداساً اكثر ضخامة . فأذاع خبر ما رأى وشهد في مغاور الروشة .

ذكرت هذه الحادثة الناس بالاضرار الجزئية التي كانت تحدثها هذه الطيور الليلية [3] . فلم يشكّوا بعد ذلك في انها غرماء التاجر اليوناني صاحب الدعوى . فدعي الى السراي حيث أنبىء بالاهتداء الى سارقيه . وشاء الوالي ان يتأكد ذلك بنفسه ، فامتطى جواده واستصحب التاجر ليرى بعينيه أشلاءَ بضاعته .

وسار التاجر وهو لا يدري الى اين ، مع الحاكم ، واستغرب هذه النزهة . ولما انتهيا الى شط البحر ، ذهب بعض دهشته عندما وقف أمام مغارة عميقة ، فظن ان السارقين يختبئون فيها ، وان

٣ هو الاسم الذي يطلق عليها بالتركية .

الوالي قد استصحبه ليريه غرماءه . وكم كانت دهشته عظيمة عندما أروه اكداساً كبيرة من البزور وقالوا له : هـذه هي الآثار الدالة على السرقة ، وهنا يسكن مرتكبوها .

فصاح اليوناني مستغرباً : ولكن اين هم ؟

فأجابوه : في كل مكان من هذه المغاور العميقة . انهم مختفون في ثناياها وأخاديدها .

ولما كشفوا له عن سر الحادث ، خاف التاجر وظن المغارةَ مرصودة ... وظل مدة طويلة لا يصدّق ما حدث . ولكنه صدق بعد حين ان الخفافيش هي التي سرقت بضاعته ، بعـد ان رأى بعينيه آثارها . رأى منها كمية كبيرة لا تزال باقية ، ففهم للحال ان الحادثة ليست صعبة التصديق ، ولا سيما اذا عرفنا ان الجرذان المنتشرة في مدينـة بيروت انتشاراً هائلاً لا تتـأخر عن نجدة زميلاتها ذوات الاجنحة في مثل هذه الغزوة ، فهما حلفـان في محاربة تجار الثغر .

ان الثمرة الاكثر شيوعاً في بيروت هي ثمرة تين برباريا الـتي تسمى في افريقيا التين المسيحي . فهـذا المحصول هو أحد عناصر الغذاء الهام عنـد جميع السكان بوجه عـام ، وعلى الاخص عنـد الفقراء الذين يجعلونه غذاءهم الوحيـد ويعيشون عليه طوال الصيف كله .

ان كمية الصبّار الكثيرة التي تنمو في هـذه البلاد لم تحمل السوريين على التفكير في تعميم دودة القرمز عندهم ، فهم يكتفون من هذه النباتات بفائدة ثمارها ، فما لهم ولاوراقها . وحسبهم منها فائدة اخرى ، وهي ان يحيطوا بها بساتينهم فتكون لها خير سياج

نظراً لاشواكها الحادة التي تتسلح بها .

كثيراً مـا نجد في الجبل مناجم فحم حجري مطمورة في الارض . وقد كانت تصلح للمصانع الكبيرة لولا زيادة الحامض الكبريتي فيها . قال لي ابراهيم باشا ان استخراجه هذا الفحم في المدة الاخيرة كان يكلّفه من الثمن ما يعادل تكاليف الفحم الذي يأتيه من نيوكسل الى الاسكندرية . ولكنه عندما استطاع اخيراً ان يستغني عن مهندس يدير العمل فقد عاد عليه بثمن أدنى . ان مناجم هذا الفحم تقع في البقعة الواقعة بين ميروبا وفالوغا * .

لم يستعمل السكان هذا الفحم وقوداً ، ولكنهم اكتشفوا فيه ميزة طبية وهي شفـاء الجراح الاكثر اتساعاً في ظرف اربع وعشرين ساعة . انهم يحوّلونه الى مسحوق ناعم تكاد لا تستطيع الاصابع ان تقبض عليه ، ثم ينثرونه على الجرح الذي يلفّ بشاشة ، فيندمل بسرعة عجيبة .

وهنالك عدة مناجم من الحديد في لبنان قلما أستثمرت لانهم لا يحسنون اختصار اساليبهم ، ولا يغيرونها ، فيستخدمون الحطب في صنعه ، فتكلفهم تلك العملية غالياً نظراً لارتفاع ثمن الحطب عندهم . ان الحديد الموجود في لبنان من النوع الليّن جداً ، وهذا ما يجعله افضل من الحديد الاجنبي لصنع نعال الخيل وعمل المسامير ، والاعمال الاخرى في البلاد .

* اشهر مناجم الفحم الحجري كانت في قرنايل ، ومنها كان يستخرجه ابراهيم باشا . — المعرب .

ويؤكدون ايضا انه يوجد عندهم مناجم ذهب وفضة ونحاس . غير انهم لم يجرؤوا قط على مسّها . والسيد بروكي العالم بالطبيعيات الموفد من قبل محمد علي الى سوريا عام ١٨٢٣ وجد مواد هذه المعادن الثلاثة ، ومواد من التوتيا ايضاً .

ان الاشجار التي يلائمها مناخ لبنان وتنمو فيه هي الازدرخت الذي ينمو بسرعة ويبقى خشبه صالحاً مدة طويلة . وهنالك نوع منه تنمو اغصانه المورقة بشكل مظلّة ، فيوافق الطرق والممرّات ظله الوارف ، فتصبح كأنها أسرّة .

ومن اشجار لبنان الحوز الذي اجهل بالفرنسية اسمه ، وهو ذو صمغ طيب الرائحة ، وقد سبق لي ان قلت انهم كانوا يستعملونه ليدوّخوا الاسماك في الانهار والغدران عند محاولاتهم اصطيادها .

لست اعتقد ان توت هذه البلاد هو من نوع خاص لانه لا يعلو عن الارض اكثر من ثلاثة امتار او اربعة . انه ولا شك اكثر اشجار هذه الناحية أهمية ونفعاً . وبقطع النظر عن فائدته الاولية في تربية دود الحرير فقضبانه التي تقطع في الربيع ، بقدر ما تدعو الحاجة الى ورقه لعلف دود القز ، تستخدم للوقود ، كما ان قشور هذه القضبان تقوم في علم الاقتصاد عند الفلاحين مقام قشور الخيزران في الاشياء التي تحتاج الى ربط . ان اوراق الدفعة الثانية من ورق التوت ، وهي تنمو في الصيف ، تطعم للمواشي . اما الخشب فقد سبق لي ان قلت ان النجارين يفضلونه على سواه من الخشب في اعمالهم .

واقول اخيراً انهم ينتفعون بكل ما ينتجه التوت حتى بفضلات

الاوراق التي أستعملت في تربية دود الحرير ، كما ان براز هـذه الدودة يستعمل علفاً للبقر ، وكثيراً ما تستلذه .

ان الفوائد العديدة التي تجنى من شجرة التوت تدعو الفلاح الى التضحية بجميع الاشجار الاخرى بدون شفقة . فاذا ما نبتت قربها شجرة ، كما سبق لي ان قلت ، تقتلع حالاً خوفاً من ان تشاطر من هي افضل منها عصارة التربة المغذية . وكلما بدا لناظر الفلاح اليقظ مكانٌ ملائم لغرس التوت ، يقتلع كل ما فيه من شجر ليغرس مكانه التوتة قرة عينه . وحينذاك تسمد التربة باعتناء وتحرث مرات في السنة . وبقدر ما تولى هذه الشجرة من عناية يزداد الفلاح يسراً ، لان غلة هذه الشجرة تزداد بازدياد العناية بها .

وعندما يرون ان الشيخوخة قد دبّت الى شجرة التوت ( وهذا يكون في الثلاثين من عمرها اذا لم يعتن بها ) يقتلعونها بلا شفقة ، لينصبوا مكانها شجيرة من العائلة نفسها . فالعنـاية الحسنة والتدبير الاكثر ملائمة لطبيعة هذه الشجرة يجعلانها اكثر خصباً ، وأوفر غلةً ، واطول عمراً .

واذا تفقّص بزر الحرير قبل نمو ورق التوت ، وهذا ما يحدث في فصول الشتاء غير الباردة ، فانهم يغذونه باوراق الخبازى الى ان يؤتي شجر التوت أكله .

وموسم الحرير في القرى الساحلية يسبق موسم الجرود زهاء شهرين، فينتهي في الساحل في أواخر ايار، وفي الجرود في أواخر تموز.

ان النمر ، والسنور المبرقش ، والضبع ، والذئب ، وابن آوى [٤]،

٤ روى السيد ده مونكوني في رحلته الى سوريا ( الجزء الثاني ، ص ٧٣ ) على

والثعلب ، والغزال ، والدب ، والعنز البري ، والخنزير البري ، والغرير ، وكثير من الظرابين الضخمة ، هي الحيوانات التي تشاهد في لبنان . فالغرير يرمي بنفسه من اعالي الصخرة ان لم يجد غير هذه الطريقة للنجاة من مغتاله . ومن الصعب جداً اصطياد هذا الحيوان اليقظ ، وقد صورتُ واحداً منه أتوني به ميتاً .

ان صنوبر لبنان ينتج خشباً يصلح لبناء المراكب البحرية ، وهو يستعمل جسوراً لسقوف البيوت يستغنى بها عن القناطر الحجرية . وعندما يعمر الصنوبر يصبح خشبه كثير الصمغ ويعيش اذ ذاك مدة طويلة .

وهناك نوع من النمل في الجبل يؤلم لسعه ويحدث انتفاخاً في البشرة .

ان الجبل يزخر بالخمور ، وعلى الاخص في الوادي الذي يجري في اسفله نهر الكلب ، وعلى الرابية المقابلة لمدينة بيروت . ان خمرة لبنان بيضاء صفراء بوجه عام ، ومن هنا جاءها الاسم الذهبي ، ولكن الخمرة الحمراء معروفة اكثر من تلك ، ولاسيما بعد ان عرفت بيروت المؤسسات الاوروبية واصبحت هذه الاسكلة يرتادها الاجانب . ان المولع بعمل الخمور يمكنه ان يكتشف خموراً فاخرة في لبنان شرط ان لا يؤمن بشهرة بعض القرى والمزارع . فهذه المحاصيل تختلف اجناسها في القرية الواحدة ، حتى انك لا تجد تجانساً بينها خلال سنوات كثيرة . ولقد اختبرت

اثر سماعه عواء كلب له ذلب ثعلب ، انهم أكدوا له « ان هذه الكلاب كانت تلد على اثر تزاوجها من بعض الطيور كلاباً سلاقية . » اني اعرف ، رغم علمي بسذاجة بعض السائحين الحديثين ، انه ليس بينهم من هو سليم الطوية بهذا المقدار .

ذلك بعد ان ذقت في كلّ موسم قسماً من خمرة صليما[٣] الفاخرة .
وفي كل عام كنت احصل على صنف يختلف في اللون والطعم عما تقدمه في الاعوام السابقة . فعلى المولع باصناف الخمرة ان يتذوّق عدداً كبيراً من الخوابي ، ثم ينتقي الجيدة منها .

لا تكثر الطرائد في لبنان ، وهذه القلة ناتجة عن الطريقة المبيدة التي يتصيدون بها . ان الامير بشيراً تعوّد ان يقوم كل سنة برحلة او رحلتين في الناحية بين دير القمر وصيدا ، وكل مرة كان يصطاد ببزاته من ثمانماية الى تسعماية حجل . وقد اقتفى أثره الامراء الآخرون باتباعهم هذه الطريقة في صيد هذه الطيور. اما طريقة الصيد الاكثر تداولاً من غيرها في الجبال ، فهي تعويد الحجال طلب غذائها من محلات معينة ، ثم مفاجأتها في تلك الاماكن ، بعد التثبت من مثابرتها على الذهاب اليها .

انهم يغدون اليها مبكرين ويكمنون لها في الدواميس ( الستارة ) التي هيأوها لهذا الغرض ، ثم ينتظرون الفرصة المؤاتية ليطلقوا نار بندقيتهم . وكثيراً ما يصرعون بطلق واحد من العشرة الى الخمسة عشر حجلاً عتيقاً او فروجاً . والصيادون الذين لا يمكنهم ان يبنوا دواميس او يقبعوا فيها لقلة جلدهم ، يستخدمون رقعة كرقاع الشطرنج ذات لون ابيض واسود تعرض لنظر الحجال بنصبها على قضيب كالراية ، فيجتذبونها بها ويطلقون النار عليها من خلال ثقب يعدونه لاخراج فم بندقيتهم منه . وقد اكدوا لي ان هذه الرقعة تمثل للحجال جلد النمر الهندي الذي يجذبها رقطه .

ارسلت الى المرحوم السيد دي ميريل النباتات المهمة التي

لمتها من جبال لبنان . وقد شاء السيد دي ميريل ان يعرفني باسمائها . ومن النباتات التي ابيدت حتى اصبحت كأنها مجهولة توجد نبتة اسمها الريباس Ribès الذي يظن انه نوع من الروائد. حاولت الحصول على هذه النبتة لابعث بها الى الذين رغبوا في ادخالها الى فرنسا فلم اوفق الى ذلك. انها موجودة في ضواحي بعلبك، واني لم ارها إلا في شهر ايار بزحلة حيث تجلب لتباع كأنها ثمرة . ان اصولها الفتية تكون في البدء كثيرة الحموضة ، غير انها تحلو متى نضجت. اما نفعها فهو انهم يصنعون منها دواء يفني الديدان . ويمكن القول، ان الاعتقاد السائد في فرنسا الزاعم ان هذه النبتة تزرع في حلب لهو اعتقاد خاطىء ، لاني لم اجدها هناك وقد اكد لي اهلوها انهم لا يعرفونها .

تزخر جبال لبنان بالنباتات العطرية . والعرعر ليس بقليل الوجود في جهة صليما .

وهنالك شيء جدير بالملاحظة ، وهو اننا نجد في اعالي لبنان شجرة ذات قشور، ذكية الرائحة ، تدعى الشجرة العطرة ، وهي شجرة اللبنى التي يمكن ان يكون قد أشتق منها اسم لبنان ، لا من تعممه بالثلج ° لان الثلوج على عهد الاسرائليين كانت تتساقط اقل مما تتساقط اليوم . فالآثار الباقية تؤكد ان قمم صنين وجبل الكنيسة كانت مأهولة في زمن يسبق الزمن الذي ابتدأ يميل فيه فلكنا الى البرودة .

° اني على راي السيد فوريا ديربان الذي قال في خطبة القاها امام الجمعية الاسيوية ( ٤ شباط ١٨٢٨ ) : « ان لبنان سمي هكذا لكثرة هذه الاشجار فيه . »

الهواء، بوجه عام، جيد في لبنان، وعلى الاخص في الاماكن المرتفعة التي يؤمها الناس في اثناء الصيف. ان سكان كثير من القرى الساحلية او التي تقع على الشاطىء، ينتقلون في فصل الصيف الى سفوح الجبال العالية. والمكان الوحيد ذو المناخ السيء في هذه البقعة من سوريا هو ما وراء نهر بيروت المتفرد بحمياته *. ان اهالي هذه المحلة يموتون بمرض الاستسقاء والكظام، وقد اكدوا لي ان الذين يعرفون اباءهم من اهالي تلك المنطقة قليلون جداً. اما الجد فلا يعرفه احد منهم!

الدم نقي جداً في الجبل، وقلما تنتشر فيه الامراض السارية. والذين تظهر عليهم امراض البرص، وهذا نادر جداً، يذهبون الى دمشق ليتنعموا بفوائد هذه المدينة، اما بالشرب منها، او بالاستحمام بها. انها تخفف وطأة الالم حين بلوغه الحد الاعلى، وتشفي منه الى الابد اذا عولج بها المريض حالاً. ولكن يجب ان يعاود المريض استعمال الدواء، وإلا فلا تلبث اعراض المرض ان تفشو ثانية. ولذلك نرى البرص يقيمون في المدينة ويعيشون من الصدقات.

ان مادة التلقيح أدخلت الى سوريا منذ سنوات طويلة، والفضل في هذا يعود الى المرحوم السيد بيير لورالا. ونظراً للحظوة التي لاقاها هذا السيد عند الامير بشير والمساعدة الناتجة عن صداقته لمواطنه المرحوم المطران غندولفي، نائب الكرسي الرسولي، استطاع

* اظنه يقصد البوشرية التي يقول المثل اللبناني في رداءة مناخها: يا طالب العافية من البوشرية. — المعرب.

الحصول على الامتياز المطلق في اجراء عملية التلقيح ، كيلا يتعرض الاهلون لسوء نية من اتوا يتمرنون بهم وهم ليسوا من ذوي القدرة والإختبار ، ولا يعيرون عملهم اهتماماً وعناية كافيين .

والسيد لورالا خدمه حسن الحظ فاكتشف ، في اثناء اقامته الطويلة في الجبل ، حيث مارس الطب مهنته الاولى ، بقرةً ظهرت عليها بثور ذات سائل كاللقاح . فقدم حينذاك تقريراً الى اكادمية الطب في ايطاليا ، فما لبثت ان اعلنت اكتشافه [٦] .

واذا أثبت بعض المعلومات عن الطاعون فما اظنها تكون في غير محلها ، ولاسيما انها تفيد لتقرير قضية اختلفت فيها اراء الاطباء . قال بعضهم ان هذا الوباء ينتج عن تأثير الهواء ويخضع للفصول او شدة الحرارة او البرد ، وذهب فريق الى غير ذلك .

ان الطاعون يجيء في اغلب الاحيان من مصر الى سوريا [٧] ،

٦ ان السيد لورالا اصبح بعد ذلك قنصل النمسا وتوسكانا وعدة شعوب اخرى في بيروت لان صدقه وميله الى الاحسان جعلاه محبوباً من الناس وحملاهم على احترامه . ان ابنه البكر الذي حل محله في المراكز الهامة سلك مسلك ابيه الشريف فحاز حب الناس لمزاياه الطيبة . وقد شاركني السيد جورج لورالا وابوه في الاعمال الشاقة عند تأسيس المحجر الصحي في سوريا والمحافظة عليه خلال الخمسة عشر شهراً التي كلفنا به فيها . واقول ان افضل النجاح الذي احرزناه يعود أكثره الى معلوماتهما ومثابرتهما على العمل .

٧ ادليت بهذه المعلومات للدكتور باريزي عام ١٨٢٩ عندما قدم سوريا على رأس لجنة صحية ليدرس فتك الطاعون فيها . ان هذا الطبيب الشهير لم يكتف بالتحريات التي تؤلف اعمال اللجنة ، ولكنه شاء ان يقدم للشرقيين دليلاً جديداً على الصفات الشريفة التي يتحلى بها الفرنسيون . وهكذا فان اقامته القصيرة في بيروت والجبل كانت حافلة بالحسنات وباعمال انسانية خيرة أكثر ما تكون دقة .

وقد يأتي احياناً من استانبول خلال سنتين او ثلاث ، ماراً بالمدن التي تفصل هذه المنطقة عن العاصمة .

وعندما تظهر عوارضه في مكان ما يجب التأكد من انها ستظهر هنا في العام المقبل . ان ذلك ناتج عن الالبسة التي تحفظ بعد ان تكون قد كمنت فيها الجراثيم المعدية . فالاتراك لا يسلّمون بان الطاعون ينتقل عن طريق اللمس [8] .

لاحظت فيما مضى انهم لم يكونوا يحتاطون للامر لدى وصول الرسائل ، لا بل جميع الاشياء التي تلتقط بسهولة هذا الداء عندما يكون متفشياً في القسطنطينية ، لانهم لم يكونوا يخشون قط ان يصابوا به مباشرة .

اما في المدن الكبرى فأسباب العدوى اكثر انتشاراً ، لان مخلفات الاجانب تسلّم الى وكيل من قبل السلطة كما هي ، فيكون مضطراً الى ان ينتظر مداعاة الورثة او الاجل المعين في القانون .

ومع ذلك فحالات عودة الداء اكثر من سنتين متواليتين عند توافر هذه الاسباب ، هي قليلة جداً . وقد كان بوسعنا الاستنتاج ان خطورته تتضاءل متى طال عليه الزمن لو لم نلاحظ ان الاصابة الثانية كانت تقريباً دائماً اشد من الاولى .

ومكروبات الطاعون ، اذا ما ظهر هذا الداء في السنة الثانية

٨ ان الطاعون ، حسب رأي المسلمين ، هو احد الاوبئة التي يسمح الله بانتشارها لانذار الشعب بان قدرته هي دائماً على استعداد لوضع حد لفتكه وبغيه . ان العوام يعتقدون ان مهمة الفتك بضحايا هذا الداء يقوم بها درويش غير منظور.

والثالثة ، تكون ، ولا شك ، قد حفظت في بلدة اسلاميـــة او درزية ، فالتدابير التي اتخذت في لبنان المسيحي كانت كافية حتى الآن لتطهير الامكنة التي تسربت اليها العدوى .

يأتي الطاعون عادةً من الشمال الى الجنوب ، ومن الشرق الى الغرب ( عدا الحالة التي يأتي بها من مصر )، وهذا ما يجعل بيروت لا تخشى إلا طاعون دمشق .

والذين لاحظوا ان الطاعون يصل الى الشاطىء عن طريق بعض الاماكن خاصة قد ظنوا ان الطبيعة الجوية لها بعض التأثير في انتشاره .

وعندما كان ينتشر الطاعون في سوريا كانت الرياح الغربيـــة والجنوبية تضاعف شدته ، فيزداد عدد الوفيات زيادة محسوسة .

تخف وطأة الطاعون في اوقات معينة ، وهي ذات صلة وثيقة باتساع الامكنة او مناخها المألوف . انه ينقطع عن بيروت خلال شهر تموز ، ومع ذلك فان اصابة واحدة قد وقعت في ١٦ آب . اما في الاماكن المرتفعة فيستمر الطاعون حتى تشرين الثاني ، لا بل الى ما بعد هذا الشهر ، اذا كان فصل الخريف معتدلاً . وهكذا استقر نحو سنة كاملة في لبنان عام ١٨٢٦ بعد ان تنقل بين جميع مناخات هذا الجبل .

وعام ١٨١٧ كان الطاعون متفشياً في الجزائر بعـد ان انقطع عن زيارتها حوالى خمس عشرة سنة ، فخرب ودمر طوال ستة عشر شهراً ، على الرغم من انه لا يثبت عادة امـــام حرارة الشمس القوية . اما في هذه السنة فقد شعروا ، عند اقتراب هذا الفصل ، بنقص ملموس في الوفيات .

قالوا : لا العمر ولا الجنس ولا البنية تقي من الطاعون . ولكن ألم يلاحظوا في احوال متعددة ان ضحايا هذا الداء هي في شعب ما [٩] او جنس ما اكثر منها في شعب آخر ؟ او انه فتك ، على الاخص ، بالاشخاص الذين هم في سن واحدة ؟ انه ليمكننا القول بكلمة اكثر وضوحاً انه كان يبدأ دائماً بالاطفال .

ولوحظ ايضاً ان الطاعون كان يصيب بعض طبقات من الناس دون غيرها ، وان الاجانب هم الذين كانوا يصابون بادىء ذي بدء . ومثل هذه الحالات تُلاحظ في المدن الكبرى .

ففي بحر سنة واحدة ( واظنها سنة ١٨١٣ ) مات بهذا الداء في ازمير جميع الحمّالين تقريباً .

ان الطاعون مؤذٍ وحليم ، فتارة يودي بحياة عيال كاملة ، ويعدي عند اقل احتكاك ، وطوراً يقتصر على شخص واحد من اهل البيت الذي دخله ، على الرغم من ان الاشخاص الباقين لم يلجأوا الى اية وقاية .

ويؤكدون ان المصابين بالطاعون يخافون بعض الثمار وعلى الاخص الخيار . الا ان انفسهم تشتهي البرتقال والحامض لان الأحماض توافقهم .

ان ابناء البلاد يضعون على بثورهم لزقات تكون إما من العنب المجفف الاسود ، ودهن من ألية الخروف ، واما من الخبّازى والحليب ولب الخبز والزعفران ، واما من البزاق الاصفر .

٩ انا نعلم ان شعوب تركيا تتألف من المسلمين والمسيحيين ( روم ، ارمن ، موارنة ، ويهود ).

فالدمامل تشفى وتتلاشى في بعض الاحيان بعد استعمال هـــذه الادوية . اما العرق الذي ينضح بغزارة فهو علامـة طيبـــة تدل على نجاة المريض . واذا لم يعقب فتح الدمامل العرق فانهم يلجأون الى بضعها فتشد ليسيل قيحها بطريقة الفتائـــل والمراهم العادية .

ان الجبليين معرضون دائماً لحبة يدعونها حبة الكي ، وهي لا تشفى إلا بحرقها . اما اعراضها فهي الصعوبة في البلع ، ورائحة اللهاث الكريهة ، والبثور في الفم ، وفي بعض الاحيـان البثور في الامعاء . ان كيـاً بسيطـــاً في مقدمة الرأس يشفي منهـــا تماماً .

اننا نجد عدداً ضخماً من الثمار المتحجرة في الجبـــل ، وعلى الاخص من هذه الثمار التي تسميها كتب الطب القديمة لابيدس جيدو Lapides Judœ ، وبعضها يرسل الى دمشق . ويزعمون انها ترسل من هنالك الى الصين حيث تستعمل في صناعـة الاواني . اني انقل هذا الخبر دون ان أؤكد صحته . وبين طبقات الارض ، نجـــد مستحاثات الاسماك . لقد ولجت هـذه الاسماك الطبقات الفخارية فكانت لها غلافاً . ويرجع عهد ذلك ، بلا شك ، الى الطوفان الكبير .

شاهدت عدة مرات متحجرات منها في جرود لبنان .

ان رسوم الاسمـاك المتحجرة موجودة في جهـــة جبيل * . ونشاهد صخوراً من الصدف عند ذهابنا من عينطورا وبكركي ،

* نجد كثيراً من هذه المستحاثات في قرية حاقل . — المعرب .

في الحقول المجاورة لهذا الدير ، قرب جعيتا ، وبــين عين عنوب وعبيه ، وفي اماكن اخرى . لقــد لمت الكثير منهــا في عين الباردة .

# ملحق

الهدف الرئيسي للسياسة الانكليزية في سوريا ومصر هو ان تشق لنفسها طرقاً الى الهند، وان تستأثر هناك على قدر ما تستطيع باعمالها التجارية. فطريق الهند، في البحر الاحمر، هي الطريق المنشودة. وعلى هذا المسرح الجديد تمثل العبقرية الاوروبية ادوار مصالحها المختلفة. فعلى فرنسا واوروبا جمعاء ان تضع حداً لتوسع انكلترا.

افضى السيد اوبير — روش، عام ١٨٤٢، ببيان الى مجلس الوزراء يدور حول هذه القضايا. وهذا البيان حافل بالآراء البارعة الطريفة. وها نحن ننقل خلاصته المنشورة في مجموعة خصصت لبحث قضايا الشرق، لعل في نقلها تنويراً لاذهان قرائنا.

# البحر الاحمر وبحر الهند

مصالح افرنسية واوروبية. طريق الهند. سيطرة . مصالح تتنافى والمصالح الانكليزية. فرنسا ، روسيا ، النمسا ، انكلترا . مؤسسات عسكرية وتجارية . بواخر بين السويس وبوربون . فحم حجري ، اسباب المعيشة ، مؤن ، خط وطني او فرنسي . مواقف . مدغشقر . شاطىء الحبشة ، خط تجاري عسكري بين مرسيليا وبوربون . تجارة عامة. جزيرة بلاد العرب ، الحبشة ، شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي . موقف عدن . اخطار . خلاصة . ( نبذة من مذكرة رفعت الى مجلس الوزراء سنة ١٨٤٢ ) .

## مصالح فرنسية واوروبية في البحر الاحمر وفي خليج باب المندب

حلت المشكلة مبدئياً باعادة البحر الاحمر الى ما كان عليه بحيث يصبح منفذ اعمال تجارة الهند ، والصين ، واوقيانيا ، وجنوبي شرقي افريقيا .

ان محاولة اثبات هذه القضية بحث عقيم ، فيكفي ان نلقي نظرة على خريطة ما لندرك ان هذه الطريق هي اقصر الطرقات واكثرها ملاءمة لتوجه ، الى نقطة ما من البحر المتوسط ، منتوجات الهند واوقيانيا . فالخط الذي تتبعه السفن الانكليزية بين بومباي

والسويس يقيم لنا كل شهر هذا الدليل . لقد قاموا بتجربة تجارية محاولين تصدير بضائع الهند عن طريق مصر وارسالها من هناك الى تريستا عوضاً عن انكلترا ، آملين ان لا يثيروا أي اهتمام حول هذه القضية .

ان تحويل تجارة الهند باجمعها عن طريق البحر الاحمر لا يكون إلا اذا حفرت ترعة السويس . وبناء على امر نابليون ( الاول ) الذي كانت عبقريته تحل اصعب القضايا ، رسم المهندس لاباد خريطة للقيام بهذا المشروع العظيم . ان اعمال الحفر هينة بسيطة ، وهي لا تكلف الا بضعة ملايين . اما الذين يزعمون غير ذلك فهم إمّا جبناء ، واما غير عارفين بهذه الشؤون .

انَّ حفر ترعة السويس هو اخطر عمل يقلق بال اوروبا . والانكليز يعرفون تلك الخطورة ويحتاطون للامر أشد الاحتياط . انهم يوطدون اساسات قوتهم المستقبلة بتمركزهم في عدن ، وبتوسيع سيطرتهم في زيلاء وبربرة . اما في خليج باب المندب فقد اصبحوا على ابواب البحر الاحمر ، وهذا امر واقع لا محالة .

فاذا تُركوا يتصرفون كما يشاؤون ، فسيستولون على الممر ، ويغمرون ، وحدهم ، عن طريق مصر ، اسواق اوروبا واسيا بالبضائع . ان مطامع انكلترا في البحر الاحمر كانت عظيمة كما يظهر في المسلك الذي اتبعته اخيراً من قضايا الشرق .

وللقوى الاوروبية ، وعلى الاخص القوى التي تحيط بحوض الابيض المتوسط ، مصلحة كبرى في ان لا تستولي انكلترا او تستفيد ، وحدَها ، من مركز هام كهذا . ان مرافىء مرسيليا وجنوى وليفورنو وتريستا تصبح ذات علاقة مباشرة مع الهند

وعلى الاخص اذا ما حفرت الترعة . وقد تكون روسيا اكثر اهتماماً من غيرها بالقضية ، اذ تصبح من قوى الدول الاوروبية الاكثر قرباً الى الهند عن طريق البحر الاحمر . ان اوديسا تبعد ٤٠٠ فرسخ عن الاسكندرية ، في حين ان مرسيليا تبعد ٦٠٠ فرسخ . اما هولندا فتود هي الاخرى ان ترى دول اوروبا متمركزة على هذه الطريق ، فتخلق مصالح تتنافى ومصالح انكلترا التي ستبتلع مستعمرات هولندا عاجلا او آجلا .

فعلى الدول الاوروبية ، اذن ، مهما كلفهـا الامر ، ان تحبط مشاريع انكلترا ، وتحول دون استئثارها بالسيادة على البحر الاحمر . فمن الضروري ان تكون جميع الدول متساوية النفوذ في هذه المنطقة . وهنالك امر اهم من ذلك ، وهو انه في استطاعة فرنسا وروسيا والنمسا ، لو عرفت هذه الدول كيف تتفاهم ، ان تلاشي نفوذ انكلترا دون ان تتمكن هذه الدولة من المقاومة .

ان العرب والاحباش الذين يقيمون حول البحر الاحمر يكرهون الانكليز ، فعلينا ان نستفيد من الفرصة المؤاتية بان نعرف كيف نربط مصالح هذه الشعوب القريبة من الشاطىء بمصالحنا ، ونستخدم مصالحهم ونعاضدهم بنوع ان نكتسبهم قلباً وقالباً .

ومن يصبح سيد القسم الاعلى من البحر الاحمر يكون سيد المنفذ في وقت السلم ، كما انه يسد البحر في وجه كل قوة اثناء الحرب .

ان تمركز الانكليز في عدن يمكنهم ، ولا شك ، مـن خلق العراقيل في وجه السفن لدى خروجها مـن بوغاز باب المندب . اما سفن الاعداء فلن تستطيع ابداً ان تدخل خليج العرب . وان

كل محاولة هجومية تصبح مستحيلة مادياً . ويكفي ان نتذكر البرتوغاليين الذين حاولوا عدة مرات ان يبيدوا بقواهم البحرية القوى العربية في هذا البحر حتى تجرّأوا على الانزلاج فيه بسفن عديدة . ولكن الاخفاق كان حليفهم رغم قواهم التي كان العرب يقاومونها بزوارق حقيرة لا يمكنها ان تصمد . ان البحر والمناخ المجهولين من البرتوغاليين ، لا بل الشواطىء ايضاً قد عضدت العرب وقاومت في صفهم .

كان يجب عليّ ، بادىء ذي بدء ، لو كنتُ اقوم بتصنيف كتاب ، ان اعرض باسهاب مصالح دول اوروبا الحاضرة والمقبلة في الهند والصين واوقيانيا والجهة الجنوبية من افريقيا وجزرها ، وأبين بالتفصيل ان مصالح هذه البلدان هي ذات علاقة وثيقة بمصالح اوروبا . ولكن هذا البيان الذي أتقدم به لا يتسع لذلك ، ناهيك بان كل شخص يعرفها او انه يجب ان يعرفها لان الكثيرين قد افاضوا في الكلام عليها . اننا نعلم جميعنا ، اليومَ ، ارتباط بعض نقاط هذه القضية ببعضها الآخر . فالى الكتب الخاصة احيل من تهمهم معرفتها .

لا تنقصنا معرفة العلاقات الجديدة التي ستقوم في البحر الاحمر ، ولا يفوتنا ادراك تغيير ما كان موجوداً ، ولسنا نجهل تبدل وجه الامور في العالم ، بل الذي ينقصنا هو ان نعرف كيف نعمل ، ونتهيأ لنستفيد من هذا الانقلاب الذي لن يكون عن طريق باتافيا وبومباي وكلكتا وبونديشيري وبوربون ومدغشقر ، بل عن طريق البحر الاحمر ومصر . لقد درست قضية المرور عن طريق العريش ومصر . فهذه قضية مستطاع حلها لانها لا تستدعي

إلا ارادة ، ولان في الاستطاعة مهاجمة مصر من البحر المتوسط . ففرنسا وروسيا واقفتان على ابوابها . واذا لم يكن للنمسا من اهداف سياسية في هذه البلاد توازي اهداف هاتين الدولتين قيمة واهمية ، فلهذه الدولة مصالحها التجارية التي ستصبح هامة نظراً لهذا الممر ، والعلاقات الجديدة التي ستنشأ وتنمو .

ان المصالح الاوروبية هي هي ، سواء أكان ذلك في مصر ام في البحر الاحمر . فالانكليز يعملون دائماً وابداً ليسيطروا ويوطدوا نفوذهم . بيد ان اخاديعهم اصبحت مفضوحة ، وسيّدا مصر اليوم ، محمد علي ، وابراهيم باشا ، خلفه المقرر ، يفهمان جيداً طويّة الانكليز ، وهما يمقتانهم رغم ملاطفتهما اياهم . انهم يصيخون الى النداء ويقدمون يد المساعدة لكل طلب ، او محاولة ، او مشروع من شأنه ان يناهض نفوذ هؤلاء . فما يهم مصر اصبح مفهوماً : يجب ان تكون مصالح اوروبا في هذه البلاد امتن من مصالح انكلترا وحدَها وأقوى .

ان قضية البحر الاحمر هي ، اذن ، ذات شقين مستقلين : مصر اولاً ، ثم ، وهذا قد رأيناها سابقاً ، القسم الاعلى من البحر الاحمر وخليج باب المندب الذي استولت على شواطئه قبائل مختلفة متفككة يسهل المكر بها ، وهي على الغالب تفهم مصالحها على اسوإ ما يكون الفهم . ان هذه الناحية مجهولة الا من الانكليز ، وقد درسوها باهتمام . انهم يعرفون تماماً بأن نصف القضية او على الاصح كلها هي هنا . فمن سواكن الى رأس كاردافوي من جهة ، ومن جدة الى دفر حدود حضرموت من جهة اخرى ، ينتظر مستقبل باهر ، سياسي وتجاري . فالدولة التي تعرف كيف

تنشىء مؤسساتها على هذه الشواطىء او تقيم علاقات حسنة لا يستطيع أي حادث ان يزعزعها .

اوهل يجب ان نقدم لانكلترا برهاناً آخر مستشهدين مجدداً باحتلال عدن ؟

ان دولة منافسة عينت وجهة سيرها وتحفزها ، فعلى فرنسا ان تستقر اذن في البحر الاحمر وخليج بــاب المندب . وللدول الاوروبية هناك مصالح مماثلة لمصالحنا ، فعليها ان تعمل جميعاً اما متحدة واما منفردة الواحدة عن الاخرى . ان مصالح هذه الدول مشتركة متشابكة الى ابعد مدى ، فاحداها تدعم الاخرى . واذا ما تقرر العمل فالدول تتعاضد ، وكل منها يعمل من جهته : فرنسا في مدغشقر وبوربون والهند ، والنمسا وروسيا تنشآن مراكز تجارية وغيرها ، وهولندا تصبح ذات علاقة مباشرة مع جاوى وسومطره والهند . وكذلك الاسبان فانه باستطاعتهم ان يستوردوا عن طريق البحر الاحمر منتوجات مانيلا . فبواسطة هذا المنفذ تأتي كل دولة بمنتوجات مستعمراتها وتصرفها عن طريق البحر المتوسط ، وتقايض بها ، وتزاحم منتوجات الهند الانكليزية على أوسع نقاط تجارة العالم .

## المؤسسات بوجه عام

قلت ان القضية تنحصر في انشاء مؤسسات تمتد من سواكن حتى رأس كاردافوي على شاطىء افريقيا ، ومن جدة الى دفر ، على شاطىء جزيرة بلاد العرب حتى حدود حضرموت .

وهذا العرض البسيط يدل على ان السويس والقصير Cosseir

منعزلان . ان هذين المرفأين هما لمصر وسوف لن يكونا ابداً الا مرافىء استيداع وتصريف البضائع ، وسيبقيان بحق لاصحاب تلك البلاد ، فما علينا سوى انشاء دور القنصليات وتعيين موظفين تجاريين يشرفون على البضائع التي تنقل من الهند الى اوروبا ، ومن اوروبا الى الهند ، ثم نقف بالمرصاد منتظرين الحدث الاهم .

ان معرفة مقدرتنا على انشاء مؤسسات على شاطىء افريقيا او جزيرة بلاد العرب هي ما يجب علينا بحثه . واني أرى هذه القضية اقل تعقيداً مما يظنون .

ليست القضية قضية انشاء مؤسسات على شاطىء الجزيرة ، ولكنها قضية انشاء علاقات طيبة ومتينة فحسب . وهاكم الدليل : ان كل مؤسسة تنشأ على هذا الشاطىء تسيء في الوقت نفسه الى الامة التي تديرها . والبرهان على ذلك عدن التي احتلها الانكليز فكانت سبب الكراهية والحقد اللذين يكنها العرب لهم . فهؤلاء الناس الذين يتعشقون الحرية الى ابعد مدى ، وهم في الوقت نفسه متعصبون لدينهم ، وتياهون معتدّون بانفسهم ، ينقلبون عليكم اذا ما شعروا انكم تهددون استقلالهم ودينهم وتجرحون عزتهم الوطنية . ان التفكير باخضاعهم عملية خطرة جداً . وليحاول الانكليز ذلك اذا شاؤوا .

اني ارى غير التفكير باخضاعهم ، ارى ان يُسعى سعياً حثيثاً للتحالف معهم .

ان احتلال انكلترا لعدن هو خطأ بالنظر للعلاقات التي يجب ان تقام مع داخل الجزيرة . لقد ظنت هذه الدولة ان القضية تتعلق بجنودها فاخطأت ولم تصب المرمى . فلنستفد نحن من

خطأها . فالطريق الى ان نكون اكثر منهم نفوذاً ممهدة انـا اليوم . اما فيما يتعلق بمشكلة المرور والمركز فما من شك في ان احتلال عدن هو من أهم القضايا الخطيرة . ان عدن لهي جبل طارق البحر الاحمر . فيجب ، قبل كل شيء ، ان نتخلى عـن فكرة انشاء اي نوع من المؤسسات على شاطيء الجزيرة . وحسبنا الآن تعيين موظفين وقناصل في جدة ، والحديدة ، ومخا ، والداخل ان امكن ، ليوطدوا مصالحنا وعلاقاتنا هناك .

ومنذ اليوم الذي يلاحظ فيه العرب بانكم لا تتطلبون منهم شيئاً ، بل يرون ، على نقيض ذلك ، انكم ترغبون في ربط مصالحكم بمصالحهم ، فسيكونون الى جانبكم ضد انكلترا التي يخافونها .

اما قضايا شاطيء افريقيا فتختلف عن ذلك كل الاختلاف . صحيح ان هذه الشواطيء مأهولة بقبائل اسلامية ، الا ان هذه القبائل ضعيفة مفككة عرى الاتحاد . فالقسم الداخلي من بلاد الحبشة يضم شعوباً مسيحية ، وهي بأسرها تدعونا وتمد لنـا يد المساعدة عندما ننزل الى الشاطيء .

والمواقع التي يمكن احتلالها ، سواء أكانت في خليـج باب المنـدب ، ام كانت عند مدخل البحر الاحمر ، ام على شواطيء الحبشة ، هي كثيرة جداً ، يجب ان توصل جميعها ببوربون عن طريق شاطيء افريقيا الجنوبية الشرقيـة ومدغشقر فتؤلف سلسلة مؤسسات تجابه بها فرنسا انكلترا لاسيما اثناء حرب عـامة . امـا ايام السلم فيمكنها ان تكون لنا مصدر منافع تجارية عديدة .

يظهر ان الدولة الفرنسية قد سلمت بأهمية هذه القضية فكلفت لجنة ان تدرس قضية انشاء مراكب تجارية تمخر بين السويس

وبوربون . انه لمن المحتمل جداً ، لسوء الحظ ، ان تقوم هذه اللجنة بما قامت به شبيهاتها ، فتدفن المشروع . ولكن مهما يكن من امر فان مستعمرتنا بوربون ، ومصالحنا في مدغشقر والهند ، واخيراً مصالحنا التي قد تنشأ على شاطىء افريقيا، تستدعي هذا التنظيم .

## بواخر بين السويس وبوربون

ان بين بوربون والسويس ، اذا ما سرنا خطاً مستقيماً او شبه مستقيم ، مسافة تراوح بين ١٦٥٠ و١٧٥٠ فرسخاً . وطريق كهذه لا يمكن ان تكوّن شوطاً واحداً ، ما لم نقم ببناء بواخر كالبواخر المعدة للابحار الى ما وراء المحيط . واذا اتبعنا هذا النهج في علاقاتنا مع اميركا فلاستحالة وجود المواقف . اما من بوربون الى السويس فاننا نجد اماكن نرسو فيها حيث نشاء لان نظرنا يقع دائماً على شواطىء وجزر . ان تنظيم هذه الشبكة من البواخر ونجاحها ، وهما ممكنان اذا شئنا ، يرتكزان اولاً : على اتجاه الخط ، ثانياً على المؤونة ( فحم الحطب ، خشب البناء ، المعيشة ) ، ثالثاً على مركز الموانىء .

## الاتجاه الاول والخطوط الممكنة

الاتجاه الاول : الخط الانكليزي

٤٣٠ فرسخاً من بوربون الى سيشيل . ربطه بجزيرة فرنسا .
٦٢٥ فرسخاً من سيشيل الى عدن . ربطه بسوكوتورا عند الضرورة .
٥٨٥ فرسخاً من عدن الى السويس . ربطه بمخا وجده .
١٦٤٠ فرسخاً . موقفان .

الاتجاه الثاني : الخط العربي

٦٦٠ فرسخاً من بوربون الى شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي . ربطه بجزيرة فرنسا ومدغشقر .

٥٢٠ فرسخاً من شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي حتى مخا . ربطه بعدن وبربرة .

٥١٥ فرسخاً من مخا الى السويس . ربطه بجده .

١٦٩٥ فرسخاً . موقفان .

الاتجاه الثالث : الخط الانكليزي العربي

٤٣٠ فرسخاً من بوربون الى سيشيل . ربطه بجزيرة فرنسا .

٣١٠ فراسخ من سيشيل الى شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي .

٤٥٠ فرسخاً من شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي الى عدن .

٥٨٥ فرسخاً من عدن الى السويس . ربطه بمخا وجده .

١٧٧٥ فرسخاً . ثلاثة مواقف .

وهناك ايضاً اتجاه آخر ، عربي انكليزي ، ينقص عنه مسافة ٨٠ فرسخاً وهو ذو موقفين : الاول من بوربون الى شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي . الثاني من هذا الاخير الى عدن ، ومن عدن الى السويس .

الاتجاه الرابع : الخط الفرنسي

٢٨٠ فرسخاً من بوربون الى القديسة مريم ومدغشقر [١] . ربطه بجزيرة فرنسا . ٢٨٠

١ اني لا اسمي نقاط المواقف باسمائها، بل حاولت جهدي ان اتكلم عنها بصورة عامة ، لان ذكرها قولاً يضر بمصالحنا ، فكيف بنا اذا دوناه في كتاب .

| | | |
|---|---|---|
| ٣٦٠ | فرسخاً من مدغشقر الى شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي . | ٣٦٠ |
| ٣٢٠ | فرسخاً من الشاطىء الجنوبي الشرقي حتى رأس كاردافوي . | ٣٢٠ |
| ٣٣٠ | فرسخاً من الرأس حتى شاطىء الحبشة نحو ماسونا . ربطه ببربرة ومضيق باب المندب . | ٣٤٠ |
| ٤٠٥ | فراسخ من شاطىء الحبشة نحو ماسونا – السويس . ربطه بجده . | ٤٣٠ |
| ١٦٩٥ | فرسخاً . اربعة مواقف . – الفرق بين المراسي | ١٧٣٠ |

وهذه الاتجاهات الاربعة هي الوحيدة الممكنة . انها الفرصة المؤاتية ، بل الساعة التي يجب علينا فيها درس قيمة كل منها على انفراد . ولما كانت هذه الخطوط ترتبط كل الارتباط بالمواقف فسندرسها معاً .

## الذخائر : الفحم ، الخشب ، اسباب المعيشة

### الفحم الحجري

نحن بين امرين : امـــا ان نستورد الفحم الحجري من الهند واوروبا ، او ان نوجده في هذه الامكنة نفسها ، اي ان نستخرجه من مدغشقر وافريقيا وجزيرة بلاد العرب حيث يجب ان تقام هذه المواقف .

ان طرفي هذا الخط خاليان من هذا الفحم ، فبوربون ومصر يفتقران اليه ، بينـــا هو موجود في مدغشقر والحبشة ، واهل تلك

البلاد يعرفونه . اما جزيرة بلاد العرب فلم يعرف شيء عن الكمية التي وجدت فيها منه .

نجد في مدغشقر الفحم الحجري في مكان يبعد قليلاً عن البحر ، فيستطاع نقله بسهولة في نهر يصب في خليج كبير . وفي داخل الجزيرة ، قرب ، تاناناريف ، كثير من الفحم الحجري ، وقد استخدمه افرنسي في اعمال الحدادة . فاذا ما خصصنا قليلاً من العمل للنهر الذي يجري قريباً من ذلك المكان ، فانه يمكننا نقل ذلك الفحم الى البحر . ان تحقيق هذا المشروع سهل ، كما يقول العارفون .

اما العارف في الحبشة ، فقد عثر على الفحم الحجري عند حدود فولوكالا وكوى ، قرب نهر وات الذي يبعد قليلاً عن روبي سانا ، ويصب في هافاش ، وهو موجود ايضاً في تيانو عند حدود كوى ، قرب هافاش . ومن الثابت اليوم ان جبال مدغشقر والحبشة تحتوي الفحم الحجري .

اما الامر الجدير بالذكر فهو ان رحالتين قد عثرا على الفحم في الحبشة حينما كانا يجولان في اطراف انجاد تلك البلاد . ان معرفتي لعلم طبقات الارض قليلة ، ولكن اختباري وملاحظتي التربة يؤكدان لي انه محتمل جداً ان نجد منه قرب تارانا الواقعة على مقربة من هالاي وبوراي . وهاتان الاخيرتان تقعان على قمة رابية فسيحة وهي الجزء المتمم لرابية كوى . ان معادن الفحم الحجري تقع اذن على مسافة غير بعيدة من البحر ، وعلى الاخص من بوراي . وها اني ادون هذه المعلومات لتكون دليلاً للمستقبل . اما اليوم فيجب الاهتمام بنوع خاص بفحم مدغشقر ، فهو اول ما يجب الحصول عليه ليستعمل في الذخيرة . ان فحم

كوى لا يجدي نفعاً ما لم يمكن الابحار في هافاش . وهذا امر محتمل وقوعه . ان الهند تستطيع في كل خال ان تقدم من الفحم الحجري كميات كالتي تقدمها اوروبا . ولهذا يجب علينا ان نعلم ان القيام بمشروع بناء السفن البخارية امر يكلف فرنسا الشيء الكثير ، ولكنه امر لابد منه اذا كانت مصالحنا في بحار افريقيا لا تقل عنه قيمة .

## الاخشاب والحديد

ان هذه المواد تستورد عادة من اوروبا والهند ، ومع ذلك فهنالك عدة امكنة على الخطوط المشار اليها يمكنها ان تقدمها لنا . فمدغشقر تقدم حديداً او اخشاباً لبناء البواخر . اما الاخشاب فموجودة حوالي البحر . اما الحديد ففي الداخـــل . فكيلوى والبلدان الواقعة قبالتها ذات غابات كثيرة ، ومنها تقطع اخشاب البناء ، كما اننـــا نجد ايضاً غابات على الشاطىء الجنوبي الشرقي من افريقيا وفي نهر جاب الذي تحمل مياهه السفن ، وهنالك يمكن ان تبنى المراكب الضخمة .

وفي الحبشة حديد كثير ، وعلى بعد خمسة عشر فرسخاً من البحر ، قرب هالاي ، مناجم منه يحسن الاهلون استثمارها . وهذا الحديد هو من النوع الجيـد . وحسبنا برهاناً على قيمتـه القول ان حدادي البلاد ، وهم عمال غير حاذقين ، يلقونه بعض الاحيان ثلاثين اربعين مرة في النار حتى يستطيعوا ان يصنعوا منه الشكل الذي يرغبون فيه .

## المؤن

لا يعنيني ان اتحدث عن المؤن التي تستورد من الهند او اوروبا ، فهذه المؤن نجد منها ما نشاء في جميع الامكنة ، في بوربون ومخا وجدة والسويس الخ ... ولكنني سأتكلم على المؤن التي تقدمها البلدان الواقعة على الخط الذي تتبعه البواخر .

اننا نجد في مدغشقر المؤن على اختلاف انواعها بكثرة . فهي يؤتى بها اما من الشاطىء ، او من الداخل . وكذلك نقول عن شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي .

وعلى شاطىء الحبشة لا نجد من المؤن إلا اللحوم فقط . بيد انه يمكن ان يؤتى اليه بالحبوب من الداخل وبغزارة كلية . ولقد نقلوا في منتصف القرن الماضي الى جزيرة فرنسا حمولة اثنتي عشرة سفينة من القمح .

ليس في سيشيل وعدن ومخا فحم ولا حديد ولا خشب لبناء السفن . فهي تستورد كل شيء من الخارج ، ما عدا بعض المؤن التي تأتي من الداخل الى هذين المحلين الاخيرين . اما في مدغشقر وشاطىء افريقيا والحبشة والبحر الاحمر فنقدر ان نجد كلّ شيء بسهولة . فالفحم الحجري ، وخشب البناء ، والحديد ، والمؤن نجدها بكثرة تحت تصرفنا المطلق .

## المواقف

ها قد وصلنا الى ادقّ نقاط مشكلة البواخر التي تربط بين

السويس وبوربون وهي مفصلة المواقف . اما المراسي فيمكن تحويرها على ما تقتضيه المصالح السياسية والتجارية . وعليه فاذا ذكرنا بوضوح المنافع التي يجب ان تتوافر في الموقف ليكون مقبولاً ويسلّم باحداثه ، فهذا يعني اننا عيّنا وجهة الخط .

ما هي هذه الشروط ؟

١ - يجب ان يكون الموقف ، بناء على حقّ ما ، ملكاً لفرنسا يحيط به شعب محالف لين الجانب ، تشبه مصالحه مصالحنا ، ونكون ذوي تأثير فيه وسلطة عليه لنتمكن في جميع الحالات ان نتقي المتاعب التي قد يحدثها لنا .

٢ - يجب ان يكون كل موقف نقطة تجارية يستطاع تحويلها الى موقع عسكري في اثناء الحرب . ولهذا يجب ان يكون ذلك المركز سهل الحماية يصلح ملجأ للمراكب التجارية ، وعند ذاك سيكون لكل موقف مرفأ ممتاز ، وشعوب حليفة تحيط به . فمن هذه المواقف التي يجب ان تكون ملكاً لفرنسا نستمد الفحم والخشب ، ومواد الاعداد والتجهيز الاخرى ، والمؤن . فهل نجد في مواقف هذه الخطوط الاربعة المنافع المشار اليها ؟

## مواقف الاتجاه الاول

### الخط الانكليزي

ان سيشيل وعدن ، المملكتين الانكليزيتين ، هما مواقف هذا الخط ، فسنكون اذن تحت رحمة الانكليز . فالفائدة الوحيدة ، وهي وصول المؤن ايام السلم ، فلن نحصل منها إلا على ما يوافق الانكليز ان نحصل عليه ، فنضطر حينئذ الى مشترى كل شيء

منهم ، او على الاقل استبداعهم كل شيء . وبعد ، فاذا كانت كل منفعة تجارية او وطنية تقوم على المخاطرات ، فهذا الخط لا يسلم به ، وهو يسيء الى مصلحتنا الوطنية .

## مواقف الاتجاه الثاني

### الخط العربي

اذا كانت المواقف على شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي وفي مخا ، فانهـــا تخص العرب الذين يحتملون بصعوبة وجودنا فيها . فاستقرارنا هنالك لا يكون إلا رغماً عنهم . وعليه فلا يمكن ان يكون لنا موقف إلا على الشاطىء الجنوبي الشرقي من افريقيا . واذا كنا نطمح اليه فيمكن احداثه اذا ما استندنا الى حق ما . اما مخا فلا يجب ان نحلم بها لاننا نضطر الى مغادرتها إما عاجلاً او آجلاً . ثم ان الاستقرار على الشاطىء الجنوبي الشرقي ، وفي مخا ، دون التفكير بالمستقبل ، ولو رضي أهلوهما ، يعني خلق المشاكل الكبرى . فالدسائس الانكليزية التي تدعمها المصالح المقهورة لا تتأخر ابداً عن العمل سراً .

ان الانكليز انفسهم لم يتمكنوا من الاستقرار في مخا . ولولا مبادرتهم الى احتلال عدن لكانوا قطعوا عليهم ، على أثر اندحار محمد علي من مخا ، خط المواصلات الذي تتبعه بواخرهم بين السويس وبومباي . فكل مشاكلهم هناك من صنع العرب .

اما على الشاطىء الجنوبي الشرقي فيصعب عليهم ان يضروا بنا لان ليس لهم فيه مصالح محلية تعادل مصالحنا اهمية ، ولان بعض المراكز بعيدة عن تأثير سلطة زعماء الداخل ، بخلاف مخا التي هي

تحت سلطة امام صنعاء .

فالمنفعة الوحيدة التي يمكن ان يقدمها هذان الموقفان هي تجارية ، وكل ما عداها مؤقت . فعلى الشاطىء الجنوبي الشرقي مرفأ جميل يمكننا بواسطته ان نستورد من الداخل الاخشاب والمؤن . اما مرفأ مخا فهو غير نافع من جهة ثانية لاننا لا نجد في ضواحي هذين الموقفين الفحم الحجري ، وبكلمة واحدة اننا سنكون هناك تحت رحمة العرب . ولهذا ارى استحالة احداث هذا الخط وعدم نفعه .

## مواقف الاتجاه الثالث

### الخط الانكليزي العربي

ثلاثة مواقف في سيشيل ومثلها على الشاطىء الجنوبي الشرقي من افريقيا وفي عدن ، او اثنان فقط في هاتين النقطتين الاخيرتين اذا كانت المسافة غير طويلة .

سوف لن نتناول هذا الخط الا بكلمة واحدة ، فهو شريك الخطين الاخيرين ولا يقدم اية فائدة ، الا اذا استثنينا الحالة التي ينشأ فيها موقف على الشاطىء الجنوبي الشرقي ، فتقصر الطريق عند ذاك ، ونستطيع الحصول على منافع تجارية ، ولكننا نكون تحت رحمة العرب والانكليز .

اننا لا نجد بين هذه الخطوط الثلاثة واحداً تجتمع فيه المنافع والشروط المدونة اعلاه ، فاينما كنا لا نواجه الا شعوباً تقاومنا ملبية داعي مذهبها . واذا ما حاولنا كبت تعصبها تناصبنا العداء اما بدسائسها ، واما بدافع مصالحها المقهورة . واخيراً الانكليز ؟

ان كل شخص يفهمهم . فهذه المواقف ، من جميع جهاتها ، تكون اقامتنا فيها موقتة ومعرضة للاخطار .

وعليه فاذا شئنا ان نحدث خطاً للسفن البخارية مبنياً بنياناً وطيداً على اساس المصالح الافرنسية ، سواء أكان في البحر الاحمر او مضيق باب المندب ، فيجب ان لا يكون موقفنا فيه تحت رحمة العرب او سلطة الانكليز . واذا فعلنا خلاف ذلك فلا خط للبواخر ولا مستقبل .

لننتقل الآن الى الخط الافرنسي .

## مواقف الاتجاه الرابع

### الخط الفرنسي

الموقف الاول ، في خليج مدغشقر : انه يبعد عن بوربون حوالى ٢٤٥ فرسخاً ، وهو مكان صالح للارساء ، ويمكنه ان يتسع لجميع اساطيل العالم . حمايته سهلة ، ومناخه صحي خلافاً لطبيعة شواطىء افريقيا . ان الاراضي هناك قابلة للحراثة لا بل هي محروثة ايضاً ، والانهار والسواقي تسقيها . وقرب الشاطيء نجد الفحم الحجري والاخشاب للبناء . ولهذا يمكننا تحويل هذا الموقف الى مستعمرة جميلة . اما مركزه فتجاري ، وسياسي ، وعسكري ويمكننا ان نستمد منه ، لبوربون والمواقف الاخرى ، الفحم والخشب . فالمؤن هناك يسهل الحصول عليها . وبكلمة وجيزة نقول ان جميع الشروط التي نطلبها متوافرة كلها . اما المشكلة الوحيدة فهي الاستيلاء عليه بصورة شرعية . ان معاهدات ١٨١٤ تمنح فرنسا جزيرة مدغشقر .

الموقف الثاني ، على الشاطىء الجنوبي الشرقي من افريقيا ، وعلى بعد ٣٦٠ فرسخاً من مدغشقر : هنالك نقطة ذات مرفأ جميل هادىء ، وهي محور تجارة تلك الناحية من الشاطىء ، لا بل محور تجارة داخل افريقيا بكاملها . فالبلدان المجاورة لها زراعية وفيها جميع انواع المؤن حتى الاخشاب . فالجاب ، وهو النهر الكبير الذي يجري من الحبشة بين البلدان ، بلدان الغال وسومولي ، يصب قريباً من هنالك . ان ركوب هذا النهر ممكن وتجار البلاد يقطعونه . فمما ذكرنا يبدو لنا ان مركزاً كهذا يدر ارباحاً ضخمة ، وفوائد كبيرة اليومَ وغداً .

يجب ان يكون لنا هناك مؤسسة تقام بناء على حق مشروع ، وحلّ هذه المشكلة لا يكلفنا سوى قليل من الارادة . وعندذاك تنتفي الاضرار التي سبق ذكرها لان مصالح الاهلين تصبح مصالحنا ونمتزج بهم .

فهؤلاء الناس يتعاطون التجارة مع البانيانيين الذين يغشونهم . ولهذا يفضلون الاتجار معنا عندما يرون اننا اقمنا هنالك ، وان حسن النية رائدنا في عملنا .

الموقف الثالث ، يقع في رأس جاردافوي على مسافة ٣٨٠ فرسخاً من النقطة التي ذكرناها سابقاً : ان هذا الموقف هو اكثر المواقف اهمية ، وهو يشرف على البحر الاحمر وشاطىء افريقيا . اما من الوجهة التجارية فمركزه قليل الاهمية . يمكننا ان نحصل فيه على مؤن من الداخل . اما فيما عدا ذلك فلا ينظر اليه إلا كنقطة عسكرية تستمد ذخائرها من المواقف الاخرى ، إلا انه لا يستغنى عنها . لا يمكننا الذهاب لاحتلال بربرة ، المركز التجاري

الهام، الواقع على مسافة ١٤٠ فرسخاً من الرأس، لان ذلك يعني تخلينا عن المركز العسكري بتوغلنا في خليج باب المندب. اما من رأس كاردافوي فنقدر ان نحمي العلاقات التجارية مع بربرة ونسهر على صيانة شاطىء افريقيا. ان نظرة نلقيها على الخريطة تظهر لنا اهمية هذا الموقف، وخصوصاً في ايام الحرب.

ان موقف الانكليز في زيلا وعدن يجعل الاستيلاء على هذا المركز ضرورة ملحة. فبانشائنا مؤسسة قرب مضيق باب المندب، على شاطىء الحبشة، لا نكون احدثنا موقفاً بل مرسى يعادل به نفوذنا نفوذ الانكليز الذين ظنوا انهم وصلوا اليه بامتلاكهم عدن. فاذا لم نستطع ابادة ذلك النفوذ فعلينا ان نقاومه بهذا المرفأ الممتاز الواقع على مقربة من مضيق باب المندب، وفي البحر الاحمر، في موقع يجعله سيد بحر القلزم. فمن هناك نقدر ان نشاهد الناحية المقابلة، فلا يستطاع تهريب شيء بصورة مخفية. أضف الى ذلك انه لا يفصله إلا مسافة ١٢ يوماً سيراً او ٧٢ ساعة عن بحيرة هوسا حيث يتضعضع الهافاش. ولما كانت هذه البحيرة تصلح للملاحة، وهذا مؤكد، فتجارة كوى، وعدل، وبلاد الغال ترد عليها بوفرة لانها أقرب مرفأ من بحيرة زيلا. ان بضائع كوى وفحمها الحجري لا تقطع، بعد عبورها النهر، إلا طريقاً تبلغ مسافتها حوالى الـ ٧٢ فرسخاً، وهي سهلة التمهيد لتصبح صالحة للعربات. واذا نشبت حرب يحوّل هذا الموقف مرفأ تحتمي فيه السفن.

الموقف الرابع، على شاطىء الحبشة قرب ماسونا ويمكن ربطه بمخا اذا دعت الحاجة: انه من اكثر المراكز اهمية سواء أكان من حيث الوجهة التجارية، او تنظيم خط البواخر، او

احتلال المواقف على البحر الاحمر وشواطىء افريقيا . فهنا وفي مدغشقر يجب ان يبتدىء العمل ، وعلى هاتين النقطتين يبنى مستقبل تجاري باهر ، فتحقق المصالح الوطنية الكبيرة . ان هذا المكان لا يحتوي الفحم الحجري - أي انهم لم ينقبوا عنه فيه ، ولا عن الاخشاب الصالحة للبناء ، ولكنه يتمتع باطيب مناخ حول البحر الاحمر . فجميع انواع المعيشة متوافرة فيه ، وهو يفتح لنا مجال استخراج الحديد من الحبشة . فهذا الموقف ، الذي يتلقى الفحم من مدغشقر ، ومن كوى عن طريق الهافاش ، واخشاب البناء من شاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي ، في مقابل حديد الحبشة وذخائرها ، يمكننا من القبض على ناصية تجارة البحر الاحمر .

انه ليسعني ان أؤيد بحادث خطير صحة ما زعمت ، ولكن ذلك يقتضيني تعيين المحلة بكثير من الوضوح ، وفي الايضاح ضرر يجب عليّ ان اتجنبه لئلا اخدم غير دولتي .

لنفكر ملياً . فباحتلال رأس كاردافوي وشاطىء الحبشة نصبح أسياد الهند عن طريق البحر الاحمر ، وباحتلالنا رأس كاردافوي ومدغشقر نصبح اسياد الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح . فالمسافة التي بين هذا الموقف الاخير والسويس ليست إلا ٤٥٠ فرسخاً . سوف لن اتكلم عن السويس حيث يجب ان تنشأ مستودعات للفحم . ان موقف السويس هادىء لان هذه المدينة تخضع من حيث تموينها للقاهرة ومصر ، وقد كنا في كل وقت نستطيع التأثير على الرجالات الذين يحكمون القطر المصري . فمصلحتهم تقضي عليهم بان يقوموا قدر الامكان بحماية المؤسسات الفرنسية والاوروبية التي تناهض مصلحة انكلترة .

ان هذا الخط الوطني للبواخر يشمل ايضاً المواقف التجارية والعسكرية الممتدة بين بوربون والسويس . واذا ما نفذنا مشروعاً كهذا بارادة صلبة ، نقبض على تجارة مدغشقر وشاطىء افريقيا الجنوبي الشرقي ، والبحر الاحمر والحبشة ، وجزيرة العرب . وهكذا نصبح اسياد طريق الهند المطلقين عن طريق البحر الاحمر وترعة موزامبيك . فالصمود في الحرب هناك سهل علينا اذا احسنا تنظيم هذا الموقف ، لا بل يلحق باعدائنا الاضرار البالغة ، اذ لا يجسرون على اللحاق بنا او التفتيش عنا في البحر الاحمر ، ولا يحاولون الاقتراب من مؤسساتنا .

ان الخط الفرنسي هو الوحيد اذن الذي يوفر فوائد اليوم والغد ، وهو الوحيد الذي يجب تبنّيه . فانشاء خط للبواخر بين السويس وبوربون هو مشروع وطني ذو مستقبل باهر . وبه تصبح بوربون على مسافة ٣٥ يوماً من فرنسا ، ومدغشقر على مسافة ٣٣ يوماً ، ومخا على مسافة ٢٢ يوماً ، والحبشة على مسافة ٢٠ يوماً ، وتصبح جدة ، وهي مرفأ مكة ونقطة ارتكاز بلاد جزيرة العرب ، على مسافة ١٩ يوماً . ان هذا يعني تشييد العمران والنفوذ الفرنسي في البحر الاحمر ، وبلاد جزيرة العرب ، والحبشة ، وشاطىء افريقيا بما فيه مدغشقر التي نستمد منها الفحم .

## منافع المواقف وخط البواخر

## بين بوربون والسويس

ان الفوائد الناتجة عن انشاء الخط الفرنسي وامتلاك المواقف هي على انواع ، فبعضها معروف يتفرع بالطبع عن الوقائع نفسها ويمكن اثباته بالبراهين ، وبعضها الآخر يمكن اثباته بالارقام .

ومن المؤكد ، وهنا اعيد ما قلته سابقاً ، انه بامتلاكنا المواقف والحقوق على الشاطىء وتوطيـــد مؤسساتنا ، كما اشرت ، نصبح اسياد طريق الهند في البحر الاحمر . وهذا ما يجب ان نفكر به ملياً لان الوقت الذي تستعيد فيه تجـارة اسيا وافريقيا طريقها القديمة ليس ببعيد .

ويجب ان نعلم ايضاً انه اذا كانت شواطىء افريقيـا مأهولة بالمسلمين ، ففي الداخل اي في الحبشة وكوى وكافا وناريا ، مسيحيون يدعوننا ويودون لو يروننا نستقر على الشاطىء .

ان كل هؤلاء يصيرون سماسرتنا وعملاءنا حتى في وسط افريقيا . ففرنسا بامتلاكها مركزاً عسكرياً وتجارياً ، وبخلقها منافذ لترويج بضائعها ، انما تقوم بالمهمة التي شاء القدر ان يلقيها على عاتقها ، ألا وهي مهمة تمدين الانسانية .

قد تخالج بعضهم الريبة بأن هذه النتائج لا تكون بدون تضحيات . ان القضية هي غير ما يتوهمون . فاذا وجدنا ، على الخط المذكور ، مصالح عتيدة وادبية ، فهنالك ايضاً مصالح بديهية ومفيدة يمكن تحقيقها مباشرة . انها مصالح مادية نقدية يمكن تحقيقها في اليوم الذي ننزل فيه الى الشاطىء .

صحيح ان تجارة جميع هذه الامكنة من مدغشقر وشواطئ افريقيا والبحر الاحمر ليست على المستوى الذي يجب ان تكون عليه ، الا انها مع ذلك مهمة جداً يجدر بنا ان نستأثر بها . وعليه يجب الابتداء هنا ، ولو في انشاء خط البواخر بين السويس وبوربون .

قد نتعرض لمصاعب جمة اذا شئنا ان ننشىء بغتة مراكز عسكرية ، ناهيك بان هذا الامر يتطلب نفقات كبيرة . اما اذا ابتدأنا بتعاطي اعمال التجارة ، وخلق علاقات ومصالح مع شعوب الداخل والشاطىء ، فانهم يمنحوننا جميع مطالبنا عندما يشعرون بالارباح التي يجنونها . يجب ألا نعتقد ان مسألة هذه التجارة سهلة ، وانه يجب ان نواجه هذا العمل كمن يذهب الى صيد الحوت . كلا ! انها تقتضينا القيام بغزوة تكون اكثر وصانة من غزوة انكوبير والكثيرات مثلها التي اسفرت عن نتائج مخزية . فهي تتطلب انشاء شركة متكاتفة وعمل متتابع ، لا عمل شركة منافع [1] .

[1] اني اسف ان اقول ذلك . الا ان التجارة الفرنسية لم تعد تستطيع القيام باعمال تصدير واسعة وانشاء مؤسسة تجارية قوية . انها تجهل معنى الشركة وضم رؤوس المال بعد ان اصبحت انانية منطوية على ذاتها . فكل شخص يعمل جهده ليستأثر بالعمولة ويتفرد بارباح استيداع البضائع . وقد رأيت بيدانا باسعار بضائع ضوعف ثمنها لدى وصولها الى المرفأ ، من قبل المحل المكلف بارسالها . كم هي مشجعة تجارتنا الخطرة في المرافىء !! ومنذ زمن ليس بالبعيد عرض على احد المحلات التجارية في بوردو مشروع القيام بتصدير ، غرض بادىء ذي بدء حين بدا له ان ليس في استطاعته استغلال المناسبة ومضاعفة الربح . واخيراً بعد ان حصل على المعلومات الكافية ، قبل بذلك وسام بدفع اربعين الف فرنك على شرط ان يستقل باستيداع البضائع . ان البضائع المصدرة كانت تساوى ٦٠٠٠٠٠

سوف لن ادلي فيما بعد باية معلومات عن تجارة مدغشقر لانها معروفة نوعاً ما . فهذا البلد يقدم لجزيرة فرنسا وبوربون حاجيات ذات اهمية أوّلية . وانا واثق من اننا نعرف القليل عن منتوجات هذه الارض الشاسعة التي نجد فيها منفذاً هاماً للتصدير لانها تضم حوالى اربعة ملايين من المستهلكين . لا اريد ان اتعمّق في التفصيلات لان اناساً آخرين غيري يهتمون بذلك بصورة جدية . فيمكننا ان نقرأ عن مدغشقر وتجارتها البيان الصحيح الممتاز المنشور في المجلد الخامس من هذه النشرة ! ويلاحظ المؤلف ، بلا ريب ، ان مدغشقر التي شاءت ان تحصر فرنسا فيها جميع نشاطها ، ما هي إلا واحدة من النقاط التي تهم الاوروبيين عامة والافرنسيين خاصة لكي يقفوا بوجه انكلترا .

## تجارة جزيرة بلاد العرب العامة . تجارة مصر وسنار ، وبلاد النوبا ، والبحر الاحمر ، والشانجالا ، ودنقلي ، والحبشة ، وعدل ، وشاطىء افريقيا الجنوبي .

الارقام تفصح هنا اكثر من الكلام . ولهذا ابدأ بتقديم بيان عن البضائع المستوردة والبضائع المصدرة ، مع وصف الحركة التجارية .

واحيط القارىء علماً بانني لم اسجل في لوائحي الا الرقم الادنى ،

فرنك . وما من شك ان ربح العمولة لم يكن ينقص عن ٦٠٠٠٠ فرنك . ففي جميع الحالات كان هذا المحل الجسور في بوردو متيقناً انه سيجني ربحاً يعادل ٢٠٠٠٠ فرنك . هذه هي تجارتنا في اعمال التصدير : انها مخيفة !

فعندما كنت اقع على رقم كنت امحصه دائماً معتمداً على معلومات رسمية لا شك في صحتها ، ثم انقص من نسبته دائماً . وسوف يلاحظ المطالع ايضاً ان جميع ارقامي خالية من الكسور ، وما سبب ذلك الا اهمالي لها ، لازيد في ايضاح بياناتي . ومع كل هذا أراني لم اتجاوز قط الواقع .

ان المعلومات التجارية المتعلقة بجزيرة بلاد العرب ومصر وسنار وشاطىء افريقيا هي مختصرة . وقد اكتفيت بتدوين الواردات والصادرات كي لا اضخم هذا البيان ، كما اني لم اقم الا بعرض واردات الحبشة والبلدان المجاورة لها لانها لم تُعرف مثل غيرها .

## تجارة جزيرة بلاد العرب

ان المراكز الثلاثة الهامة التي تمارس فيها الاعمال التجارية هي جدة والحديدة ومخا .

### تجارة جدة

حركة المرفأ التجارية :

من ٤٠ الى ٥٠ سفينة تراوح حمولتها من ٥٠٠ الى ٦٠٠ طن .
من ٣٠ الى ٤٠ مركباً شراعياً من الهند الى مسقط .
من ١٥٠ الى ٢٠٠ مركب من مصر والنقاط الاخرى .

واردات

المأكولات ، الارز ، القمح ، السكر ، الابازير ، الاقمشة الحريرية والقطنية ، الزجاج ، الخزفيات ، السكاكين ، الاسلحة ، البارود ، الرصاص ، الخرطوش ، السجاد ، الخام الساذج ، الخام الملون والاصفر ، العرق ، الخرضوات ، التبغ ، الاجواخ ، المحمل .

صادرات

الصمغ ، السندروس ( نوع من الصمغ ) ، البخور ، الزجاج البراق ، اللآلىء ، الحجارة الكريمة ، وعلى الاخص النقود والبلح .

ان التوريد ضئيل جداً ، فهم يقايضون بقليل من الاشياء ، والتجارة تنحصر كلها في الاستيراد .

ان كمية المعاملات التجارية تبلغ على الاقل ٢٥٠٠٠٠٠ فرنك .

## تجارة الحديدة

صادرات

البن ، السنا ، الصمغ ، الاملاح ، الحمضيات ، جلود البقر والمعزى والغنم ، التمر الهندي ، البخور ، عروق الصباغ ، الزجاج البراق ، اللآلىء ، البلح .

واردات

الارز ، السجاد ، الاقمشة الحريرية والقطنية ، الانسجة ذات اللونين الازرق والاحمر ، التبغ ، البضائع الخفيفة ( خرضوات ) ، السكاكين ، الاسلحة الابازير الخ ...

ان الاستيراد ضئيل جداً والتجارة محصورة في التوريد مقابل نقود .

كمية المعاملات التجارية : ١٥٠٠٠٠٠ فرنك .

## تجارة مخا

صادرات

البن ، الصمغ العربي ، المصطكي ، الصبر ، جلود البقر والمعزى

والغنم ، الجلود المدبوغة ، النيل ، ملح البارود ، التمر ، السنا ، خراشف السلاحف ، الاشياء اللماعة ، عود الند ، روح النشادر ، العطور ، البلح .

واردات

الارز ، الاباريز ، الخام البسيط والمصبوغ ، السجاد ، التنبك ، التبغ ، الارز ، العرق ، الحديد ، الرصاص ، القصدير ، النحاس ، السكاكين ، الاسلحة ، الزجاج ، الخزف ، الاجواخ ، المخمل .

يتعاطى نصف هذه التجارة بالبضائع المستوردة مقايضة ، والنصف الآخر بالنقود .

كمية المعاملات التجارية : ٠٠٠ ٠٠٠ ١٥ فرنكاً .

ملاحظة : ان هذه المرافىء الثلاثة تموّن الشعوب النجدية واليمنية . ومرفأ جدة يموّن مكة والمدينة والبلدان المجاورة . ان هذه المرافىء تتعامل مع ٠٠٠ ٠٠٠ ٥ نفس على الاقل .

اما التجارة القائمة على الاستيراد والتوريد فيقوم بها ابناء البلاد ، والبانيانيون مع الهند . ان بعض السفن الاوروبية ، وهي ثلاث او اربع على الاكثر ، تأتي الى مخا لتنقل البن دافعة ثمنه نقوداً .

## تجارة مصر

ان هذه التجارة تمارس عن طريق السويس والقصير Cosseir . انها هي هي ، من حيث التوريد ، في كلا المرفأين . اما البضائع المستوردة فتذهب خصيصاً الى السويس .

البضائع الموردة

الخام ، الحرائر المصبوغة بالاحمر والازرق ، الملابس الجاهزة ، الزنانير الحريرية ، الطرابيش ، البوابيج ، الجلود الحمراء ، المناديل ، التبغ ، الاسلحة ، الانسجة المغربية ، الثمار المجففة ، الخضار ، وبنوع خاص المأكولات كالارز والقمح . حاجيات المصانع الاوروبية كالانسجة القطنية ،والانسجة المصبوغة والزجاج والخزفيات وشبيهات تلك .

البضائع المستوردة

البن ، البخور ، جلود الاغنام ، التنباك ، البلح ، السجاد ، الكشمير ، اللآلىء ، عروق الدباغة ، الكركم ، القصدير ، السفط ، الاقمشه القطنية الزرقاء ، الحناء .

ان الاستيراد يفوق بكثير قيمة التوريد .

رأس مال هذه المعاملات التجارية : ٦٠٠٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : ان مرفأي السويس والقصير يوردان الى مصر الوسطى والسفلى وقليلاً الى سوريا ، وهما يتعاملان مع ٢٠٠٠٠٠٠ نفس .

ان الاعمال التجارية تمارس بواسطة المراكب .

## تجارة سنار وبلاد النوبا

سواكن وبادرو هما النقطتان الوحيدتان لاعمال هذه التجارة .

واردات

الارز، القمح، الانسجة الحريرية والقطنية، التبغ، الاباذير، الاسلحة، البن ، ثم البضائع عينها الموجودة في جدة ، ولكن بمقدار قليل.

صادرات

الصمغ ، البخور ، ريش النعام ، الجلود ، الذهب ، العاج .

ان الاستيراد والتوريد متعادلان .

كمية المعاملات التجارية : ٣٠٠٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : وهذه التجارة التي كانت قديماً هامة ضعفت بعد احتلال محمد علي لسنار وبلاد النوبا . ان المنفذ التجاري الهام كان عن طريق البحر الاحمر . اما اليوم فان جميع الواردات والصادرات تتوجه الى مصر .

ان سواكن وبادرو تتعاملان مع ٥٠٠٠٠٠ شخص ، وقد كان هذا الشعب يتعامل فيما مضى مع دروفور وفازوجلون وبلاد الزنوج الاخرى . ان هذه التجارة التي اعيدت الى ما كانت عليه سابقاً يمكنها ان تسد حاجة ٢٥٠٠٠٠٠ مستهلك . وهي تمارس بواسطة مراكب تقدم من جدة .

## تجارة جزر البحر الأحمر

دهالاك وكامران ، ونورا وفروت الخ ... هي جزر تقع في الجهة السفلى من البحر الاحمر . وهذا بيان بما تصدر وتستورد كل سنة :

بضائع التصدير

| | | |
|---|---|---|
| السفط | ٥٠٠٠٠ | فرنك |
| اللآلىء | ١٠٠٠٠٠ | فرنك |
| العروق اللماعة | ١٠٠٠ | فرنك |
| الحصر | ٥٠٠ | فرنك |
| | ١٥١٥٠٠ | فرنك |

بضائع الاستيراد

المأكولات ، الارز ، القمح ، البلح ، بعض الانسجة للملبوسات وعلى الاخص النقود .

كمية المعاملات التجارية : ٣٠٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : كانت هذه التجارة مزدهرة تماماً وكثيرة الانتاج . اما اليوم فاصطياد اللآلىء وسفط الاسماك أهمل تقريباً . وشعب جميع جزر البحر الاحمر لا يتعدى الالفين من السكان . ان هذه التجارة تمارس بواسطة المراكب مع مدن جزيرة بلاد العرب وافريقيا .

## تجارة نقلي

ان هذه التجارة تمارس على نقطتين ، عن طريق مصوع وارانا .

بضائع التصدير

| | |
|---|---|
| الزبدة السائلة | ١٠٠٠٠٠ فرنك |
| البقر والاغنام | ١٠٠٠٠ « |
| جلود البقر والاغنام والمعزى | ١٠٠٠٠ « |
| | ١٢٠٠٠٠ فرنك |

شحم الغنم . انهم لا يحسنون تحضيره ، كما انهم يرمون القرون .

واردات

الارز ، القمح ، الذرة ، البلح ، الانسجة القطنية الزرقاء اللون والبيضاء ، الزجاج ، البارود ، الاسلحة ، الرماح ، السيوف .

تجارة مقايضة ونقود .

كمية المعاملات التجارية : ٢٤٠٠٠٠ فرنكاً .

ملاحظة : تتعاطى هذه التجارة مع شاطىء جزيرة بلاد العرب . ان تجارة أخرى ، سنتكلم عليها فيما بعد ، تتعاطى في المرافىء نفسها ، هي تجارة الحبشة . ان شعب دنقلي يقارب ٤٠٠٠٠ نفس .

## تجارة شنغالا

ان هذه التجارة تمارس عن طريق مصوع وتيجرى .

صادرات

| | | |
|---|---|---|
| ذهب | ٣٠٠٠٠ | فرنك |
| عاج | ٥٠٠٠ | فرنك |
| فار المسك | ٢٠٠٠ | فرنك |
| قرون الكركدن | ٥٠٠ | فرنك |
| صموغ | ١٠٠٠ | فرنك |
| جلود البقر والمعزى | ١٠٠٠ | فرنك |
| ريش النعام | ١٠٠٠ | فرنك |
| جلود النمورة | ١٠٠ | فرنك |
| | ٤٠٧٠٠ | فرنك |

واردات

انسجة قطنية : بيضاء وزرقاء وحمراء ، سيوف ، بندقيات ، بارود ، زجاج ، ابازير ، بهار .

وهذه التجارة هي بمعدل ١/٤ من النقد و ٣/٤ بالمقايضة .

كمية المعاملات التجارية : ٨٠٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : وهذه التجارة الضئيلة يمكنها ان تصبح ذات اهمية

كبرى . ان باس حكام مسوى هو السبب في احجام سكان شنغالا عن تعاطي التجارة في هذا البلد . ان عدد السكان يبلغ حوالى ٤٠٠٠٠ نفس .

## تجارة الحبشة

تجارة اقاليم تيجرى

عدوى وانتالو هما النقطتان الهامتان لهذه التجارة .

بضائع التصدير

| | |
|---|---|
| شمع | ٢٠٠٠٠٠ فرنك |
| جلود البقر والمعزى والاغنام | ٧٠٠٠٠ « |
| قطن | ٥٠٠٠٠ « |
| نعال | ٥٠٠٠٠ « |
| عسل | ٥٠٠٠٠ « |
| عاج | ٣٠٠٠٠ « |
| صموغ | ١٠٠٠ « |
| مسك | ١٠٠٠ « |
| ذهب | ١٥٠٠٠ « |
| فراء | ١٠٠٠ « |
| | ٤٤١٠٠٠ فرنك |

انهم لا يحسنون صنع شحم الغنم . بقر ، اغنام ، قمح ، شعير .

واردات

انسجة قطنية : زرقاء وحمراء ، جلود القاهرة ، حرائر زرقاء ، بنادق بفتيل ، سيوف ، نحاس ، زجاج ، انسجة منقشة ، بهار ،

كحل ، تبغ ، مشروبات ، زجاج ، وما شاكلها .

ونصف هـذه التجارة يتعاطى بالنقود ، والنصف الآخر ببضائع مستوردة .

كمية المعاملات التجارية : ٨٨٠ ٠٠٠ فرنك .

## تجارة اقاليم امهره

غوندار هي السوق المهمة والنقطة التي تتوجه اليها القوافـل لتعود منها الى بلاد الغال وتذهب الى ناريا وسنار ومصوع بعـد ان تمر في تيجرى .

بضائع التصدير

| | |
|---|---|
| عاج | ١٥٠٠٠٠ فرنك |
| ذهب | ٢٠٠٠٠٠ » |
| بن | ٤٠٠٠٠٠ » |
| مسك | ١٥٠٠٠٠ » |
| جلود البقر بحالتها الطبيعية | ٦٠٠٠٠ » |
| جلود مدبوغة | ١٥٠٠٠ » |
| جلود المعزى والاغنام بحالتها الطبيعية | ٣٠٠٠ » |
| جلود مدبوغة | ٥٠٠٠ » |
| قطن | ٥٠٠٠٠ » |
| بوابيج ونعال | ٨٠٠٠٠ » |
| صمغ | ٢٠٠٠٠ » |
| قرون الكركدن | ١٠٠٠ » |

| | | |
|---|---|---|
| الفراء | ٢٠٠٠ | » |
| ريش النعام | ٧٠٠٠ | » |
| شمع | ٨٠٠٠٠٠ | » |
| | ٣٧٠٠٠٠ فرنك | |

ان شحم الاغنام والبقر والخيول والمعادن تزخر بها هذه البلاد .

بضائع الاستيراد

الانسجة القطنية : الزرقاء والحمراء ، زجاج ، حرائر ، زرقاء وحمراء ، اجواخ زرقاء وحمراء ، انواع المخمل ، قطن ، بهار ، بفتا ، بارود ، سعوط وتبغ ، انسجة منقشة ، شاش موصلي ، اقمشة حريرية ، سيوف ، عطور ، اباريز ، كبش قرنفل ، لعب للاولاد ، سكاكين ، زجاج ، خزف ( لا يستوردون من هذا الصنف الا القليل ) ، حلى من فضة ومن نحاس مطلي ، بنادق بفتيل ، بعض السجاد ، أواني كنسية .

ان الاستيراد والتوريد يتعادلان . وهذه التجارة تقوم بها القوافل .

كمية الاعمال التجارية : ٧٥٤٠٠٠٠ .

## تجارة اقاليم كوى

ان عليو - امبا هي سوق هذه الاقاليم الهامة . فالقوافل تجتمع فيها لتتوجه الى بلاد الغال وكافا ونارايا وجنجيرو ، ثم تعود الى البحر عن طريق هورر ، واليوم الى بربرة ، وفي بعض الاحيان الى زيلا .

بضائع التوريد

| | |
|---|---|
| عاج | ٤٠٠٠٠٠ فرنك |
| بن | ٥٠٠٠٠ » |
| صمغ | ٣٠٠٠٠ » |
| مسك | ١٢٠٠٠ » |
| ذهب | ٥٠٠٠٠٠ » |
| ريش النعام | ٤٠٠٠ » |
| شمع | ٦٠٠٠٠ » |
| جلود بقر ومعزى واغنام غير مدبوغة | ٣٠٠٠٠ » |
| | ١٠٨٦٠٠٠ فرنك |

وفيما عدا ذلك فهنالك البغال ، وجلود فرس البحر ، وجلود النمورة والفهود ، والبقر ، والاغنام ، والخيول ، والمعادن .

بضائع الاستيراد

هي البضاعة نفسها التي نجدها في امهره . والاستيراد والتوريد يتعادلان . ويؤثرون التعامل بالنقود على المقايضة . اما المبالغ المتداولة في هذه الاعمال التجارية فهي ٢١٩٢٠٠٠ فرنك .

ملاحظة : ان تجارة هذه الاقاليم الثلاثة من الحبشة تمارس حالياً عن طريق البحر الاحمر مع مصوع وارانا ، وعن طريق باب المندب مع زيلا وبربرة ، واخيراً مع سنار لتنفذ الى مصر .

يمكن ان تكون اكثر اهمية مما هي عليه اليوم عندما يتأكد اصحاب القوافل انهم في مأمن من المتاعب . واول محل يستطيع ان يقوم بحمايتهم يصبح نقطة ارتكاز هذه التجارة .

ان عدد سكان هذه المقاطعات الثلاث يبلغ ٤٠٠٠٠٠ نفس ،

ان لم يكن اكثر ، وهي تتعامل مع اهالي نارايا وكافا وجنجيرو وجميع بلدان الغال التي تبلغ حوالى ٣٠٠٠٠٠٠ نفس . وهي تتعامل ايضاً مع بلدان اكثر بعداً . ان امهره وكوى هما السوقان اللتان تنتجان البضائع الموردة والمستوردة واللتان تلتقي هذه البضائع فيها .

## تجارة عدل والصومال

مركز هذه التجاره زيلا وبربرة . امـا هوسا وهورر فيها السوقان الهامتان اللتان تتوجه اليهما القوافل .

بضائع التوريد

| | | |
|---|---|---|
| بن | ٤٠٠٠٠ | فرنك |
| صمغ عربي | ١٠٠٠٠٠ | » |
| صمغ | ٥٠٠٠٠ | » |
| شمع | ٤٠٠٠٠ | » |
| عاج | ٢٠٠٠٠ | » |
| ريش النعام | ٣٠٠٠ | » |
| مسك | ٥٠٠٠ | » |
| زبدة | ٢٠٠٠٠ | » |
| بخور | ١٠٠٠٠ | » |
| جلود البقر والاغنام المعزى | ٦٠٠٠ | » |
| فراء | ١٠٠٠ | » |
| ذهب | ٢٠٠٠٠٠ | » |
| | ٤٩٥٠٠٠ | » |

ويجب ان نضيف الى ما سبق : البقر ، والاغنام ، والبغال ، والحمير ، والجمال ، والخيول التي يمكن ان تؤلف تجارة كبيرة . انهم لا يحسنون صنع شحم الاغنام .

بضائع الاستيراد

انها البضائع نفسها التي نجدها في امهره .

وهذه التجارة قوامها المقايضة تقريباً . ومع ذلك فهم يؤثرون النقود .

كمية الاعمال التجارية : ٩٩٤٠٠٠ فرنك .

نسبة حمولة المراكب في مرفأ بربرة : من ١٠ الى ١٢ ، ومن ٥٠٠ الى ٦٠٠ طن ، ومن ٥ الى ٢٠ مركباً تصل من الهند ومسقط .

ملاحظة : يجب ان نضيف الى هـذا المعدل التجاري معدل كوى . ان هوسا هي نقطة ارتكاز عدل التي تتفاوض مع بلاد الغال الغربية ، كما ان هورر هي نقطة ارتكاز الصومال التي تتصل بفروعها مع بلاد الغال الجنوبية . وهاتان النقطتان هما المركز التجاري لهذا المثلث الفسيح الذي ينتهي به رأس جاردافوي .

ان عدد السكان لا يقل عن ٢٠٠٠٠٠٠ شخص .

## تجارة شاطىء افريقيا الجنوبي ورأس جاردافوي

## عند مصب كيلاموس

ان هذه التجارة تمارس على الاخص في باد ، وماجادوكسا ، وبرافا ، وهامار ، ولامو .

بضائع التوريد

ذهب ، عاج ، صمغ اللك ، مسك ، جلود بحالتها الطبيعية .

بضائع الاستيراد

بارود ، اقمشة زرقاء ، زجاج ، انسجة منقشة ، خرضوات ، اجواخ ، تبغ ، عرق ، ماكولات .

وهذه التجارة تمـــارس بواسطة سفن ومراكب ، وقوامها المقايضة . انه يصل من الهند من ١٥ الى ٢٠ سفينة .

ان معدل عدد المراكب ، وجميعها من مخا او مسقط ، لا يقل عن الخمسين مركباً .

الحمولة : من ١٠٠ الى ١٥٠ طناً في جميع انحاء الشاطىء .

كمية المعاملات التجارية : ٤٠٠٠٠٠٠ فرنك على الاقل .

ملاحظة : ان البلد الذي يمتد من الكيلاموس ، النهر الذي يجري من نارايا وجنجيرو حتى راس بربرة ، هو مأهول ومروي ومزروع ، وغير قاحل كما توهموا . ويمكن الابحار على متن مراكب ثقيلة وضخمة في الكيلاموس والجاب حتى مسافة ١٥ يوماً من المصب . ان المراكز المختلفة التي اتينا على ذكرها هي اسواق تتعامل مباشرة مع ١٠٠٠٠٠٠ شخص ان لم يكن اكثر .

## بيان موجز [١]

| حركة الاعمال التجارية عن عام واحد | الشعوب التي تفاوض هذه الاسواق |
| --- | --- |

١ انا ندرك بسهولة كم كلفنا وصولنا الى نتيجة تقريبية من الانتباه الدقيق والتحريات والنظريات الممحصة والمراقبة الدقيقة في بلدان لا تمسك دفاتر منظمة او سجلات رسمية صحيحة .

ومع ذلك اقول : اذا اعتبرت هذه الارقام غير صحيحة فانها تكون دون الواقع لا

| | | | |
|---|---|---|---|
| جزيرة بلاد العرب ، مخا : | ١٥٠٠٠٠٠٠ | | السكان |
| جزيرة بلاد العرب، الحديدة: | ١٥٠٠٠٠٠٠ | ٥٠٠٠٠٠٠ | اليمن ونجد |
| جزيرة بلاد العرب ، جدة : | ٢٥٠٠٠٠٠٠ | | |
| مصر ، السويس ، القصير : | ٦٠٠٠٠٠٠ | ٢٠٠٠٠٠٠ | مصر . سوريا |
| سنار، بلاد النوبا، سواكين: | ٣٠٠٠٠٠٠ | ٥٠٠٠٠٠ | سنار وبلاد النوبا |
| | | ٢٥٠٠٠٠٠ | البلدان المجاورة |
| البحر الاحمر والجزر : | ٣٠٠٠٠٠ | ٢٠٠٠ | في الجزر |
| دنقلي ، مصوع : | ٢٤٠٠٠٠ | ٤٠٠٠٠ | دنقلي |
| شنغالا ، مصوع : | ٨٠٠٠٠ | ٤٠٠٠٠ | شنغالا |
| الحبشة ، تيجرى : | ٨٨٠٠٠٠ | | |
| الحبشة ، امهره : | ٧٥٤٠٠٠٠ | ٤٠٠٠٠٠٠ | في الحبشة |
| الحبشة، كوى : | ٢١٩٢٠٠٠ | ٣٠٠٠٠٠٠ | البلدان البعيدة |
| عدل ، صومال : | ٩٩٤٠٠٠ | ٢٠٠٠٠٠٠ | |
| شاطى، برافا الجنوبي : | ٤٠٠٠٠٠٠ | ١٠٠٠٠٠٠ | في الداخل مباشرة |
| كمية المعاملات التجارية | ٨٠٢٢٦٠٠٠ | ٢٠٠٨٢٠٠٠ | عدد المستهلكين |

عدد السفن التي تقوم باعمال هذه التجارة

من ٦٥ الى ٨٢ سفينة تراوح حمولتها

من ٥٠٠–٦٠٠ طن . المعدل : ٤٠١٥٠ طناً

اكثر منه . اما فيما يختص بالبيان المفصل عن تجارة الحبشة فاني اؤكد صحته على الرغم من انه يسعنا ان نضيف اليه بعض الحاجيات المصدرة التي تظهر من وقت الى آخر في الاعمال التجارية ، والتي لم يعد يهتم اليوم بها مطلقاً . ومن ثم فاذا اسقطنا تلك ارقام البيان الموجز من الحساب ، فالقليل منه يجب ان يثير مع ذلك انتباهنا واهتمامنا .

من ٩٥ الى ١١٠ قوارب هندية تراوح حمولتها
من ١٠٠–١٥٠ طناً . المعدل : ١٢٧٥٠ طناً
من ١٥٠ الى ٢٠٠ مركب عربي تراوح حمولتها
من ٦٠ – ١٠٠ طن . المعدل : ١٤٠٠٠ طناً
المجموع ٦٦٩٠٠

| | |
|---|---|
| المستهلكون | ٢٣٠٨٢٠٠٠ |
| كمية المعاملات التجارية | ٨٠٢٢٦٠٠٠ |
| حمولة | ٦٦٩٠٠٠٠٠ |

ان البيوت التجارية الاوروبية لا تتعاطى هذه التجارة .

وما اظن اننا في حاجة الى التذكير بالخلاصات التجارية التي اتينا على ذكرها لندلل على اهميتها . اننا نعلم ان انشاء خط للبواخر ومواقف في النقاط المذكورة يعني الاستيلاء على التجارة ، واستقرارنا على طريقي الهند في رأس الرجاء الصالح والبحر الاحمر .

لنفكر ملياً ، ان كل ذلك جدّي . ولتتنبه اذن فرنسا واوروبا الى موقف انكلترا وخطتها .

ان عدن ، المتلكة الانكليزية ، هي على مسافة ستة ايام من السويس ، وهذه الاخيرة على مسافة نهار وليلة من القاهرة . ان خليج عدن هو افضل الخلجان ، فمن يمنع الانكليز ، اذن ، بحجة الحرب او حماية انفسهم من العرب ، ان يحشدوا في هذه النقطة من عشرة آلاف الى اثني عشر الف رجل ، ويجمعوا البواخر وسفن الشحن لينقضوا على ترعة السويس في الوقت المناسب ، من الفصل الجميل ، بظرف ثمانية ايام على الاكثر ، يعاونهم في ذلك اسطول انكليزي يتألف من عدة بوارج تخرج من مالطة لتقوم

باعمال عدائية امام الاسكندرية ، فتخلق البلبلة والتشويش ، وتسفر النتيجة عن استسلام مصر للانكليز بدون قتال ؟

انه يسهل عليهم القيام بذلك قبل ان تستطيع فرنسا وروسيا والنمسا ان تعوق خطتهم هذه . اما اذا امتلكنا المواقف التي اشرت اليها ، فأنشأنا خطاً للبواخر ، او موقفاً واحداً في البحر الاحمر على شاطىء الحبشة ، فاننا نقطع الطريق في وجه الانكليز الذين لا يجرؤون بعد ذلك على المغامرة في قطع بحر القلزم، ناهيك بان حملة من هذا النوع تكون مستحيلة .

ان موقف الانكليز في عدن يشكل خطراً قوياً وتهديداً كبيراً لمصر اذ يمكن اخذها من الامام ومن الوراء ، وتلك هي الخطة التي اتبعها الانكليز عام ١٨٠٠ . لقد انزلوا الى الشاطىء جيوشاً في ابي قير والقصير واضطرونا الى التسليم ، فما علينا ، اتقاء خطر جديد ، إلا ان نحتل موقعاً في البحر الاحمر .

ان تقدم انكلترا نحو البحر الاحمر يستحق درساً دقيقاً خاصاً . وعلينا ان نبدأ بدرس قضية غزوها سيباي في القصير ، ومحاولات تمركزها في سوكوتورا ، وبريم ، وكاماران ، وبعثاتها الديبلوماسية في صنعاء ، والحبشة ، تلك البعثات التي قررتها ونفذتها رغماً عن نفقاتها الباهظة ، والمصارفات الضخمة المخصصة لرسم خريطة البحر الاحمر وجزره وسواحله . ولا ننس اصرار هذه الدولة على انتزاع شاطىء جزيرة بلاد العرب من محمد علي الذي كان يضايقها ويمكنه ان يهاجمها من الوراء اذا تجرأت وحاولت غزو مصر . أما احتلت عدن ، وقوّت نفوذها في زيلا وتاجورا ، واحكمت عرى علاقاتها التجارية التي اقامتها بينها وبين كوى والمورر عن طريق بربرة

لتحصل منها على المؤونة التي ابت ان تقدمها جزيرة بلاد العرب لعدن ؟

فهل يظن ان جميع هذه الاعمال وهذه النفقات التي صرفت بصورة متواصلة منذ اربعين سنة قد اتخذت بدون اي هدف ؟

ان القضية ليست قضية صرف بعض الآلاف من الفرنكات يشغل بها الرأي العام ، كما هي الحالة في فرنسا ، لكي يقال فيما بعد : انظروا ، ان فرنسا تهتم ايضاً بمشكلة البحر الاحمر . لقد اوفدنا رسلاً ، وانطنا بجمعية امر الاهتمام بقضية انشاء خط بحاري بين السويس وبوربون وانشاء بيوتات تغزو تجارتها العالم ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ كانت العاقبة تقويض المحل التجاري ، وزرع الحذر والريبة بين التجار ، وتجديد الحرب الاهلية في الحبشة ، وقنوط كل من شرع بعمل مجد هام[٢] .

٢ ان ثمة موضوعاً تاريخياً جذاباً جديراً بالكتابة عن تصرفات بعض الفرنسيين في هذه المناطق منذ العام ١٨٣٨ . فقد استطاع احدهم الحصول لفرنسا على شواطىء في مقابل وعد قطعه لأوبي زعيم تيجري بانه يزوجه من الاميرة كليمنتين كريمة ملك الفرنسيين . ونظم فرنسي ثان قافلة تجارية مؤلفة من نبيذ برسم المسلمين ، ومن احذية للاحباش الذين يسيرون حفاة الاقدام ، ومن قفازات وموسيقى عسكرية كاملة العدة للقبائل المتوحشة . وقد عاد هذا الاخير الى فرنسا وبصحبته خدام احباش زعم انهم سفراء . ثم رجع الى الحبشة وجر معه فرنسيين طبيبين من سان دنيس للبحث عن تجارة اصواف في بلاد صوف اكثر اغنامها قاس جداً . واكتشف ثالث انهراً في نقطة تخلو من الماء ، واخترع علاقات تجارية وحاول ان يقبض اثماناً باهظة لقاء ذلك . فتصور ان مثل هؤلاء الناس كوفئوا ، فنال هذا صليباً ، وذاك مناصب ، وذلك مهمات جديدة . لقد خدعت الحكومة وخدع الوزراء على شكل يحط من كرامتهم . فمن واجبنا ، بصفة كوننا عضواً في الجمعية الشرقية ، ان نشير الى هذه الاعمال . فهناك اشخاص يثق بهم بعض رجال الادارة ، فيضللونهم . فعلى الرجال الرصينين ان ينتبهوا . فان هؤلاء الجهلة يزعمون كلهم انهم يعرفون كل شيء ،

لقد شاءت انكلترا بطريقة جدية الاستقرار عند مصب البحر الاحمر ، لانها تدرك اهمية هـذا الموقف . ولذلك انفقت الملايين وانشأت مؤسسات يمكن ان تقدم لها خدمات جلى . لقد احتلت عدن مفتاح البحر الاحمر ، وهي اليوم سيدة طريق الهند عن طريق مصر ، ولا ينازعها تلك السيادة منازع . فاذا مـا تعقدت قضايا الشرق فانها تنبىء اذ ذاك فرنسا واوروبا ( باحتلالهـا مصر ، وبدون ان يشعروا بذلك في باريس ) عن اهمية موقفها في عدن.

## ملخص

وختاماً لهذا العرض الموجز الذي تناول طريق الهنـد عن طريق البحر الاحمر ، والمصالح الاوروبية وانشاء خط للبواخر بين السويس وبوربون ، والمراكز التي يجب ان تحتلها فرنسا ، واخيراً تجارة البحر الاحمر العامة ، وتجارة شاطىء افريقيا ، ألخص كلامي السابق لاجعل القضية اكثر وضوحاً وايجازاً :

١ – ان علاقات اوروبا مع الهند واوقيانيا والصين وشواطىء افريقيا الغربية سوف تتبع طريقاً جديدة ، وسيصبح البحر الاحمر منفذ هذا الممر . ٢ – ان مصالح الدول الاوروبية ، وبوجه خاص

ويظهرون امامهم كما لو كانوا رؤساء المنطقة التي يستثمرونها فيحصلون على حماية الادارات الرسمية . وقد حدث اخيراً ان احدهم زعم بكل سذاجة : « ان الجمعية الشرقية هي جمعية خطرة جداً ولا بد لها من اعلان الحقيقة . » وحسناً فعل فانه اتاح لها ان تكشف عن حقيقته وحقيقة امثاله . وبعد ، عاد من الحبشة والبحر الاحمر الزميلان السيدان المحترمان كالينيه وفيريه الضابطان في اركان الحرب ، المرسلان من قبل الماريشال سولت ، كما عاد من البحر الاحمر السيد سانت كروى باجو ، وحملوا معهم من هذه البـلاد وثائق ومعلومات لم يبق يجوز معها ان يخدع أحد او ينخدع .

مصالح فرنسا ، هي واحدة في البحر الاحمر وخليج باب المندب. وعليه فعلى هذه الدول اذن ان توحد قواهـا لتضعف في هذه النواحي توسعات انكلترا او تعادلها . ٣ - من واجب هذه الدول ، متكاتفة او غير متكاتفة ، ان تتشبه بانكلترا فتحتاط للامر وتجني نفعاً من الفوائد المقبلة التي ستجعلها طريق الهند في متناول البلدان الواقعة على شاطىء المتوسط . ٤ - اما اليوم فان طريقة الاستفادة من المستقبل ، وهي اساس كل عمل عتيد ، لتنحصر في انشاء مؤسسات حول البحر الاحمر وفي خليج باب المندب . ٥ - يجب على فرنسا ان تكون رأس هذه الرابطـة الاوروبية التي وفقت بينها مصالحها ، فتحتل المراكز التي اشرنا اليها ، وتنشىء خطاً بحرياً للبواخر بين السويس وبوربون . ٦ - ان مركز المواقف وانشاء خط للبواخر همـا الطريقة الوحيدة لانشاء مؤسسات كبرى تجارية وعسكرية ، ثم الاستعمار ، وتوطيد النفوذ الفرنسي في جزيرة بلاد العرب ، والحبشة وشاطىء افريقيـا ، ومدغشقر ، والسيطرة ، او على الاقـل ، اقتسام تجارة هذه النواحي ، وفتح اسواق جديدة لفرنسا وتوطيدها بقوة على طريقي الهند . فمن مرسيليا الى بوربون ، عن طريق مصر ، يمكن فرنسا ان تنشىء خطاً هاماً للعمليات الحربية . ٧ - ان الدول الاوروبية التي هي من طراز اول وثان تقضي عليها مصلحتها بدعم بل بمساعدة الدولة التي تأتي لتقف على طرقات الهند معارضة انكلترا .

ان قلق الصحافة الانكليزية في الهند من البعثات التي اوفدتها الحكومة الفرنسية الى الحبشة لهو برهان كاف لتأييد صحة مـا جاء في هذا الملخص .

# فهرست

# تصويب

| الصفحة | السطر | خطأ | صواب |
|---|---|---|---|
| ١٢ | ١٨ | اعجوبة نظرهم | اعجوبة في نظرهم |
| ٣٤ | ٨ | لبيّباً | لبيباً |
| ٣٦ | ٦ | يقودونه الى المدينة | يقودونه في المدينة |
| ٣٧ | ١١ | بخشيشاً للشيخ | الشيخ بخشيشاً |
| ٣٨ | ٢٢ | بايسوتيل | بايسونيل |
| ٤٧ | ١٥ | بحمّيزته | بجمّيزته |
| ٦٥ | ١٩ | المساء | السماء |
| ٦٨ | ١ | الفرحة | الفرهة |
| ٧٣ | ٨ | الحُمرة لم | الحُمرة انه لم |
| ٨٥ | ١٠ | المتخاطب | التخاطب |
| ١٠٤ | ١٠ | ووجبن | ووجهن |
| ١٢٢ | ١٩ | عثماني | السمعاني |
| ١٣٥ | ٢٢ | كثر | اكثر |
| ١٤٣ | ١٩ | موطنيّ | مواطني |
| ١٦٩ | ١٤ | ماليّاً | مليّاً |
| ٢٠٤ | ١٤ | تسلم | نسلم |

| ٢٢٣ | ١ | وجروها | يؤجروها |
|---|---|---|---|
| ٢٢٤ | ١٢ | فقدان | ففقدان |
| ٢٣٠ | ٦ | والتين | والتبن |
| ٢٤٠ | ١١ | بفوائد هذه | بفوائد مياه هذه |
| ٢٥٢ | ١٦ | رأيناها | رأيناه |
| ٢٥٦ | ١٨ | بجزيرة | بجزيرة |

انتهى طبع هذا الكتاب على مطابع نصار
في اليوم الاول من ايلول سنة
تسع واربعين وتسعماية والف .

# مباحث اجنبية في تاريخ لبنان

سلسلة وثائق ومعلومات تاريخية عن لبنان
تنشرها دار المكشوف

صدر منها :

رحلة في لبنان ( ١٨٣١ ) لجون كارن

الاقطاعية :
في مصر وفلسطين وسوريا ولبنان
من ١٢٥٠ – ١٩٠٠ لبولياك

يوميات في لبنان (١٨٣٨ – ١٨٥٢)
( الجزء الاول ) ادوار روبنصن

بيروت ولبنان ( الجزء الاول )
منذ قرن ونصف القرن لهنري غيز

يصدر تباعاً :

ثلاثة اعوام في مصر وبر الشام (١٧٨٣) لفولني

يوميات في لبنان ( الجزء الثاني ) لروبنصن

بيروت ولبنان ( الجزء الثاني ) لهنري غيز

الثمن : [illegible] لبناني